

# غُزَيَاء

---

يروى حكاياتهم

محمد علي أبو زهرة

(بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)

(لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَيَّ

(النَّاسِ)

(إِنَّ مِنْ ورائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ كَقَبْضِ عَلَيَّ  
الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا أَجْرُ خَمْسِينَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ  
خَمْسِينَ مِنْهُمْ أَوْ خَمْسِينَ مِنَّا قَالَ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)

(أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَّعِفٍ، لَوْ أَفْسَمَ عَلَيَّ اللَّهُ لِأَبْرَهُ)

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

(ولأنهم قليلون في الناس جداً سُموا غُرباء، فإن أكثرَ

الناس على غير هذه الصفات؛

فأهلُ الإسلام في الناس غُرباء

والمؤمنون في أهل الإسلام غُرباء

وأهلُ العلم في المؤمنين غُرباء

وأهلُ السُّنة الذين يميِّزونها من الأهواء والبدع غُرباء

والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين

هم أشدُّ هؤلاء غُربةً)

ابن القيم

# إهداء

إلى ابنتي زهرة

وحفيدتي جلييلة

## نار الغيرة

صغيران شقيقان، لا يعرفان من الحياة سوى اللعب واللهو الجميل. في سفوح الجبال كما في بطون الوديان يترتعان ويجريان خلف كل فراشة ترفرف وطائر يعرّذ. أحدهما أصغر من الآخر بعام تقريباً. ولكل منهما أخت توأم مولودة معه. وبعد أن تميل الشمس إلى الغروب يعودان إلى حيث منزلهما كما طلب منهما أبوهما. لا يختلفان في طباعهما كثيراً، غير أن الأكبر منهما كان حريصاً على أن يستأثر بكل ما يحلو في عينيه من أدوات اللعب وبواكير الشمار والأزهار، وكان الصغير يترك حظّه من ذلك لأخيه عن طيب خاطر، ربما مراعاةً لفارق السن بينهما، وربما إبقاءً على الصحة ورعاية للرفقة؛ فهو لا يعرف من يلهو معه سواه؛ إذ لا أطفال في المكان غيرهما.

وذات مرة بعدما شبّ قليلاً وأضحيا لهوهما البريء ونالهما منه التعب والرّهق جلسا يستريحان في ظل شجرة. وخلال تبادل أطراف الحديث بينهما ارتاع الصغير من كلمة قالها أخوه، خرجت مع نفثة غيظ كانت مكتومة: سامح الله أبانا، لولا خطؤه لكننا اليوم نرتع في الجنة ونستمع بكل ما فيها من نعيم مقيم، ولم يكن التعب يعرف سبيله إلينا، وكان الخلود فيها من نصيبنا. وكعادته كان رد الصغير دفاعاً عن الوالد والتماس العذر له. وختم حديثه مع

أخيه بقوله: لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. ثم همّ واقفاً وهو يقول في حزم:  
هيا بنا نرجع حتى لا يغضب منا أبونا وندرك معه الصلاة.

عاد الصغيران فوجدا الأب الحنون في انتظارهما وقد تهيأ لصلاة المغرب،  
وعندما رآهما بادرها بالسؤال: هل أنتما متوضئان؟ أجاب الصغير بالإيجاب  
أما الكبير فغاب قليلاً ثم عاد. أقام الوالد الصلاة وأمّ صغيريه. وبعد التسليم  
جلسوا يذكرن الله ويدعونه بما شاء لهم من الدعاء. وقبل أن يقوم من مقامه  
نظر إليهما وأمرهما بأن يأويا إلى فراشهما مبكراً لكي ينهضا مبكراً فوراءهم في  
الصباح عمل كبير في إصلاح الزرع ورعاية الأغنام.

شب الصغيران وصارا في سن الفتوة والشباب. وكان الوالد لا يفرق بينهما في  
المعاملة والحب. ومع ذلك لم يكن هاويل يزداد إلا طاعةً لأبيه ومساعدةً في  
تلبية أوامره، أمّا قابيل فكان من ذلك في منزلة أدنى من أخيه؛ وهو الأمر  
الذي كان موضع دهشة من هاويل وشعورٍ بالغرّة والاختلاف عن سلوك  
أخيه برغم أنهما شقيقان تربّيا على أب واحد في ظل بيت واحد ولكنّ لله في  
خلقه شؤون.

كبر الشقيقان وصارا في سن الزواج. فأمر آدم بأن يُزوَّج قابيلَ أختِ هاويل  
ويزوج هاويلَ أختَ قابيل وذلك حتى لا يتزوج الأختُ أختَه التي وُلدت معه.

واستعد آدمٌ لإقامة الأفرح. وأصبح على وشك أن يُرزق بالأحفاد. ولكن لم تكتمل فرحة آدمَ بزواج بنيه. وانقلبت الأفرح إلى أتراح؛ بسبب عَيْرَةِ قاييل من هابيل فقد كان سيتزوج بأخت قاييلَ وكانت جميلة. فأبى عليه قاييلُ وأراد أن يستأثرَ بها لنفسه.

ولما رأى الوالد الحنون أن الخلاف دب بين الشقيقين أشار عليهما بأن يقربا قُرباناً لله. ومن تقبّل الله قُربانه تزوجها. فقرب هابيلُ شاةً سمينة وكان صاحب غنم. وقرب قاييل حُزمة من زرع رديء وكان صاحب زرع. فنزلت نازٌ فأكلت قربانَ هابيل وتركت قربانَ قاييل. فغضب عندها وقال (لَأَقْتُلَنَّكَ) حتى لا تَنكح أختي. وعند ذلك راح الشعور بالعُربة لدى هابيل يزداد نحو أخيه وتزداد معه المرارة والألم من تصرفه غير المفهوم.

وذات ليلة أبطأ هابيلُ في الرعي؛ فبعث آدمُ قاييل لينظر ما أبطأ بأخيه. فلما ذهب فإذا هو به واستغل أنه انفرد به ووجدها فرصة مناسبة ليعبر له عن مشاعره الدفينة. وقال له في غيظ: تُقبّل منك ولم يُتقبّل مني؟ فقال هابيل: وما ذنبي؟ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. عند هذه اللحظة أصبح قاييل في قمة الغضب الذي طمس عقله ووجدها الشيطان فرصة ساححة فوسوس إليه وزيّن له قتل أخيه. وفي لحظة ضعف أمسك قاييل بحجر وضرب به رأس أخيه

فقتله وأصبح من الخاسرين وراح هاويل شهيداً غريباً لم يعرف أبوه مصيره؛  
فقد دفنه أخوه في أرض غريبة. واكتوى الأب بنار العيرة التي شبت بين  
ولديه. وحزن على ابنه هاويل حزناً شديداً.. حزناً سوف يتوارثه الآباء على  
فقد الأبناء حتى قيام الساعة.



## بَرْدٌ وَسَلَامٌ

في بيت من بيوت بابل في الزمن القديم كان رجلاً يصنع الأوثان ويبيعها لقومه. له ثلاثة من الأولاد. أوسطهم سمّاه إبراهيم. وفي هؤلاء القوم الذين كانوا يعبدون الكواكب والأصنام نشأ إبراهيم الخليل. وكان منذ نعومة أظفاره تظهر عليه مخايل العقل والفهم والتمييز؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وكرّه إليه عبادة الأوثان فكان مسلماً موحداً حنيفاً.

وبرغم صغر سنه لم يمنعه ذلك من مناقشة أبيه في أمر الأصنام. وكانت أول دعوته من نصيب أبيه؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له، واستغل الفرصة ذات يوم خلا فيه بأبيه فسأله يا أبت - وكان لا يخاطبه إلا بقوله يا أبت - هل هذه الأصنام يسمعونك إذ تدعو أو ينفعونك أو يضرّونك؟ فقال الأب مجيباً: لقد وجدْتُ آبائي كذلك يفعلون. ورأى إبراهيم في هذا الرد حَيْدَةً عن الحق وريْدَةً عن العقل ولم يمنعه ذلك عن مداومة الحوار مع أبيه على أمل أن يشرح الله صدره ويكشف الغشاوة عن عينيه. إلا أنّ أباه أصّر على موقفه، وطلب من إبراهيم أن يهجره، ويتركه في حاله مَلِيّاً. فعندها قال له إبراهيم: سلام عليك فلا يصلك مني مكروه، ولا ينالك مني أذى، وأنت سالم من ناحيتي، وزاده خيراً فقال: سأستغفر لك ربي.

وكان إبراهيم يذهب إلى المعبد في الأوقات التي يكون فيها قومه مجتمعين، فيخلو ببعضهم ويناقشه بالعقل ويسأله كما سأل أباه من قبل: هل هذه الأصنام يسمعونك إذ تدعو أو ينفعونك أو يضرونك؟ فيكون الجواب مثل جواب أبيه من قبل. ولم يكتف في الكلام معهم بالحديث عن الأصنام، بل ناقشهم أيضاً في عبادة الكواكب وأنها لا تصلح للألوهية؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة، مسخرة تطلع تارة وتغيب أخرى، والرب لا ينبغي أن يغيب ولا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية. فكان جوابهم في الثانية كجوابهم في الأولى. فينكر عليهم ويسخر من عقولهم ويستخف بأصنامهم، ويشعر في ذات نفسه بأنه في غربة عن قومه ولا سبيل إلى إيقاظ العقل فيهم إلا بحدث عظيم. عند ذلك جاءتته فكرة مناسبة واطمأن إلى تحقيقها.

وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى خارج البلد فدعاه أبوه ليحضره معهم، فامتنع بحجة أنه مريض. وكان مقصوده إهانة أصنامهم ليثبت لهم بالدليل العملي بطلان ما هم عليه من عبادة أصنام تستحق أن تكسر، وأن تهان غاية الإهانة. فلما خرجوا إلى عيدهم ذهب إلى المعبد مسرعاً مستخفياً فوجد الأصنام في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها، فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ألا تأكلون ما

لكم لا تنطقون؟ ثم انقض عليهم ضرباً باليمين؛ لأن اليمين أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرهما بفأس كانت معه، فجعلهم حطاماً كلها إلا كبيراً لهم وضع الفأس في يده.

ولما رجعوا من عيدهم، ووجدوا ما حل بمعبوداتهم قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين. وفي هذا دليل ظاهر لهم على جهلهم وغياب عقولهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بأهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء. لكنهم قالوا من جهلهم، وقلة عقلهم، وكثرة ضلالهم وخبالهم: من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين؟ قالوا سمعنا فتى يذكرهم بالعيب والازدراء اسمه إبراهيم؛ إذن فهو الكاسر وكان قد توعدهم مرة بقوله: وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مُدبرين. قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون في الملاء الأكبر على رءوس الأشهاد بأنه قال ذلك وتوعد الأصنام، وكان هذا أكبر مقاصد إبراهيم أن يجتمع الناس كلهم فيقيم عليهم الحجة على بطلان ما هم عليه.

فلما اجتمعوا وجاءوا به قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون؟ فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا: إنكم أنتم الظالمون في تركها لا حافظ لها، ولا حارس عندها. ثم نُكسوا على

رءوسهم في حَيْرَة ثم أطرقوا وقالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. فعند ذلك قال لهم: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفَعكم شيئاً ولا يضركم؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون؟ ولما انقطعوا وُعُلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة، انصرفوا إلى استعمال قوتهم وسلطانهم، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، وقالوا حَرَّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم منتقمين لآلهتكم.

ثم شرعوا يجمعون حطباً من جميع الأماكن. ومكثوا مدة يجمعون له. حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت نذرت لئن شُفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم. ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرت وتأججت والتهبت وعلا لها شر لم يُر مثله قط. ثم وضعوا إبراهيم في كفة منحنيق. وراحوا يقيّدونه ويكتفونه. وهو يقول لا إله إلا أنت سبحانك. ثم ألقوه في النار لتكتمل عُربته في الظاهر. أما في الباطن فكان في برد وسلام، وأرادوا به كيداً بعقولهم الضعيفة فجعلهم الله الأخسرين.

## ابن الأخ الحبيب

وقعت في حياة إبراهيم الخليل أحداث عظيمة، كان من أعظمها قصة لوط عليه السلام مع قومه وما حل بهم من النعمة الشديدة؛ وذلك أن لوطاً كان ابن أخي إبراهيم وكان إبراهيم يحبه ويقربه. وكان لوط قد نزح عن دار عمه الخليل بأمره له وإذنه. فنزل بمدينة سدوم وكانت عاصمة البلاد حولها. ولها أهل شواذ من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طويّة وأردئهم سريرة وسيرة. يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر. ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا فاحشةً لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم. وهي إتيان الذكران من العالمين وترك من خلق الله من النساء لعباده الصالحين. فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفعال المستقبحات. فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم. واستمروا على فجورهم وكفراهم. فأحل الله بهم من البأس الذي لا يُردّ ما لم يكن في خلدتهم وحسابهم. وجعلهم مُثَلَّةً وعِبْرَةً يتعظ بها العقلاء من العالمين. (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَطَهَّرُونَ).

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ  
 وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ  
 بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ  
 قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي  
 بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ  
 فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا  
 مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ).

ولما خرجت الملائكة من عند إبراهيم وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل. أقبليوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان. اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم. فطلبوا من لوط عند غروب الشمس أن يستضيفهم فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره. وحسبهم بشراً من الناس وسيئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب؛ وذلك لما يعلم من أنه سيدافع الليلة عنهم كما كان يصنع في غيرهم. وكان قومه قد اشتروا عليه ألا يضيف أحداً. ولكن رأى ما لا يمكن الفرار عنه فجاء بهم فلم يعلم أحداً إلا أهل البيت. فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط. فجاءه قومه يهرعون إليه (وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ

السَّيِّئَاتِ) أي الفاحشة العظيمة. (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ). فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد مجيبين لنبیهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: (لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ) فواجهوه بهذا الكلام القبيح. ثم إنه جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وهم في إلحاح وإنحاح. فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال: (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) فقالت الملائكة: (يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ) فخرج عليهم جبريل فضرب وجوههم بطرف جناحه فطمست أعينهم فرجعوا يتحسسون الحيطان (وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي).

تقدمت الملائكة إلى لوط آمرين له بأن يسير هو وأهله من آخر الليل ولا يلتفت منهم أحد عند سماع صوت، إلا امرأته فإنها سوف يصيبها ما أصابهم. وخرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابتناه فلما خرجوا من بلادهم وطلعت الشمس جاءهم من أمر الله ما لا يُرد ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصد. فاقبل جبريل بطرف جناحه سدوم وما حولها وكانت سبع

مدن بمن فيها من الأمم فرفع الجميع حتى بلغ بها عنان السماء حتى سمعت  
الملائكة أصوات دِيكتهم ونباح كلابهم. ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها  
(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) صخر شديد صلب (منضود)  
يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء (مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ) مكتوب  
على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).  
وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة مُنتنة لا يُنتفع بمائها ولا بما حولها من  
الأراضي لرداءتها ودناءتها. فصارت عبرة وعظة وآية وعاش لوط بين هؤلاء  
القوم الشواذ غريباً حتى أهلكهم الله ونجاه وبناته من بينهم.



## عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

وفي بيت من بيوت النبوة.. في أول بيت من بيوت بني إسرائيل.. في بيت يعقوب بن إسحاق. لما كبر يعقوب وصار في سن الزواج قدم على خاله له في أرض حَرَّانَ، وكانت له ابنتان: اسم الكبرى ليا، واسم الصغرى راحيل وكانت أحسنهما وأجملهما، فطلب يعقوب الزواج بالصغرى من خاله، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين، فلما مضت المدة صنع خاله طعاماً، وجمع الناس عليه، وزف إليه في الليل ابنته الكبرى ليا. فلما أصبح يعقوب إذا هي ليا، فقال لخاله: لماذا غدرت بي؟! وأنا إنما خطبتُ إليك راحيل، فقال: إنه ليس من عاداتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أن أزوجك أختها فاعمل سبع سنين أخرى، فعمل سبع سنين، ثم أدخلها عليه مع أختها، وكان ذلك مباحاً في شريعتهم، ثم نُسخ في شريعة التوراة.

وقد ولدت له ليا عشرة من الذكور. ثم إن راحيل دعت الله تعالى وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب، فسمع الله نداءها، وأجاب دعائها، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً، سمته يوسف. وبعد يوسف ولدت أخاه بنيامين ثم ماتت راحيل بعد ولادة بنيامين.

ورجع يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده في أرض كنعان حيث كان يسكن جده إبراهيم عليه السلام. وكان يوسف قد قُسم له ولأمه شطر الحسن، وكان ليعقوب أخت فدفع إليها يوسف لتربيته بعد موت أمه، فأحبته حباً شديداً وأحبه يعقوب أيضاً حباً شديداً، فقال لأخته: يا أختي، سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر أن يغيب عني ساعة. فقالت: والله ما أنا بتاركته ساعة. فأصر يعقوب على أخذه منها، فقالت: اتركه عندي أياماً لعل ذلك يسلّيني، ثم عمدت إلى الخزام الذي كان يَشُدُّ به إسحاق ظهره، وكان عندها؛ لأنها كانت أكبر أولاده، فحزمته على وسط يوسف ثم قالت: قد فقدتُ الخزام فانظروا من أخذه؟ فبحثوا فوجدوه مع يوسف، وكان من مذهبهم أن صاحب السرقة يأخذ السارق له لا يعارضه فيه أحد، فأخذت يوسف فأمسكته عندها حتى ماتت وأخذته يعقوب بعد موتها.

فلما رأى إخوة يوسف محبة أبيهم له وإقباله عليه حسدوه وكبر ذلك عليهم. ثم إن يوسف رأى في منامه كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر تسجد له، فقصّها على أبيه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة فقال له أبوه: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو

مبين. ثم فسّر له أبوه رؤياه وقال إن الله سوف يجتبيك ويعلمك من تأويل الأحاديث.

وسمعت ليا امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه فقال لها يعقوب: اكنمي ما قال يوسف ولا تخيري أولادك. قالت: نعم. فلما أقبل أولاد يعقوب من الرعي أخبرتهم بالرؤيا، فزادوا حسداً وكرهاً له، وقالوا: ما عني بالشمس غير أئبنا، ولا بالقمر غيرك، ولا بالكواكب غيرنا، إن ابن راحيل يريد أن يتملك علينا ويقول أنا سيدكم. وتأمروا بينهم أن يفرقوا بينه وبين أبيه، وقالوا: إن يوسف وأخاه أحب إلى أئبنا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين تائبين.

فقال قائل منهم وهو الكبير لا تقتلوا يوسف؛ فإن القتل عظيم وألقوه في الجب يلتقطه بعض السيارة. فأجمعوا عند ذلك أن يدخلوا على يعقوب ويكلموه في إرسال يوسف معهم إلى البرية، وأقبلوا إليه ووقفوا بين يديه، وكذلك كانوا يفعلون إذا أزدادوا منه حاجة، فلما رآهم قال: ما حاجتكم؟ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا إلى الصحراء يرتع ويلعب وإنا له لحافظون. فقال لهم يعقوب: إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. فقال له بنوه: لئن

أكله الذئب ونحن عصبية إنا إذا لخاسرون. فاطمأن إليهم واستجاب لهم فخرج معهم يوسف وهم يكرمونه، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة وجعل بعض إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيمًا، فضربوه حتى كادوا يقتلونه.

فلما كادوا يقتلونه قال لهم أخوهم الكبير: أليس قد أعطيتموني موثقاً ألا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى الجب ونزعوا قميصه، ثم ألغوه فيه وكان في البئر ماء، فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فأقام عليها.

ثم عادوا إلى أبيهم عشاء يبكون فقالوا: يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب. فقال لهم أبوهم: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل. ثم قال لهم: أروني قميصه. فأروه فقال: تالله ما رأيت ذئباً أحلم من هذا! أكل ابني ولم يشق قميصه!

وفي البئر كان يوسف في غربة في الظاهر. أما في الباطن فكان له شأن آخر.. شأن يعلمه الله الذي آتاه العلم والحكمة والنبوة.. فقد قدر له أن يخرج من البئر بعدما ألقى فيه ليهلك وبيع ببيع العبيد، ومملكه مصر، ومكن له في الأرض، وأعلاه على من بغاه سوءاً من إخوته، وجمع بينه وبين والديه وإخوته بقدرته، وجعل في قصتهم عبرة لأولي الألباب.

## نجوت من القوم الظالمين

لما خرج موسى عليه السلام هاربًا من قوم فرعون بعدما قتل رجلاً من أهل مصر انتهى إلى مدين، على الحال التي ذكرها الله عنه، وهو وحيد غريب خائف جائع، فقال: يا رب، وحيد مريض غريب. فقيل له: يا موسى: الوحيد من ليس له أنيس مثلي، والمريض من ليس له طبيب، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة.

خرج عبدالله ورسوله وكليمه موسى من مصر خائفاً يترقب ويتلفت. خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون. وكان لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب. وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها. (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ هُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْسِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ

أَنْ تَأْجُرِنِي بِمَائِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ  
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ  
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

ولما توجه لتقاء مدين سأل الله أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود. فاستجاب الله له وأوصلته الطريق إلى مقصود وأي مقصود. ولما ورد ماء مدين وكانت بئراً يستقون منها. ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة. وهم قوم شعيب عليه السلام. وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى. ولما ورد الماء المذكور وجد عليه جماعة كبيرة من الناس يسقون أغنامهم. ووجد خلفهم امرأتين تكفان غنمهما أن تحتلط بغنم الناس. فسألهما ما خطبكما قالتا لا نقدر على ورود الماء إلا بعد انصراف الرعاة. وذلك لضعفنا وضعف أبنينا وكبره. فسقى لهما ثم ذهب إلى الظل تحت شجرة.

وكان موسى قد سار من مصر إلى مدين غريباً وحيداً خائفاً يتلفت خلفه، ولم يأكل إلا البقل وورق الشجر. وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء. وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإنه محتاج إلى شق تمرة فقال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير. فجاءته

إحدى الفتاتين تمشي على استحياء. وهو مشي الحرائر العفيفات. فقالت له إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. وقد صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها بريية. وهذا من تمام حياؤها وصيانتها. فلما جاءه وأخبره بأمر خروجه من مصر فراراً من فرعونها. قال له ذلك الشيخ لا تخف فقد خرجت من دولتهم. ونجوت من القوم الظالمين.

نعم كان موسى غريباً مطارداً حتى اصطفاه الله وآواه، وآناه النبوة والرسالة وكلم الله موسى تكليماً.

## لن نُؤثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ

بعث الله موسى بن عمران إلى شعب بني إسرائيل. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض. يعيشون في مصر بعد يوسف عليه السلام. في حُكْم فراعنة مصر الجبارين الذين كانوا يستعبدوهم ويسخروهم في خدمتهم. وأمر الله موسى بعدما آتاه النبوة والرسالة أن يذهب إلى فرعون الذي طغى. وأن يطلب منه أن يخلّي سبيل بني إسرائيل ويدعهم يعبدون ربه. ولما أمر موسى بالذهاب إلى فرعون (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مَلِكًا فَأَلَّا يَمُوتَ أَتَيْنَا لَكُم مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا أَن سَنَجْعَلُ لَكَ خَلِيفَةً مِّنْ أَهْلِهَا قَالَ إِنَّهُ مُبِطِّلٌ لِلنَّاسِ الْكِبْرَ وَالشُّعْرَ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ) وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ).

انطلق النبيان الصالحان مزودين بالمعجزات والآيات. وبالكلام الذي سيقولانه لفرعون: (فَاتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَا فِيهَا وَوَلَدْنَا وَلَكِنَّا نَحْنُ الْمُغْلَبُونَ وَفَعَلْنَا لَكُمُ الْيُسْرَى وَأَكْرَمْنَا وَوَدَّعْنَا بِكُم كِسْفَ الْبَلَاءِ فَأَخْرَجْنَا مَثَلَاتِ الْكُفْرِينَ أَتَيْنَاهُم مِّنْ عِزِّ رَبِّ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي كَفَرُوا وَعَلَىٰ أَعْيُنِنَا السَّاعِدُونَ) وَأَنَا مِنَ الصَّالِّينَ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَرَمْتُكُمْ فِرْعَوْنَ وَكَانَ قَوْمَهُ بِإِسْرَائِيلَ ظَاهِرِينَ وَوَدَّعْنَا بِكُم كِسْفَ الْبَلَاءِ فَأَخْرَجْنَا مَثَلَاتِ الْكُفْرِينَ أَتَيْنَاهُم مِّنْ عِزِّ رَبِّ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي كَفَرُوا وَعَلَىٰ أَعْيُنِنَا السَّاعِدُونَ) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ



وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ  
 وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَحْنُونٌ قَالَ رَبُّ  
 الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ).

ولما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهاته. ولم يبق له قول سوى العناد  
 انتقل إلى استعمال سلطانه وسطوته: (قَالَ لَكِنِ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ  
 مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ  
 الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ  
 لِلنَّاطِرِينَ). وأمام هذا البرهان لم يكن أمام فرعون إلا أن يلقي بالتهمة  
 الكبيرة: (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ  
 بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكَّ  
 بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ).

أرسل فرعون يجمع السحرة من سائر مملكته. وقال لموسى إن هذا الذي  
 جئت به سحر ونحن نتحداك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت  
 معلوم ومكان معلوم. وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام؛ أن  
 يُظهر آياتِ الله وحججه وبراهينه جهرةً بحضرة الناس. ولهذا قال (مَوْعِدُكُمْ

يَوْمَ الزَّيْنَةِ) وكان يومَ عيد من أعيادهم وجمتمع لهم. (وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحَى) في أول النهار وقت اشتداد ضياء الشمس؛ فيكون الحقُّ أظهر وأجلى.

جمع فرعون من كان ببلاده من السحرة. وكانت مصر في ذلك الزمان مملوءة بالسحرة. فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجمٌّ غفير. وحان الموعد المرتقب واللقاء المرتقب. وحضر فرعون وأمرؤه، وأهل دولته وأهل عاصمته على بكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم. فخرجوا وهم يقولون: (لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِينَ). وتقدم موسى إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال: (وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى فَتَنَّا زُغُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) واختلّفوا فيما بينهم. فقائل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر وأسروا التناجي بهذا وغيره: (قَالُوا إِنْ هَذَا إِنْ سَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا).

يقولون إنَّ هذا وأخاه هرون ساحران عليمان متقنان لهذه الصناعة. ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة. وتواصى السحرة: (فاجمعوا كيدكم)

وجميع ما عندكم. (ثم اتوا صفاً) واحداً. ثم حضَّ بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام: (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ تُلْقِفُ مَا صَنَعُوا وَإِنَّمَا صَنَعُوا كِيدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَاُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُعْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى). ثم إن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم فما كان منهم إلا أن قالوا: (رَبَّنَا أفرغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ).

أراد فرعون أن يخفي قصة السحرة إلى يوم القيامة كي يصبحوا غُرباء غير معروفين بين الناس، نعم كانوا غُرباء غربة الإيمان في كل زمان ومكان.. هذا في الظاهر.. أما في حقيقة الأمر فإنهم لما ثبتوا على الحق ثبت الله مُقلِّب القلوب قلوبهم على الإيمان والطاعة في تلك اللحظة العصبية، فكانوا أول

النهار كفرة سحرة وأصبحوا آخر النهار شهداء برة معروفين بين أهل  
السماء والأرض.

## وسلامٌ عليّ

في بيت من بيوت بني إسرائيل وُلد يحيى بن زكريا عليهما السلام.. وكان ميلاده معجزة.. فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يئس الشيخ من الذرية.. وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبي زكريا. ولد يحيى عليه السلام فجاءت طفولته غريبة عن دنيا الأطفال.. كان معظم الأطفال يمارسون اللهو، أما هو فكان جاداً طوال الوقت.. كان بعض الأطفال يتسلى بتعذيب الحيوانات، وكان يحيى يطعم الحيوانات والطيور من طعامه رحمةً بها، وحناناً عليها، ويبقى هو بغير طعام.. أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها.

وكان يحيى كثيرَ الابتعاد عن الناس وإنما يأنس إلى البراري ويأكل من الأشجار. ويشرب ماء الأنهار ويقول: من أنعمُ منك يا يحيى؟ كان غريباً وهو بين الناس.. غريباً غربة الإيمان في كل زمان ومكان. وكلما كبر يحيى في السن زاد النور في وجهه وامتأق قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام. وكان يحيى يحب القراءة، وكان يقرأ في كتب العلم منذ طفولته.. فلما صار صبياً نادته رحمة ربه: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ.

صدر الأمر ليحيى وهو صبي أن يأخذ الكتاب بقوة، بمعنى أن يدرس الكتاب بإحكام، كتاب الشريعة.. فقد رزقه الله الإقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهو صبي.. كان أعلم الناس وأشدّهم حكمةً في زمانه ودرس الشريعة دراسة كاملة، ولهذا السبب آتاه الله الحكمة وهو صبي.. كان يحكم بين الناس، ويبين لهم أسرار الدين، ويعرفهم طريق الصواب ويحذّرهم من طريق الخطأ.

وكرر يحيى فزاد علمه، وزادت رحمته، وزاد حنانه بوالديه، والناس، والمخلوقات، والطيور، والأشجار.. حتى عم حنائه الدنيا وملاها بالرحمة.. كان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يدعو الله لهم.. ولم يكن هناك إنسان يكره يحيى أو يتمنى له الضرر. كان محبوباً لحنانه وزكاته وتقواه وعلمه وفضله.. ثم زاد يحيى على ذلك بالتنسُّك فكان حضوراً.

وكان يحيى إذا وقف بين الناس ليدعوهم إلى الله أبكاهم من الحب والخشوع.. وأثر في قلوبهم بصدق الكلمات وكونها قريبة العهد من الله وعلى عهد الله.. وفي يوم خرج أبواه في طلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعوا به أبكاهما بكاء شديداً بسبب ما هو فيه من العبادة والخوف من الله. ثم إن زكريا فقد ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية. فإذا هو قد

احتفر قبراً وأقام فيه بيكي على نفسه. فقال: يا بُني أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرتة قائماً تبكي فيه! فقال يأبت أأست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار عقبة لا تُقطع إلا بدموع البكّائين؟ فقال له: ابك يا بني فبكيا معاً.

وكان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة. وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر. ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم. ولا عبداً ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه. فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني. قال: لا تغضب. قال لا أستطيع إلا أن أغضب. قال لا تقتنِ مالا. قال أمّا هذه فعسى.

وكان الله قد أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن. وكاد أن ييطئ في تبليغ الرسالة. فقال له عيسى: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن. فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن؟ فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أُعذّب أو يُجسّف بي. فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعده على الشرف. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن:

أمركم بأن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً؛ فإن مثل ذلك كمثّل من اشترى عبداً من خالص ماله بفضة أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده. فأياكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ فإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت. فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثّل رجل معه صرة من مسك في جماعة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو، فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفندي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً؛ فإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل.

وكان يحيى خيّر أهل زمانه وأجملهم وأصبحهم وجهاً؛ كما قال الله تعالى عنه (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) لا يحتاج إلى النساء. فهوته زوجته ملك بني إسرائيل؛ فأرسلت إليه فعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها. فأجمعت على قتل يحيى. وكان لهم عيدٌ يجتمعون إليه في كل عام. وكانت عادة الملك أن يعد ولا يُخلف



ولا يكذب، فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيّعته. وكان بما معجباً. فلما شيّعته قال الملك سليمان فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك. قالت: أريد دم يحيى بن زكريا. قال لها: سليمان غيره قالت: هو ذاك. قال هو لك. فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي. فقتلوه، وقدموا رأسه على صحن للملك، فقدم الصحن إلى هذه البغي زوجته.

عاش يحيى بن زكريا بين الناس غريباً غربة الإيمان في الظاهر، ولكنه كان في الحقيقة كما أثنى الله تعالى عليه ثناءً حسناً فقال تعالى: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بَوَالِدَيْهِ وَمَنْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا).

## بل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ

وكما اصطفى الله آدم ونوحاً وآل إبراهيم، اصطفى كذلك آل عمران والدي مريم البتول. وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه. وكانت زوجته من العابدات. وكان زكريا نبياً ذلك الزمان زوج خالة مريم. وكانت أم مريم لا تحبل، فرأت يوماً طائراً يطعم فرخاً له فاشتتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها حبيساً في خدمة بيت المقدس، فحاضت من فورها ثم حملت بمريم. ولما ولدتها كان من شأنها ما قصه الله علينا:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتَهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

ولما وضعتها وأتمت رضعها خرجت بها إلى المسجد، فسلمتها للقائمين على أمر المسجد. ولأنها ابنة إمامهم وصاحبِ صَلَاتِهِم تنازعوا أيهم يكفلها. وكان زكريا نبيهم وزوجته خالتها والحالة بمنزلة الأم، فأراد أن يكفلها، فتخاصموا في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم: (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلَى أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ). فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها. واتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواه، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من خدمة المسجد إذا جاءت نوبتها. وتقوم بالعبادة ليلاً ونهاراً حتى صارت يُضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل. واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة. حتى أن نبي الله زكريا كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، فيسألها أتى لك هذا؟ فتقول هو من عند الله.

ثم إن الملائكة بشرت مريمَ باصطفاء الله لها على سائر النساء، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب. وبُشِّرَتْ بأن يكون نبياً شريفاً (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ). ويكون معجزة لبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وأمروها بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع؛ لتكون أهلاً لهذه

الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة، فكانت تقوم في الصلاة حتى تفتطرت قدماها رضي الله عنها: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّجِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ).

شاء الله ولادة عيسى وكان أمراً مقضياً، فنفخ جبريل في مريم فحملت من فورها. ولما ظهرت عليها علامات الحمل كان أول من فطن لذلك رجلاً من عبّاد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار. وكان ابن خالها. فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً؛ وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج. فعرض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم فمن خلق الزرع الأول؟ فقال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم. فمن خلق الشجر الأول؟ فقال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. فقال لها: فأخبريني خبرك فقالت إن الله بشرني بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم يكون نبياً: (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ الْجِدْعَ النَّخْلَةَ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ  
يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا).

وُلد عيسى فلما وُلد خَرَّتْ الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها،  
وحارت الشياطين في سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس أمر عيسى،  
فوجدوه في حِجْر أمه والملائكةُ محدقة به. وقد ظهر نجم عظيم في السماء ليلة  
مولده، وقد خاف مَلِك القُرس من ظهور هذا النجم، فسأل الكهنة عن  
ذلك؟ فقالوا هذا المولود عظيم في الأرض. فبعث رسله معهم ذَهَب ومُرّ  
وليان هديةً إلى أم عيسى. فلما قدموا الشام سألهم مَلِكُها عما أقدمهم  
فذكروا له ذلك. فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم  
ببيت المقدس. وكان اشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما  
معهم، وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه. فلما  
وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها إن رسل مَلِك الشام إنما جاءوا ليقتلوا  
ولذلك؛ فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقامت به هناك. حتى بلغ عمره اثني  
عشرة سنة وظهرت عليه كرامات ومعجزات في صغره، منها أن التاجر الذي  
سكنوا عنده افتقد مالا من داره، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء  
والمخاويع، فلم يعلم من أخذه، فلما رأى عيسى ذلك عمد إلى رجل أعمى

وآخر مُقعد كانا متلازمين، فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانفض به فقال: إني لا أستطيع ذلك. فقال بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما المال من الكوفة في الدار. فلما قال ذلك صدّقه فيما قال وأتيا بالمال، فعظّم عيسى في أعين الناس وهو صغير وعرضوا عليه وعلى أمه مالاّ جزيلاً فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس.

ثم إن عيسى وهو ابن ثلاثين سنة أنزل الله عليه الإنجيل، ومكث حتى رُفِع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ).

ولما بُعث عيسى ابن مريم إلى بني إسرائيل وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون منهم يعجبون منه ويستهزئون به، فيقولون: ما أكل فلان البارحة؟ وما ادخر في منزله؟ فيخبرهم؛ فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شكاً وكفراناً. وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه؛ إنما يسبح في الأرض

ليس له قرار، ولا مكان يُعرف به. وكان أول ما أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي، فقال لها مالك أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها، وإني عاهدت ربي ألا أبرح موضعي هذا حتى أذوق ما ذاق من الموت أو يحييها الله لي. فقال لها عيسى أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم. فصلّى عيسى ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي، فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ثم أقبلت على أمها فقالت يا أماه: اصبري واحتسي. فبلغ ذلك اليهود فزادوا عليه غضباً وحسداً.

وكان من نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعاوناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له: (وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ). ثم إن عيسى أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً فلما أتموها سألو عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئنّ بها قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وتكون لهم عيداً يُفطرون عليها يوم فطرهم، فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل،



فقام إلى مصلاه وتضرع إلى الله؛ فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والحواريون ينظرون.

ولما ضاق اليهود بعيسى وقرروا التخلص منه وَشَوْا به إلى مَلِك ذلك الزمان. وكان الرومان إذا أرادوا قتل أحد صلبوه. فأنقذه الله منهم ورفعهُ إليه من بين أظهرهم وألقى شَبَهه على أحد أصحابه فأخذوه فصلبوه وهم يعتقدون أنه المسيح.

رفع الله عبده عيسى إلى السماء وخلَّصه من اليهود والرومان، وكانوا حينما قرروا قتله وصلبته حصروه في دار في القدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت. فلما دخلوا عليه وهو بين الحواريين ألقى الله شَبَهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورَفَع عيسى من فُتحة في سقف ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون. ودخلت الشرطة فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شَبَهه فأخذوه ظانين أنه عيسى. فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانةً له حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فصلبوا الشبيه على الصليب ورفَع المسيح إلى السماء معزراً كريماً، بعدما عاش في الأرض غريباً غربة المؤمنين في كل زمان ومكان.

## إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

وفي زمن قدس قبل عيسى عليه السلام كان مجموعة من الشباب المؤمنين، وقومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام. وكان هؤلاء الفتيان من أبناء الملوك وأبناء الأكاير. وفي يوم عيد لقومهم رأوا ما يفعلونه من السجود للأصنام. فأنكروا ما رأوه وانفقوا على اجتنابهم والتبرؤ منهم والخروج من بينهم والفرار بدينهم. ولجأوا إلى الكهف فكان من أمرهم ما قص الله علينا:

رَأْمٌ حَسِبْتِ أَنْ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ

اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ  
 رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ  
 اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُعبًا وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ  
 لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا  
 رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى  
 طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا  
 عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا  
 عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ  
 أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ  
 لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ  
 سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ  
 بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ  
 مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدًّا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ  
 إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا وَلِئِثُوا فِي كَهْفِهِمْ  
 ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا.

وكان في قصتهم عبر عظيمة، منها أن من يجد الله في قلبه صدقَ الإيمان يربط على قلبه ويشبته ويحميه ويُجري الخوارق من أجله حتى وإن عاش بين الناس غريباً فإنها غربة الإيمان في كل زمان ومكان.

## وشاهدٍ ومشهود

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام، في قرية من قرى اليمن وهي بخران، عاش مَلِكٌ وكان له ساحر. فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبرت سِنِّي وحضر أجلي فادفع إليَّ غلاماً لأعلمه السحر، فدفَع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر. وكان في الطريق بين قصر الملك وبيت الساحر راهب فأتى الغلامُ على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه. وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال ما أَخْرَك؟ وإذا أتى أهله ضربه وقالوا: ما أَخْرَك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حَبَسَنِي أهلي. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حَبَسَنِي الساحر. فبينما هو ذات يوم إذ مر على حيوان فظيع عظيم، قد حبس الناس فلا يستطيعون المرور، فقال الغلام: اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله أم أمر الراهب؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمر الناس. وربما فقتلها ومضى ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك. فقال: أي بُنْي أنت اليوم أفضلُ مني وإنك ستبتلى فإن ابْتُلِيت فلا تدلَّ عليَّ.

فكان الغلام يُبرئ الأكمه الأعمى والأبرص ويشفيهم الله على يديه. وكان جليساً للملك قد عمي فسمع بالغلام فأتاه بمدايا كثيرة فقال: اشفني ولك

ما ههنا كلُّه، فقال: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنتَ به ودعوت الله شفاك. فأمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي قال: أنا؟ قال: لا ربي وربك الله. قال: أولك رب غيري؟ قال: نعم ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فأُتي به. فقال: أيُّ بُنيِّ بلغ من سحرك أن تُبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدوية؟ قال: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي ربي قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيري؟ قال ربي وربك الله. فأخذه أيضاً بالعذاب ولم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى الراهب فقال: ارجع عن دينك فأبي، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه. وقال للأعمى ارجع عن دينك فأبي فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه.

وقال للغلام ارجع عن دينك فأبي، فبعث به مع نفر من جنده إلى جبل كذا وكذا. وقال إذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فارموه من فوقه. فذهبوا به فلما علوا الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا أجمعون. وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال كفانيهم الله. فبعث به مع نفر في زورق فقال: إذا دخلتم البحر فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه في البحر. فدخلوا به البحر فقال الغلام: اللهم اكفنيهم

بما شئت؛ فانكفأ بهم الزورق فغرقوا أجمعون. وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال كفانيهم الله.

ثم قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتي وإلا فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال تجمع الناس في مكان واحد ثم تربطني على جذع وتأخذ سهماً من كِنَانِي ثم تقول: بسم الله رب الغلام فإنك إذا فعلت ذلك قتلتي. ففعل ووضع السهم في كيد القوس ثم رماه وقال بسم الله رب الغلام فوق السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام. فقبل للملك: أرايتَ ما كنتَ تحذر فقد نزل بك لقد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فحُفرتُ فيها الأخاديد وأُضمرتُ فيها النيران وقال: من رجع عن دينه فدَعُوهُ وإلا فأقحموه فيها. فكان الناس يتدافعون فيها ويتواقعون وجاءت امرأة بابتن لها ترضعه فكأها تقاعستُ أن تقع في النار فقال الصبي: اصبري يا أمه فإنك على الحق، ففي هؤلاء نزل قول الله تعالى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدِ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُؤُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ

عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودًا وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ  
 الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنَّ  
 الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ  
 الْحَرِيقِ).

نعم لقد ألقى أصحاب الأعدود في النار، وظن من فعل بهم هذا أنه بذلك  
 سيخفي خبرهم عن الناس، وأنهم سيصبحون غرباء ولكنها غربة المؤمنين في  
 كل زمان ومكان في الظاهر، أما في الحقيقة فإن الله جعلهم آية لكل شاهد  
 ومشهود.



## المَلِكِ التَّائِبِ

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام بينما مَلِكٌ في مملكته، ففكر فعلم أن ذلك زائل عنه، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه، فخرج ذات ليلة من قصره، وسار حتى أصبح في مملكة غيره. وأتى ساحل البحر فكان يخلط الماء والطين ويصنع الطوب فيأكل ويتصدق بالزيادة على الناس. ولم يزل كذلك حتى وصل خبره إلى مَلِكِ هذه البلدة، فأرسل إليه فأبى أن يأتيه، فركب إليه المَلِكُ فلما رآه ولَّى هارباً فركض في أثره فلم يدركه. فناداه: يا عبدالله إنه ليس عليك مني بأس، فقام حتى أدركه فقال له: من أنت رحمك الله؟ فقال: أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا، وقد فكرتُ في أمري فعلمتُ أن ما أنا فيه زائل، وأنه قد شغلني عن عبادة ربي فتركته وحثت ههنا أعبد ربي. فقال له: ما أنت بأحوجَ لما صنعتَ مني، فنزل عن دابته فسيبها وتبعه فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل، وأصبحا غريبين بين الناس ولكنها غربة المؤمنين في كل زمان ومكان في الظاهر، أما في الحقيقة فإن الله تعالى جعلهما يخسران الدنيا ويكسبان الآخرة.

## وإنك لعلى خلق عظيم

لما مات أبو طالب ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن نالته منه في حياة عمه أبي طالب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى فخرج إليهم وحده. ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرفهم وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب بن عمرو بن عمير، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم فيما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال أحدهم: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟ وأسمعه كلاماً غليظاً وسخروا منه. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف. وقال لهم إن فعلتم ما فعلتم فاكنتموا عليّ. وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيحزرتهم ذلك عليه. فلم يفعلوا وأغزوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ويلقونه بالحجارة حتى أدموا قدميه حتى اجتمع عليه الناس وأجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه.

فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقي من سفهاء أهل الطائف. ولما اطمأن قال: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي. ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات. وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك. أو تُحل عليّ سخطك، لك العُتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.

وقالت عائشة رضي الله عنها إنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أُحُد؟ قال: ما لقيتُ من قومك كان أشدَّ منه يومُ العقبة؛ إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل فلم يجني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب. فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلّنتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك. وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. ثم ناداني ملكُ الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملكُ الجبال. قد بعثني إليك

ربك لتأمرني ما شئت. إن شئت أن تطبق عليهم الأحشيين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً.

نعم صدق من قال فيك: (وإنك لعلی خلق عظیم) ومن سَمَّاكَ: (بالمؤمنين رءوف رحيم). وصدقت أنت إذ قلت: (بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ).

## أول داعية إلى الإسلام بعد النبي

كان عليُّ بن أبي طالب أول من أسلم وهو ابن تسع سنين. ثم أبو بكر الصديق صديق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان صدرًا معظماً ورئيساً في قريش مكرماً وصاحب مال وداعية إلى الإسلام. وكان محبباً متألفاً يبذل المال في طاعة الله ورسوله؛ فقد لقي أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أحقُّ ما تقول قريش يا محمد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى إني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك إلى الله بالحق فوالله إنه للحق أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ولا تعبد غيره والموالاة على طاعته. وقرأ عليه القرآن فأسلم وكفر بالأصنام ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق. وفي هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر. إلا أبا بكر ما تلبث عنه حين ذكرته ولا تردد فيه.

ولما أسلم أبو بكر وأظهر إسلامه دعا إلى الله عز وجل وكان أول داعية بعد رسول الله. وكان أبوبكر رجلاً مألُفاً لقومه محبباً سهلاً. وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر. فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه؛ فأسلم على يديه الزبير بن العوام

وعثمان بن عفّان وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف. فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم أبو بكر فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإسلام فأمنوا.

ولما اجتمع أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم مختبئين في دار الأرقم بن أبي الأرقم وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألح أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور والخروج والمجاهرة بالإسلام. فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر يلح حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته. وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس. فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم. وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً. ووُطئ أبو بكر وضُرب ضرباً شديداً. ودنا منه الفاسق عُتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويجرفهما لوجهه. ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تميم يتعادون فأجَلَّت المشركين عن أبي بكر. وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله وهم ولا يشكّون في موته. ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عُتبة بن ربيعة. ثم رجعوا إلى

أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فتناولوه بألسنتهم وعذلوهم ثم قاموا.

فلما خلت به أمه جعل يقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت والله ما لي علم بصاحبك. فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله؟ فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً. فندت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت هذه أمك تسمع! قال فلا شيء عليك منها. قالت: هو سالم صالح. قال أين هو؟ قالت في دار ابن الأرقم. قال فإن لله عليّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأكب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبله وأكب عليه المسلمون ورقاً له رسول الله صلى الله

عليه وسلم رقة شديدة. فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي. وهذه أُمِّي بَرَّةٌ بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادعُ الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الله فأسلمت. وأقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم قبل أن يظهر الإسلام؛ فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرياء.



## صبراً آل ياسر

وفي بدء الإسلام ازداد أذى لقريش على المسلمين الجدد ليردوهم عن دينهم. وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه، وأمه سمية أول شهيدة في الإسلام، وأبو ياسر وأخوه عبدالله، من السابقين إلى اعتناق الإسلام، ونبذ الشرك وعبادة الأوثان، وكانوا من المستضعفين الذين ليس لهم أهل وعشائر في مكة يحمونهم، فكان المشركون يُنزلون بهم العذاب الشديد بلا شفقة ليرجعوا عن دينهم. وكان إسلام عمار بعد بضعة وثلاثين رجلاً؛ فقد أسلم عمار ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، والوقت حينئذ وقت فتنة، قال عمار: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فقلت له: ما تريد؟، فقال لي: وما تريد أنت؟، فقلت: أردت الدخول إلى محمد فأسمع كلامه، فقال: فأنا أريد ذلك، فدخلنا عليه، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يوماً حتى أمسينا، ثم خرجنا مستخفين.

وكان أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وبلال، وخبّاب، وصهيب، وعمّار، وأمه سمية.

ولما أسلم ياسر وسمية، وعمار وأخوه عبدالله بن ياسر غضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً، وصبوا عليهم العذاب صباً، وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه إذا حَمِيَتِ الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة فيمُرُّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: (صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة). فأما ياسر فمات من شدة العذاب، وأما سمية فطعنها أبو جهل بحربة فقتلها، وهي أول شهيدة في الإسلام. وأما عمار فشددوا العذاب عليه بالحرِّ تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغَطَّه في الماء حتى كان يفقد وعيه، وقالوا له: لا نتركك حتى تسبَّ محمداً أو تقول في اللات والعزى خيراً، فوافقهم على ذلك مُكْرَهاً. فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، ما تُرَكْتُ حتى نلث منك وذكرْتُ آهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال: أَجِدُ قَلْبِي مطمئناً بالإيمان، قال: فإن عاُدُوا فَعُد، فأنزل الله تعالى فيه وفي أمثاله: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ).

قال حَبَّاب: أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد ببرده وهو في ظل الكعبة. وقد لقينا من المشركين شدة فقلْتُ يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقال: قد كان مَنْ كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظامه من

لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه  
فيُشَقُّ باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه. والله ليتَمَنَّ الله هذا الأمر حتى يسير  
الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه  
ولكنكم تستعجلون. نعم فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرباء.

## أَحَدٌ أَحَدٌ

وكان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وعمّار، وأمه سمية، وبلال، وصهيب، والمقداد. فأما النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فمنعهما الله بقومهما، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أذراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم أحد إلا وافقهم على ما أرادوا إلا بلال؛ فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على مواليه، فأعطوه للولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ.

وفي حديث عمرو بن عبسة لرسول الله فقلت: من اتبعك؟ قال: حُرٌّ وعَبْدٌ. فإذا معه أبو بكر وبلال. وقال عطاء الخراساني: كنت عند ابن المسيب فذكر بلالاً، فقال: كان شحيحاً على دينه، وكان يُعذب في الله، فلقي النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو كان عندنا شيء لابتعنا بلالاً، فلقي أبو بكر العباس، فقال اشتر لي بلالاً، فاشتراه العباس، وبعث به إلى أبي بكر فأعتقه.

وقد كان موالي بلال يضحجونه على بطنه، ويعصرونه، ويقولون: دينك اللات والعزى، فيقول: ربي الله أَحَدٌ أَحَدٌ، ولو أعلم كلمة أعيظ لكم منها لقلتها. فمر أبو بكر بهم فقال دعوه فإنه لا يطيعكم فقالوا: اشتر أخاك في دينك،

فاشتره بأربعين أوقية فأعتقه، فقالوا: لو أبي إلا أوقية لبعناه، فقال وأقسم بالله: لو أبيتم إلا بكذا وكذا - لشيء كثير - لا شترئته. فكان الصحابة بعدها يقولون: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا؛ نعم فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرباء.

## ولستُ أبالي حين أُقتل مُسلماً

كان رهط من قبيلة عضل والقارة قدموا على رسول الله بعد غزوة أحد وتظاهروا بأنهم مسلمون فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً؛ فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله معهم نفرًا ستة من أصحابه وهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي وخالد بن البكير الليثي وعاصم بن ثابت وحُبيب بن عديّ وزيد بن الدثينة. فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لهذيل غدروا بهم واستصرخوا عليهم قبيلة هذيل. فلم يُرع أصحاب النبي الستة وهم في رحالمهم إلا ورجال هذيل بأيديهم السيوف قد غَشَوْهم، فأخذوا أسيافهم ليدافعوا عن أنفسهم فقالت هذيل: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً. فأما مرثد وخالد وعاصم فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً؛ فقاتلوا حتى قتلوا. وأما حُبيب وزيد وعبدالله فلانوا ورقوا وصدقوهم فأسروهم. ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها. وفي الطريق انتزع عبدالله بن طارق يده من القيد ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم ورموه بالحجارة حتى قتلوه. وأما حُبيب وزيد بن الدثينة فقدموا بهما مكة فباعوهما إلى قريش مقابل أسيرين من هذيل كانا بمكة. فاشترى حُبيباً بنو الحارث بن عامر وكان حُبيب هو الذي

قتل الحارث يوم بدر. فمكث عندهم أسيراً حتى أجمعوا قتله، فاستعار موسى من بعض بنات الحارث يستحدها بها فأعارتته. قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فرعتُ فرعةً عرف ذلك مني وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله.

وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من حُبيب لقد رأيته يأكل من فُطف عنب وما بمكة يومئذ من ثمرة وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقاً رزقه الله. فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصل ركعتين. ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت. فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو. ثم قال: اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً. ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي ممزج

ثم قام إليه عقبه بن الحارث فقتله؛ فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرباء.

## رُبْعُ الْإِسْلَامِ

(كنت رُبْعُ الْإِسْلَامِ أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع. أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم). إنه الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري.

وقد حَدَّثَ أَبُو ذَرٍّ بِقِصَّةِ إِسْلَامِهِ فَقَالَ: خَرَجْنَا مِنْ قَوْمِنَا غِفَارًا وَكَانَ يَسْتَحَلُّونَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، أَنَا وَأَخِي أَنَيْسٌ وَأَمُّنَا فَاذْهَبْنَا. حَتَّى نَزَلْنَا عَلَى خَالٍ لَنَا ذِي مَالٍ وَذِي هَيْئَةٍ. فَأَكْرَمَنَا خَالُنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنَا. فَحَسَدَنَا قَوْمُهُ فَقَالُوا لَهُ: إِنَّكَ إِذَا خَرَجْتَ عَنْ أَهْلِكَ خَلَقَكَ إِلَيْهِمْ أَنَيْسٌ. فَجَاءَ خَالُنَا فَحَدَّثَنَا مَا قِيلَ لَهُ. فَقُلْتُ لَهُ: أَمَّا مَا مَضَى مِنْ مَعْرُوفِكَ فَقَدْ كَدَّرْتَهُ وَلَا بَقَاءَ لَنَا فِيهَا بَعْدَ فَرَقِنَا الْإِبِلَ فَاحْتَمَلْنَا عَلَيْهَا. وَتَغَطَّى خَالُنَا بِشُوبَةٍ وَجَعَلَ يَبْكِي. فَاذْهَبْنَا حَتَّى نَزَلْنَا مَكَّةَ. وَكُنْتُ أَصْلَى قَبْلَهَا لِلَّهِ ثَلَاثَ سِنِينَ. فَقَالَ أَنَيْسٌ: إِنْ لِي حَاجَةٌ بِمَكَّةَ فَانْتَظِرْ حَتَّى آتِيكَ. فَاذْهَبْ فَتَأْخِرْ عَلَيَّ ثُمَّ آتَانِي. فَقُلْتُ مَا حَبْسَكَ؟ قَالَ: لَقِيتُ رِجَالًا يَزْعَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ عَلَيَّ دِينِكَ. فَقُلْتُ مَا يَقُولُ النَّاسُ لَهُ؟ قَالَ يَقُولُونَ إِنَّهُ شَاعِرٌ وَسَاحِرٌ وَكَانَ أَنَيْسٌ شَاعِرًا فَقَالَ لَقَدْ سَمِعْتُ الْكُهَانَ فَمَا يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ، وَقَدْ وَضَعْتَ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشُّعْرِ وَقَوَافِيهِ فَوَاللَّهِ مَا يَلْتَمِسُ لِسَانَ



أحد أنه شِعْر. ووالله إنه لصادق وإنهم لكاذبون. فقلت له هل أنت كافيّ حتى انطلق؟ قال نعم! وكنّ من أهل مكة على حذر فإنهم قد شنّوا له وتجهّموا له.

يقول أبو ذر: فانطلقتُ حتى قدمتُ مكة فاخترتُ رجلاً ضعيفاً منهم فقلت أين هذا الرجل الذي يدعونه الصابئ؟ فأشار إليّ وصرخ بأعلى صوته وجمع عليّ الناس فقال انظروا إلى هذا الصابئ، فمال أهل الوادي عليّ بكل حَجَر وعظّم حتى حررتُ مغشياً عليّ. ثم قمت كأني صنم أحمر من كثرة الدم الذي سال مني، فأتيت زمزم وغسلت عني الدم. نعم فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرياء.

## سلمان منا أهل البيت

كان سلمان رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية يقال لها جي، وكان أبوه كبير القرية. وبعد إسلامه حكى لابن عباس قصته فقال: وكنت أحب خلق الله إلى أبي. فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الفتاة. واجتهدت في المجوسية حتى كنت خادماً النار التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. وكانت لأبي ضيعة عظيمة فشغل في بنيان له يوماً. فقال لي يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي؛ فاذهب إليها، وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحبس عني؛ فإنك إن احتبست عني كنت أهدم إلي من ضيعتي. فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها. فمررت بكنيسة من كنائس النصارى. فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون. وكنت لا أدري ما أمر الناس وذلك بسبب حبس أبي إياي في بيته. فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون. فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم. وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه. فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم آتها. ثم قلت لهم أين أصل هذا الدين؟ قالوا بالشام.

فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله. فلما جئت قال: أيُّ بنيِّ أين كنت ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟ قلت يا أبي مررت بأناس يصلّون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال أيُّ بنيِّ ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه. قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا. فخافني فجعل في رجليّ قيداً ثم حبسني في بيته. وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. فقدم عليهم ركب من الشام فجاءني النصارى فأخبروني بهم. فقلت إذا قضا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأخبروني. فلما أرادوا العودة إلى بلادهم أخبروني بهم. فألقيت الحديد من رجليّ ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام.

فلما قدمتها قلت: من أفضلُ أهل هذا الدين عِلماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. فحتمته فقلت له: إني رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك وأتعلم منك فأصليّ معك. قال ادخل فدخلت معه فكان رَجُلٌ سَوءٌ يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين. حتى جمع سبع قِلال من ذهب وفضة. وأبغضته بغضاً شديداً لِمَا رأيته يصنع. ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه. فقلت

لهم: إن هذا كان رجل سؤء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بما كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً. فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدلنا عليه. فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وفضة. فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاؤوا برجل آخر فوضعه مكانه. قال سلمان فما رأيت رجلاً يصلي الخمس أفضل منه، ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. فأحبيته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله. فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له إني قد كنت معك، وأحبتك حباً لم أحب شيئاً قبلك وقد حضرتك ما ترى من أمر الله تعالى فيلبي من توصي بي؟ وبم تأمرني به؟ قال أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه؛ لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالمؤصل وهو فلان وهو على ما كنت عليه فالحق به.

قال: فلما مات ودفن لحقتُ بصاحب المؤصل. فقلت له: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك. وأخبرني أنك على أمره. فقال لي: أقم عندي فأقمتُ عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه. فلم يلبث أن مات فلما

حضرته الوفاة قلت له يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني بالحق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فيألى مَنْ توصي بي وبم تأمري؟ قال يا بنيّ والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه. إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به.

فلما مات ودفن لحقْتُ بصاحب نصيبين. فأخبرته خبري وما أمرني به صاحبي، فقال: أقم عندي فأقمتُ عنده فوجدته على أمر صاحبيه. فأقمتُ مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت. فلما حضره قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصي بي إلى فلان. ثم أوصى بي فلانٌ إلى فلان ثم أوصي بي فلانٌ إليك، فيألى مَنْ توصي بي وبم تأمري؟ قال يا بنيّ والله ما أعلم أحداً على أمرنا أمرك أن تأتيه. إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه. فإن أحببتَ فائته فإنه على أمرنا.

فلما مات ودفن لحقْتُ بصاحب عمورية فأخبرته خبري. فقال أقم عندي فأقمتُ عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم. واكتسبتُ مالاً حتى كانت لي بقرات وعنيمات. ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلانٌ إلى فلان ثم أوصى بي فلانٌ إلى فلان ثم أوصى بي فلانٌ إليك، فيألى مَنْ توصي بي وبم تأمري؟ قال

أَيُّ بُيِّ وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظْلَمَ زَمَانٌ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ يُخْرِجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ. هَجَّرْتَهُ إِلَى الْأَرْضِ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ بِهِ عِلَامَاتٌ لَا تُخْفَى، يَأْكُلُ الْهَدْيَةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كِتْفَيْهِ خَاتَمُ النَّبُوَّةِ. فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ. ثُمَّ مَاتَ وَدُفِنَ وَمَكِّثْتُ بِعَمَّورِيَّةٍ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمْكُثَ.

ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ قَبِيلَةِ كَلْبٍ تُجَّارٌ. فَقُلْتُ لَهُمْ: ائْتُوا بِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأَعْطِيكُمْ بِقَرَاتِي هَذِهِ وَعُنَيْمَتِي هَذِهِ. قَالُوا نَعَمْ فَأَعْطَيْتُمُوهَا وَحَمَلُونِي مَعَهُمْ. حَتَّى إِذَا بَلَغُوا وَادِي الْفُرَى ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ عَبْدًا. فَكُنْتُ عِنْدَهُ وَرَأَيْتُ النَّخْلَ فَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ الْبَلَدُ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي. فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ إِلَى أَنْ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمِّ لَهْ مِنْ بَنِي قَرِيظَةَ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَابْتَاعَنِي فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي لَهَا. فَاقْمَتُ بِهَا وَبُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، وَلَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرِ سَبَبِ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شِغْلِ الرَّقِّ. ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ نَخْلِ لِسَيْدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ وَسَيْدِي جَالِسٌ تَحْتِي إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمِّ لَهْ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا فُلَانُ قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ (يَعْنِي الْأَوْسَ وَالخَزْرَجَ) وَاللَّهُ إِنَّهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ الْآنَ بِقُبَاءٍ عَلَى رَجُلٍ جَاءَ مِنْ مَكَّةَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ. قَالَ

سلمان فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننتُ أني ساقط على سيدي. فنزلت عن النخلة فجعلتُ أقول لابن عمه ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي فلكنني لكمة شديدة. ثم قال مالك ولهذا؟ أقبل على عمك. فقلت لا شيء إنما أردت أن أستشبهه عما قال.

وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته. ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء. فدخلت عليه فقلت له إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غُرباء ذوو حاجة. وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. قال فقرنته إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا. وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي هذه واحدة.

ثم انصرفْتُ عنه فجمعت شيئاً. وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. ثم جئته فقلت له إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه. فقلت في نفسي هاتان اثنتان. ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببيقع العرقَد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس في أصحابه. فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره. هل أرى الخاتم الذي

وصف لي صاحبي؟ فلما رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته عرف أنني أستثبت في شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته. فأكبت عليه أقبله وأبكي. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعال. فتحولتُ بين يديه فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذاك أصحابه. قال: ثم شغلني الرِّق فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كاتب يا سلمان. فكاتبته صاحبي على ثلاثمائة نخلة أغرسها له وأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أعينوا أحاكم. فأعانوني في جمع الفسائل حتى اجتمعت لي ثلاثمائة فسيلة. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب يا سلمان فاحفر لها، فإذا فرغت فائتني أكنُ أنا أضعها بيدي. قال: فحضرت وأعانني أصحابي حتى إذا فرغتُ جئتُ فأخبرته. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها. فجعلنا نقربُ إليه الفسائل ويضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده. حتى إذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها فسيلة واحدة. فأديت النخل وبقي عليَّ المال.

فأتني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعة صغيرة من ذهب. فقال ما فعل الفارسيُّ المكاتب؟ فدُعيْتُ له فقال خذ هذه فأدّها مما عليك يا سلمان.



قلت: وأين تقع هذه مما علي يا رسول الله؟ قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك. فأخذتها فوزنتُ لهم منها. والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم وعُتق سلمان. نعم فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرباء.

## صحابي قبل هِرَقْل رأسه

في أحد مجالس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه قال لهم: سلوني عما شئتم. فسأله أحدهم: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة بن قيس. فلما وصل الخبر إلى أمه قالت له: ما سمعت بابن أعق منك، هل أمنت أن تكون أمك قارفت ما تقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ فقال لها ابنتها: والله لو ألحقني رسول الله بعد أسود للحقتُ به، وكانت فيه دعاية معروفة.

إنه عبدالله بن حذافة القرشي السهمي. من السابقين الأولين، وشهد بدرًا. عن أبي هريرة أن عبدالله بن حذافة صَلَّى فجهر بصلاته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ناج ربك بقراءتك يا بن حذافة ولا تُسمعني وأسمع ربك. وكانت له قوة وعزيمة وثبات على الدين أمام كل الفتن؛ فعن أبي رافع قال: وجه عمر جيشًا إلى الروم وفيهم عبدالله بن حذافة فأسروه، فقال له ملك الروم: تنصّر فأشركك في ملكي. فأبى فأمر به فضُلب، وأمر برميهِ بالسهم فلم يجزع، فأُنزل وأمر بقدر فُصِبَ فيها الماء وأُعلي عليه وأمر بالقاء أسير فيها، فإذا عظامه تخرج من لحمه، ثم أمر بالقاء حذيفة إن لم ينتصّر فلما ذهبوا به بكى، قال: ردوه، فقال: لماذا بكيت؟ قال: تمنيتُ أن لي مائة

نفس تُلقى هكذا في الله، فتعجب، وقال: قَبِّلْ رأسي وأنا أُحَلِّيْ عنك، فقال: وعن جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقَبِّلْ رأسه فحَلَّى بينهم، فقدم بهم على عمر، فقام عمر فقَبِّلْ رأسه.

وكان مشهوراً عنه روح الدعابة العالية؛ فيُروى أنه حل حزام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره حتى كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع، وذلك ليضحكه.

وقصته مع كسرى ملك الفرس كانت في السنة السادسة للهجرة حين عزم النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث طائفة من أصحابه بكتب إلى ملوك الأعاجم يدعوهم فيها إلى الإسلام، فانتدب عليه الصلاة والسلام ستة من الصحابة ليحملوا كتبه إلى ملوك العرب والعجم، وكان أحد هؤلاء الستة عبدالله بن حذافة السهمي، فقد اختير لحمل رسالة النبي صلوات الله عليه إلى كسرى ملك الفرس. جهز عبدالله بن حذافة راحلته، وودع زوجته وولده، ومضى إلى غايته ترفعه النجاد وتخطه الوهاد؛ وحيداً فريداً ليس معه إلا الله، حتى بلغ ديار فارس، فاستأذن بالدخول على ملكها، وأخطر الحاشية بالرسالة التي يحملها له، عند ذلك أمر كسرى بإيوانه فزين، ودعا عظماء فارس لحضور مجلسه فحضروا، ثم أذن لعبدالله بن حذافة بالدخول عليه.

دخل عبدالله بن حذافة على سيد فارس مرتدياً شملته الرقيقة، وعباءته الصفيقة، عليه بساطة الأعراب، لكنه كان عالي الهامة، مشدود القامة، تتأجج بين جوانحه عزة الإسلام، وتتوقد في فؤاده كبرياء الإيمان، فما إن رآه كسرى مقبلاً حتى أوماً إلى أحد رجاله بأن يأخذ الكتاب من يده فقال: إنما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أدفعه لك يداً بيد وأنا لا أخالف أمراً لرسول الله، فقال كسرى لرجاله: اتركوه يدنو مني، فدنا من كسرى حتى ناوله الكتاب بيده، ثم دعا كسرى كاتباً عربياً من أهل الحيرة وأمره أن يفتح الكتاب بين يديه، وأن يقرأه عليه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى...

فما أن سمع كسرى من الرسالة هذا المقدار حتى اشتعلت نار الغضب في صدره، فاحمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه لأنَّ الرسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بنفسه، فجذب الرسالة من يد كاتبه وجعل يمزقها دون أن يعلم ما فيها وهو يصيح: أيكذب لي بهذا وهو عبدي! ثم أمر بعبدالله بن حذافة أن يُخرج من مجلسه فأخرج. خرج عبدالله بن حذافة من مجلس كسرى وهو لا يدري ما يفعل الله له، أيقْتل أم يُترك حرّاً طليقاً؟ لكنه ما لبث أن قال: والله ما أبالي على أي حال أكون بعد أن أديت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وركب راحلته وانطلق، ولما سكت عن كسرى الغضب، أمر بأن يُدخل عليه عبدالله فطلبوه فلم يجدوه. فلما قدم عبدالله على النبي الله صلى الله عليه وسلم أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه الكتاب، فما زاد عليه الصلاة والسلام على أن قال: مَرَّقَ اللهُ مَلِكَهُ.

وكان من أمر غُربته وفتنته التي تعرض لها فنجاه الله منها أنه كَانَ بِالشَّامِ فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ بَغْزِ الرُّومِ وَوَلَّى عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُدَّافَةَ السَّهْمِيِّ فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُدَّافَةَ عَلَى النَّاسِ فِي طَرِيقِ الرُّومِ عَلِمُوا أَنَّ فِي نَاحِيَةِ كَذَا وَكَذَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ هَذَا النَّبِيِّ فِيهِمْ فَحَمَلَتْ الرُّومُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَقْتَطَعُوهُمْ وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُدَّافَةَ السَّهْمِيُّ. فَلَمَّا دَخَلَ الرُّومُ عَلَى هِرَقْلَ قَالُوا لَهُ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْنُونَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُدَّافَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ فَدَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ أَجِعهُ فَأَجَاعَهُ الرَّجُلُ فَكَانَ يَأْتِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِلَحْمٍ خِنْزِيرٍ فَيَضَعُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيُعْرِضُ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُدَّافَةَ وَقَالَ هَذَا طَعَامٌ لَا يَجِلُّ لَنَا أَكُلْهُ. فَدَخَلَ الرَّجُلُ عَلَى هِرَقْلَ فَقَالَ لَهُ أَنْبِئْهُ بِلَحْمِ خِنْزِيرٍ وَخَمْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ وَقَالَ هَذَا طَعَامٌ لَا يَجِلُّ لَنَا أَكُلْهُ فَإِنْ كَانَ لَكَ فِي الرَّجُلِ حَاجَةٌ فَأَطْعِمْهُ فَقَالَ اذْهَبْ فَأَطْعِمْهُ شَيْئًا فَذَهَبَ فَأَتَاهُ بِطَعَامٍ فَأَكَلَهُ فَلَمَّا أَخْبَرَ هِرَقْلُ بِذَلِكَ قَالَ قَدْ بَلَوْتَهُ

بالضراء فابتليه بالسراء فَأَتَاهُ بِالْجَوَارِيِ وَبِالطَّافِ وَمِلاهي فَلَمَّ يَلْتَمِثُ عَبْدُ اللَّهِ  
بُنْ حُدَافَةَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَأَتَاهُ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ. فَقَالَ لِلْجَوَارِيِ مَا  
كَانَ مِنْهُ إِلَّا بَيِّنَةٌ حَرَكَةٌ؟ فَقُلْنَا لَا وَاللَّهِ مَا التَّمَّتْ إِلَيْنَا. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ هِرْقُلُ فَأَتَاهُ  
فَقَالَ لَهُ هِرْقُلُ قَدْ بَلَوْتُكَ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَصَبَرْتَ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُقْبَلَ رَأْسِي  
وَتَنْجُوَ بِنَفْسِكَ؟ قَالَ لَا. قَالَ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُقْبَلَ رَأْسِي وَأَدْفَعَكَ لِكُلِّ أَسِيرٍ  
مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدِي؟ قَالَ نَعَمْ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ عَبْدُ اللَّهِ بُنْ حُدَافَةَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ كُلَّ  
أَسِيرٍ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ فَسَعَى بِهِ سَاعٍ إِلَى عُمَرَ وَقَالَ إِنَّ  
هِرْقُلَ قَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَعَهُ مَالًا فَخَزَنَهُ عِنَّا. فَدَعَاهُ عُمَرُ فَقَالَ أَيْنَ الْمَالُ  
الَّذِي بُعِثَ مَعَكَ إِلَيْنَا؟ قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا بَعَثَ إِلَيْكَ هِرْقُلُ شَيْئًا  
فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ أَنْ اسْتَخْرِجْ لِي خَبْرَهُ وَافْحَصْ عَنْ أَمْرِهِ فَاسْتَخْرِجْ  
مُعَاوِيَةَ خَبَرَ عَبْدِ اللَّهِ بُنْ حُدَافَةَ فَكَتَبَ بِهِ إِلَى عُمَرَ فَلَمَّا قَرَأَ عُمَرَ كِتَابَ  
مُعَاوِيَةَ قَامَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بُنْ حُدَافَةَ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ مَا  
مَنَعَكَ إِذْ بَلَغَ بِكَ الْجَهْدُ مَا بَلَغَ أَنْ تَأْكُلَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بُنْ  
حُدَافَةَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ مَبَاحٌ لِي وَقْتَهَا وَلَكِنِّي  
كَرِهْتُ أَنْ يَشْتَمَ بِالإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ. مَا أَعْظَمَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ الْغُرَبَاءِ؛  
لَقَدْ بَدَأَ الإِسْلَامَ غُرَبِيًّا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ.

## ربح البيع أبا يحيى

كان من السابقين إلى الإسلام، ومن المستضعفين الأوائل الذين نالهم من مشركي قريش الأذى الشديد، والبلاء العظيم، الذي لا يتحملة إلا أصحاب العقيدة، فكان من الثابتين على الحق، وقد كَنَّاه النبي صلى الله عليه وسلم بأبي يحيى، إنه صهيب بن سنان الرومي. وكان أبوه أو عمه عاملاً لكسرى على بلدة في العراق، وكانت منازلهم على الفرات، فأغارت على بلادهم الروم، فأسرتَه وهو صغير، فأقام عندهم حيناً، ثم اشترته بنو كلب، فحملوه إلى مكة، فابتاعه عبدالله بن جُدعان فأعتقه، وأقام بمكة حيناً، فلما بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم آمن به قديماً هو وعمّار بن ياسر في يوم واحد بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان من المستضعفين الذين يُعَدَّبون في الله.

قال عمّار بن ياسر: لقيتُ صهيب بن سنان على باب دار الأرقم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فقلت له: ما تريد؟، فقال لي: وما تريد أنت؟، فقلت: أردت الدخول إلى محمد فأسمع كلامه، فقال: فأنا أريد ذلك، فدخلنا عليه، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يوماً حتى أمسينا، ثم خرجنا مستخفين. وكان أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وبلال، وخبّاب، وصهيب، وعمّار، وأمه سمية.

ولما أراد صُهب الهجرة اعترضه المشركون. وقالوا له: أتيتنا صعلوكم حقيراً فكثير مالمك عندنا وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: رأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم قال فإني قد جعلت لكم مالي وأخبرهم بموضعه. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ربح البيع أبا يحيى. فخرج من بينهم غريباً طريداً خائفاً كما خرج موسى بن عمران عن أهل مصر؛ فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرياء.



## فتى قريش المدلل

كان من فضلاء الصحابة وخيارهم ومن السابقين إلى الإسلام، أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم، وكنتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، وكان يختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سراً فبصر به عثمان بن طلحة يصلي، فأعلم أهله وأمه فأخذوه فحبسوه فلم يزل محبوباً إلى أن هاجر إلى أرض الحبشة وعاد منها إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة بعد العقبة الأولى، ليعلم الناس القرآن ويصلي بهم، فكان أول سفير في الإسلام، إنه مصعب بن عمير. وقد انتفع به الناس فأمن على يديه كثير من كبار الصحابة كأسيد بن حُضير وسعد بن معاذ وغيرهما.

ومصعب بن عمير ممن اشترى الآخرة بالدنيا، وترك النعيم الذي كان يتمتع به في الدنيا ليحظى بنعيم الآخرة. فقد كان أحسن شباب مكة لباساً وأطيبهم رائحة وأنعمهم جسماً حتى إنه كان يُسمى فتى قريش المدلل، لكنه بعد إسلامه تغير حاله حتى قال سعد بن أبي وقاص لقد رأيتُه جَهد في الإسلام جهداً شديداً حتى قد رأيتُ جلده يتحشف كما يتحشف جلد الحية. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنا لجلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، إذ طلع علينا مصعب بن عمير وما عليه إلا بردة

مرفومة بفرو، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة والذي هو فيه اليوم.

وقال خبّاب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نبتغي وجه الله ووجب أجرنا على الله، فمننا من مضى ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم نجد شيئاً نكفنه فيه إلا نمرّة، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، فإذا غطينا رجله خرج رأسه، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي رأسه بها، ونجعل على رجله إذخرأ، نعم فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرباء.

## ذو النورين والهجرتين

لما ازداد أذى المشركين للمستضعفين من المؤمنين أذن الله لهم في الهجرة إلى الحبشة. فخرجوا إليها في رجب سنة خمس من البعثة. وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى نساءهم وأولادهم. فيهم عثمان بن عفان وامراته رُقِيَّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاءوا ساحل البحر فاستأجروا سفينة إلى الحبشة. وكان لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحد. فكانت أول هجرة في الإسلام.

وعندما خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما. فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد قد رأيتُ صهرَك ومعه امرأته. قال: على أي حال رأيتهما؟ قالت رأيتُه قد حمل امرأته على حمار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صحبهما الله! إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام.

خرج عثمان بأهله طريداً غريباً مهاجراً في سبيل دينه وهو ذو النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات الرسول، وذو الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة؛ وذلك أن الإسلام بدأ غريباً فطوبى للغرياء.

## مولى المغيرة لا جادتك غادية

خطب الرعية يوم الجمعة فقال: رأيتُ ديكًا نقرني ثلاثَ نقرات، ولا أراه إلا حضور أجلي. فما مرّت إلا تلك الجمعة حتى طعن، وقد عُبرَتْ رؤياه بأنه يقتله رجلٌ من الأعاجم. إنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان من سياسته أنه لا يأذن لسبِّي بقي على كفره أن يدخل المدينة، أو يعمل فيها؛ حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وهو على الكوفة يذكر له غلامًا عنده صانعًا، ويستأذنه في أن يدخله المدينة، ويقول: إن عنده أعمالًا تنفع النَّاس، إنه حدَّادٌ نقَّاشٌ نجَّازٌ؛ فأذن له عمر، فضرب عليه المغيرة كل شهر مائة درهم، فشكى إلى عمر شدة الحراج، فقال له: ما خراجك بكثيرٍ في جنب ما تعمل - وفي نية عمر أن يلقي المغيرة فيكلمه فيخفف عنه - فانصرف ساخطًا، فلبث عمرُ ليليًا، فمرَّ به العبد فقال عمر: لقد سمعتُ أنك تقول: لو أشاء لصنعت رَحَى تطحن بالريح؟ فالتفت إليه العبدُ عابسًا فقال: لأصنعنَّ لك رَحَى يتحدَّث النَّاسُ بها. فأقبل عمرُ على من معه فقال: توعدني العبدُ أنفًا.

فلَمَّا كان فجر يوم الأربعاء، قبل نهاية شهر ذي الحجة بأربعة أيام كَمَن أبو لؤلؤة في المسجد، ومعه سكينٌ ذات طرفين مسمومة، فوقف عمر يعدل

الصفوف للصلاة كعادته، فلما كَبَّرَ يصلي بالنَّاسِ، طعنه العبد في كتفه وفي خاصرته؛ فقال عمر: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ ثم أخذ العبد يسعى، لا يمرُّ على أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا طعنه؛ حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجلاً من المسلمين؛ طرح عليه بُرْتُسًا، فلما ظنَّ العُلجُ أنه مأخوذٌ؛ نَحَرَ نفسه.

وتناول عمر يدَ عبدالرحمن بن عوف؛ فقَدَّمه للصلاة بالنَّاسِ، فصلَّى بهم صلاةً خفيفةً، وحَمَلَ عمر إلى بيته وقد غلبه التَّزَفُ حتى عُشِيَ عليه، فلما أسفر الصُّبْحُ أفاق فقال: أَصَلَّى النَّاسُ؟ قالوا له: نعم. قال: لا إسلام لمن ترك الصَّلَاةَ. ثم تَوَضَّأَ وصلَّى، وقال ابنُ عمر: وتساند إليَّ وجَرَحُهُ يَتَعَبُ دَمًا، إني لأضع إصبعي الوسطى فما تَسُدُّ الفَتَقَ.

وقال عمر لابن عباس: اخرج فنادِ في النَّاسِ: أعن مَلَأَ منكم كان هذا؟ يعني اتفاقاً. فقالوا: مَعَاذَ اللَّهِ، ما علمنا ولا اطلَّعنا. وذلك أن عمر ظنَّ أن له ذنبًا إلى النَّاسِ لا يعلمه، فدعا ابن عباس، وكان يُحِبُّهُ وَيُذَنِّبُهُ، فقال: أحبُّ أن تعلم عن مَلَأَ مِنَ النَّاسِ كان هذا؟ فخرج، لا يمرُّ بمَلَأَ مِنَ النَّاسِ إلا وهم يكونون؛ فكأما فقدوا أبكارَ أولادهم؛ فأخبره. قال ابن عباس: فرأيت البَشَرَ

في وجهه. حتى إنَّ القوم قالوا: لوددنا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا، من محبَّتهم له رضي الله عنه.

ولما علم عمر أن الذي قتله عبْدُ مجوسيٍّ قال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدةٍ سجدها قطُّ، وقال: لا تعجلوا على الذي قتلتني. فقيل: إنه قتل نفسه. فاسترجع عمر؛ فقيل له: إنه أبو لؤلؤة؛ فقال: الله أكبر. ثم جاء الطيب، فسقى عمرَ لبنًا، فخرج من جرحه؛ فعرف أنه الموت؛ فقال: الآن لو أن لي الدنيا كلَّها، لافتديتُ به من هول المطلع فجعل النَّاس يُشنونَ عليه، ويذكرون أعماله العظيمة في الإسلام؛ فكان يجيبهم فيقول: إن المغرور من تغرُّونه.

وجاءه شابُّ فقال: أبشِّر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صُحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدم في الإسلام بما قد عملت، ثم وُلِّيتَ فَعَدَلْتَ، ثم شَهَادَةٌ. قال: وددت أن ذلك كفافٌ، لا عليَّ ولا لي. فلما أدبر، إذا إزاره يمسُّ الأرض؛ فقال: رُدُّوا عليَّ الغلام. قال: يابن أخي، ارفع ثوبك؛ فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لرَبِّك. قال ابن مسعود: يرحم الله عمر، لم يمنعه ما كان فيه من قول الحقِّ.

وأرسل ابنه عبدالله إلى عائشة، قال: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين؛ فقل: يقرأ عليك عمر السَّلام ولا تُقلُ أميرَ المؤمنين، فإنِّي لست اليوم للمؤمنين أميراً. وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدْفَنَ مع صاحبيِّه، وإنما قال ذلك لئلاً تفهم عائشة أنه أمرٌ، وهو الإمام؛ فطاعته واجبةٌ، فترك لها الخيار، وطلب منها هذا الطلب على سبيل الرِّجاء، وليس على سبيل الأمر.

فسلَّم عبدالله بن عمر واستأذن على عائشة، فوجدها قاعدهً تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السَّلام، ويستأذن أن يُدْفَنَ مع صاحبيِّه. فقالت: كنتُ أريده لنفسِي، ولأوثرته به اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل: هذا عبدالله بن عمر قد جاء. قال: ارفعوني. فأسنده ابن عباس إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحبُّ يا أمير المؤمنين، أذِنْتُ. قال: الحمد لله، ما كان من شيءٍ أهمَّ إليَّ من ذلك، فإذا أنا قضيتُ فاحملوني؛ ثم سلَّم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذِنْتُ لي فأدخلوني، وإن رَدَّتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

وكان ابن عباس يُثني عليه وهو مسنَّدٌ له، فلما انتهى من ثنائه قال عمر: ألصِقْ خدِّي بالأرض يا عبدالله بن عمر. قال ابن عباس: فوضعتُه من فخذي على ساقي؛ فقال: ألصِقْ خدِّي بالأرض! فوضعتُه حتى وضع لحيته

وحدّه بالأرض؛ فقال: ويلك يا عمرُ إن لم يغفر الله لك. ثم أخذ تَبَنَةً من الأرض؛ فقال: ليتني كنتُ هذه التَّبَنَةَ، ليتني لم أُخْلَقْ، ليت أمِّي لم تلدني، ليتني لم أكن شيئاً، ليتني كنتُ نسيئاً منسياً.

فلما مات رضي الله عنه قال عليُّ: ما على الأرض أحدٌ ألقى الله بصحيفته أحبَّ إليَّ من هذا المسحى بينكم. وصلى عليه صُهَيْبُ الرُّومي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ودُفِنَ بجانب صاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأبي بكر رضي الله عنه.

حَسْبُ الْقَوَائِي وَحَسْبِي حِينَ أَلْقَيْهَا \*\*\*\* أَلِيَّ إِلَى سَاحَةِ الْفَارُوقِ أَهْدَيْهَا

لاهُمَّ هَبْ لِي بَيَاناً أَسْتَعِينُ بِهِ \*\*\*\* عَلَى قِضَاءِ حَقُوقِ نَامِ قَاضِيهَا

قَدْ نَازَعْتَنِي نَفْسِي أَنْ أَوْفِيَهَا \*\*\*\* وَليْسَ فِي طُوقِ مِثْلِي أَنْ يَوْفِيَهَا

فُؤْمُرُ سَرِيِّ الْمَعَانِي أَنْ يُوَاتِيَنِي \*\*\*\* فِيهَا فَإِنِّي ضَعِيفُ الْحَالِ وَاهِيهَا

مَوْلَى الْمَعِيرَةِ لَا جَادَتُكَ غَادِيَةٌ \*\*\*\* مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَا جَادَتِ غَوَادِيهَا

مَرَّرْتِ مِنْهُ أَدِيمًا حَشَوهُ هِمٌّ \*\*\*\* فِي ذِمَّةِ اللَّهِ عَالِيهَا وَمَاضِيهَا

طَعَنْتِ خَاصِرَةَ الْفَارُوقِ مُنْتَقِمًا \*\*\*\* مِنْ الْحَنِيفَةِ فِي أَعْلَى مَجَالِيهَا



فأصبحت دولة الإسلام حائرةً \*\*\*\* تشكو الوجيعَةَ لما مات آسيها

مضى وخلِّقها كالطود راسخةً \*\*\*\* وزان بالعدلِ والتقوى مغانيها

تنبو المعاولُ عنها وهي قائمةٌ \*\*\*\* والهادمون كثيرٌ في نواحيها

حتى إذا ما تولاهما مهدُّمها \*\*\*\* صاح الزوال بها فانددكُ عاليها

وهاً على دولةٍ بالأمس قد ملأتْ \*\*\*\* جوانبَ الشرقِ رغداً في أياديها

كم ظللتها وحاطتها بأجنحةٍ \*\*\*\* عن أعينِ الدهرِ قد كانت تُواربها

من العناية قد ريشتُ قوادمُها \*\*\*\* ومن صميمِ التقى ريشتُ خوافيها

والله ما غالها قِدماً وكاد لها \*\*\*\* واجتتْ دَوْحَتَهَا إلا موابيها

لو أها في صميمِ العُربِ ما بَقِيَتْ \*\*\*\* لما نعاها على الأيام ناعيها

يا ليتهم سمعوا ما قاله عمرٌ \*\*\*\* والروح قد بلغتْ منه تراقيها

لا تكثروا من موابيكم فإنَّ لهم \*\*\*\* مطامعاً بَسَمَاتُ الضعفِ تُخفيها

## إنك مُفطر عندنا غدًا

إنه يوم الخميس السابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ٣٥ من الهجرة فأصبح رضي الله عنه صائمًا، وحاول الصحابة رضي الله عنهم إيصال الماء إليه، لكنهم لا يستطيعون، ويأتي وقت المغرب دون أن يجد رضي الله عنه شيئًا يفطر عليه، لا هو ولا أهل بيته، ويكمل بقية الليل دون أن يفطر، وفي وقت السحر استطاعت زوجته السيدة نائلة أن تحصل على بعض الماء من البيت المجاور خفية، ولما أعطته الماء، وقالت له: أفطر، نظر رضي الله عنه من النافذة، فوجد الفجر قد لاح، فقال: إني نذرت أن أصبح صائمًا. فقالت السيدة نائلة: ومن أين أكلت ولم أرَ أحدًا أتاك بطعام ولا شراب؟ فقال رضي الله عنه: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع عليّ من هذا السقف، ومعه دلو من ماء، فقال: اشرب يا عثمان. فشربت حتى رويت، ثم قال: ازدد. فشربت حتى نُهلت، ثم قال صلى الله عليه وسلم: أما إن القوم سينكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا. فاختار رضي الله عنه لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لشوقه إليه، وليقينه بأنه سوف يلقي الله شهيدًا ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم له من قبل.

إنه ذو النورين وصاحب المحرتين عثمان بن عفان أمير المؤمنين رضي الله عنه.

وفي صباح هذا اليوم؛ الجمعة ١٨ من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ، دخل كثير بن الصلت أحد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول له: يا أمير المؤمنين، اخرج فاجلس في فناء البيت فيرى الناس وجهك، فإنك إن فعلت ارتدعوا. وذلك لهيبته رضي الله عنه، فقد كان عمره رضي الله عنه أكثر من اثنين وثمانين سنة. فقال عثمان رضي الله عنه: يا كثير رأيتُ البارحة، وكأني دخلتُ على نبي الله صلى الله عليه وسلم، وعنده أبو بكر، وعمر فقال: ارجع، فإنك مُفطر عندي غدًا. ثم قال عثمان رضي الله عنه: ولن تغيب الشمسُ هذا اليوم، والله إلا وأنا من أهل الآخرة.

وخرج كثير بن الصلت رضي الله عنه بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأمر عثمان رضي الله عنه بالسراويل أن تُعدَّ له؛ لكي يلبسها، وكان من عادته رضي الله عنه ألا يلبسها في جاهلية ولا إسلام، وقد لبسها رضي الله عنه؛ لأنه خشي إن قُتل أن يتكشف، وهو رضي الله عنه شديد الحياء، فلبس السراويل، ووضع المصحف بين يديه، وأخذ يقرأ في كتاب الله.

ودخل عليه أبناء الصحابة للمرة الأخيرة، وطلبوا منه أن يسمح لهم بالدفاع عنه، فأقسم عثمان رضي الله عنه على كل من له عليه حق أن يكفّ يده، وأن ينطلق إلى منزله، ثم قال لغلماينه: من أعمد سيفه فهو حرّ، فأعتق بذلك غلماينه، وقال رضي الله عنه إنه يريد أن يأخذ موقف ابن آدم الذي قال: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) فكان آخر الناس خروجًا من عند عثمان رضي الله عنه هو الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وصلى عثمان رضي الله عنه صلاة نافلة ختم فيها سورة طه، ثم جلس بعد ذلك يقرأ في المصحف، في هذا الوقت كان أهل الفتنة يفكرون بشكل حاسم، وسريع في قتل عثمان رضي الله عنه، خاصة مع علمهم باقتراب الجيوش الإسلامية المناصرة للخليفة رضي الله عنه من المدينة المنورة. فدخل رجل يُسمى كنانة بن بشر التجيبي، وكان من رءوس الفتنة بشعلة من نار، وحرق باب بيت عثمان رضي الله عنه، ودخل ومعه بعض رجال الفتنة، ثم دخل رجل آخر يسمونه الموت الأسود، قيل إنه عبد الله بن سبأ وقيل غيره، فخنق عثمان بن عفان رضي الله عنه خنقًا شديدًا حتى ظن أنه مات، فتركه

وانصرف، ودخل بعد ذلك محمد بن أبي بكر الصديق، وكان الوحيد من الصحابة الذي شارك في هذه الفتنة في هذا الوقت، فدخل عليه، وكان يظنه قد مات، فوجده حيًّا فقال له: على أي دين أنت يا نعثل؟! ونعثل هذه سببة تُقال للشيخ الأحمق، وللظبي كثير الشعر، فقال عثمان رضي الله عنه وأرضاه: على دين الإسلام، ولستُ بنعثل، ولكني أمير المؤمنين. فقال: غيرت كتاب الله. فقال عثمان رضي الله عنه: كتاب الله بيني وبينكم.

فتقدم إليه وأخذ بلحيته وشده منها وقال: إنا لا نقبل أن نكون يوم القيامة مما يقول (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ). فإلى هذه اللحظة، ومحمد بن أبي بكر الصديق، وبعض أفراد الفتنة يظنون أنهم يفعلون الخير بقتلهم، أو خلعهم لعثمان رضي الله عنه، فهو يحاول القتل أو الخلع للخليفة طاعةً لله، ونجاةً من النار، وهذا بلا شك من تلبيس إبليس عليهم. فقال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي إنك أمسكت لحيهً كان أبوك يكرمها. فلما قال له عثمان رضي الله عنه ذلك وضحت الحقيقة فجاءه أمام محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان عثمان رضي الله عنه أزال بهذه الكلمات غشاوة كانت تحجب الحق والصواب عن قلب محمد بن أبي بكر، وتذكَّر تاريخ عثمان رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع أبيه

الصدّيق رضي الله عنه ومع المسلمين، فاستحيا محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما، وخارت يده من على لحية عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبكى، ثم وقف وتركه وانصرف، فوجد القوم يدخلون على عثمان رضي الله عنه، فأمسك سيفه، وبدأ يدافع عن عثمان رضي الله عنه، ولكنهم غلبوه فلم يستطع أن يمنعهم، ويشهد بذلك السيدة نائلة زوجة عثمان رضي الله عنه.

ثم دخل على عثمان رضي الله عنه كنانة بن بشر الملعون، وحمل السيف، وضربه به، فاتّقه عثمان رضي الله عنه بيده فقطع يده، فقال عثمان رضي الله عنه عندما ضُرب هذه الضربة: بسم الله توكلت على الله. فتقطرت الدماء من يده، فقال: إنها أول يد كتبت المفصل. ثم قال: سبحان الله العظيم. وتقاطر الدم على المصحف، وثبت جميع الروايات أن هذه الدماء سقطت على كلمة (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ).

بعد ذلك حمل عليه كنانة بن بشر وضربه بعمود على رأسه، فخرّ رضي الله عنه على جنبه، وهمّ كنانة الملعون بالسيف ليضربه في صدره، فانطلقت السيدة نائلة تدافع عن زوجها، ووضعت يدها لتحمي زوجها من السيف. ففُطعت بعض أصابعها بجزء من كفها، ووقعت السيدة نائلة رضي الله عنها.

وطعن كنانة عثمان رضي الله عنه في صدره، ثم قام سودان بن حمران بحمل  
السيف، وطعن عثمان رضي الله عنه في بطنه فمال رضي الله عنه إلى الأرض  
فقفز على بطنه، واتكأ على السيف بجسده ليتأكد من اختراق السيف لجسد  
عثمان رضي الله عنه، ومات رضي الله عنه وأرضاه بعد هذه الضربة. ثم قفز  
عليه عمرو بن الحمق، وطعنه في صدره تسع طعنات، وقال: هذه الثلاثة  
الأولى لله، وهذه الست لشيء في نفسي.

استشهد ذو النورين عثمان رضي الله عنه وأرضاه زوج ابنتي الرسول صلى الله  
عليه وسلم، والمبشّر بالجنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في أكثر من  
موضع، وثالث الخلفاء الراشدين، وقد لقي بعد استشهاد رسول الله صلى  
الله عليه وسلم كما وعده بذلك. لقي الله غريباً برغم أنه أمير المؤمنين، غريباً  
غربة المؤمنين؛ فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرباء.

## تقتلك الفئة الباغية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة تشتاق إليهم الجنة: عليّ وسلمان وعمّار)، وقد استأذن عليّ النبي فقال: «من هذا؟»، قال: «عمّار»، قال: «مرحبًا بالطيب المطيب»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن عمّارًا ملئ إيمانًا إلى مشاشه». وقال صلى الله عليه وسلم: «اقتدوا باللذنين من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمّار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد». وذكر خالد بن الوليد أنه كان بينه وبين عمّار كلام، فأغلظ له، فشكاه عمّار إلى النبي، فقال النبي: «من عادى عمّارًا عاداه الله، ومن أبغض عمّارًا أبغضه الله»، فقال خالد: «خرجت فما شيء أحب إليّ من رضا عمار، فلقيته فرضي». كما أقر له عمر بن الخطاب بمكانته، فقد روي أن عمر أدنى خبّاب بن الأرت في مجلسه منه، وقال: «ادن فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمّار». إنه عمّار بن ياسر وكفى بذلك من فضل.

وكان عمّار قد انحاز إلى جانب عليّ بن أبي طالب في حربه مع معاوية بن أبي سفيان بعد مقتل عثمان بن عفّان، فشهد موقعة الجمل، ثم وقعة صفّين. وقُتل عمّار بن ياسر في وقعة صفّين في صفر سنة ٣٧ هـ، وعمره ٩٣ سنة،



وهو يقاتل في صفوف جيش عليّ بن أبي طالب وهو شيخ طاعن في السن في يده حربة ترعد. وكان عمّار تربيًا للنبي متقارين في السن.

وقد تواترت أحاديث عدة عن النبي حول مقتل عمار بأنه: «تقتله الفئة الباغية»، وكان عمار بن ياسر يوم صفّين لا يتوجّه في ناحية ولا واد من أودية صفّين، إلا وأصحاب النبي يتبعونه، كأنه علم لهم، وقال: اليوم ألقى الأحبة، محمدًا وحزبه، والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنا على حق وأهم على الباطل. وقد استرشد الكثيرون بذلك في أن الحق مع عليّ بن أبي طالب في حربه مع معاوية بن أبي سفيان كخزيمة بن ثابت الذي كان قد اعتزل القتال، حتى قُتل عمّار فانضم إلى جيش علي. وقد أوصى عمّار يوم قُتل، فقال: «ادفوني في ثيابي، فإني مُحَاصِم». وقد صلّى علي بن أبي طالب على عمّار، ولم يُغسّله، ودفنه في صفّين. رحم الله عمّارًا؛ فقد استشهد وهو شيخ طاعن في السن، غريباً غربةً المؤمنين، فطوبى للغرياء.

## الشهيدة

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُورُهَا وَيُسَمِّيُهَا الشَّهِيدَةَ وَكَانَتْ قَدْ  
جَمَعَتِ الْقُرْآنَ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ غَزَا بَدْرًا قَالَتْ لَهُ  
اِذْنَنْ لِي أَخْرُجُ مَعَكَ أَدَاوِي جَرْحَاكُمْ وَأَمْرَضُ مَرْضَاكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ يُهْدِي لِي  
شَهَادَةً، قَالَ إِنْ اللَّهُ سَيُهْدِي لَكَ شَهَادَةً. إِنهَا أُمُّ وَرَقَةَ بِنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ  
الْأَنْصَارِيِّ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَهَا أَنْ تَتَوَّمَّ أَهْلَ دَارِهَا فِي الصَّلَاةِ وَكَانَ  
لَهَا مُؤَدِّنٌ وَكَانَتْ تَتَوَّمُّ أَهْلَ دَارِهَا حَتَّى غَمَّتْهَا جَارِيَةٌ لَهَا وَغُلَامٌ وَقَدْ كَانَتْ  
قَالَتْ لَهَا كَلِمَةٌ أَغْضَبَتْهُمَا فَحَقَدَا عَلَيْهَا فَقَتَلَاهَا فِي إِمَارَةِ عُمَرَ فَقِيلَ لَهُ إِنْ أُمَّ  
وَرَقَةَ قَتَلَهَا غُلَامُهَا وَجَارِيَتُهَا وَأَمْرَاهُمَا هَرَبَا. فَأَمَرَ بِطَلْبِهِمَا فَأَدْرَكَهَا فَأُتِيَ بِهُمَا  
فَصَلَبَهُمَا وَكَانَا أَوَّلَ مَصْلُوبَيْنِ بِالْمَدِينَةِ. وَقَالَ عُمَرُ: صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ انْطَلِعُوا بِنَا نَزُورُ الشَّهِيدَةَ.

## ابن الخليفة وربيب الخليفة

ولد في كنف أبيه أبي بكر الصديق عام حجة الوداع وقت الإحرام ١٠ هـ، وأمه أسماء بنت عميس. وقد توفي أبو بكر الصديق بعد زمن ليس بكثير من ولادته فتزوج عليُّ بن أبي طالب أسماء بنت عميس. وترى محمد في بيت عليٍّ كولد من ولده فكان ابنَ خليفة وربيبَ خليفة. إنه محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

تزوج محمد بن أبي بكر بنت كسرى، وكان له ابن واحد هو العالم الفقيه القاسم بن محمد بن أبي بكر الذي خرج من مصر وهو طفل ابن سبع سنين بعد مقتل أبيه محمد وأمه في مصر، وقد أخذه عمه عبدالرحمن بن أبي بكر إلى المدينة المنورة وترى في منزل النبي صلى الله عليه وسلم في كنف عمته السيدة عائشة بنت أبي بكر.

وقد شارك محمد بن أبي بكر مع عليِّ بن أبي طالب في موقعة صفين ضد معاوية التي قُتل فيها ٧٠,٠٠٠ مسلم وموقعة الجمل التي قُتل فيها ١٨,٠٠٠ مسلم ضد طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وأخته عائشة بنت أبي بكر وهو من أرجعها إلى بيتها. وقد ذهب مع عليٍّ إلى العراق، وشهد

معركة الجمل، وشهد معه صفين. ثم ولّاه عليٌّ حكم مصر ضد عمرو بن العاص وكانت المصيبة.

أرسل معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف وكتب إلى محمد بن أبي بكر: تنحّ عني بدمك فإني لا أحبُّ أن يصيبك مني أذى، كما كتب إليه معاوية: إني لا أعلم أحدًا كان أعظم على عثمان بلائًا منك فلا تظنن أني نائم عنك. فبعث محمد الكتابين إلى عليّ وكتب إليه: أما بعد فإن ابن العاص قد نزل أراضي مصر واجتمع إليه أهل البلد وقد رأيتُ من قبلي بعضَ الفشل فإن كان لك في أرض مصر حاجة فأمددني بالرجال والأموال. فكتب إليه عليّ: اصبر لعدوك وإن كانت فتتك أقل الفتتين فإني باعث إليك الناس. وقام عليٌّ رضي الله عنه فحث الناس على الذهاب إلى مصر فتقاعدوا فعاد يحثهم فخرج نحو من ألفين خرج محمد فيهم وأقبل أصحاب عمرو فاقتتلا وتفرق عن محمد أصحابه فخرج يمشي حتى انتهى إلى خربة فاختمى فيها. وخرج قائد جيش عمرو وكان اسمه معاوية في طلب محمد حتى انتهى إلى ناس على قارعة الطريق فسألهم: هل مر بكم أحد تستنكرونه؟ فقال أحدهم: لا والله إلا أني دخلت تلك الخربة فإذا فيها رجلٌ جالس. فقال: هو هو ورب الكعبة فدخلوا عليه واستخرجوه وقد كاد يموت عطشًا وأقبلوا به نحو

الفسطاط فوثب أخوه عبدالرحمن بن أبي بكر - وكان في جند عمرو بن العاص - وقال: أَيْقُتِل أَخِي صَبْرًا؟ يعني عطشاً. ابعث إلى قائدك فأنه فبعث إليه عمرو بن العاص يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر فأبى. فقال محمد: اسقوني من الماء فقال معاوية: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة أبداً إنكم منعم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً. ثم أحرقه بالنار.

فلما بلغ الخبر عائشة جزعت عليه جزعاً شديداً وقتت في دبر كل صلاة تدعو على من قتل أخاها وضمت إليها ابن محمد القاسم بن محمد فكان في كفالتها. وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان يخبره بمقتل محمد. رضي الله عنه وعن أبيه وعن أخته وعن أخيه؛ فقد قُتِلَ غريباً فطوبى للغرباء.

## قائد الشهباء

كان يقول عن نفسه في فخر وخيلاء:

أنا عُبيد الله سمانِي عُمَرُ

خيرُ قريشٍ مَنْ مَضَى وَمَنْ عَبِرُ

حاشا نبيِّ الله والشيخِ الأغرِّ

إنه عبيد الله بن عمر بن الخطاب ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وكان من أنجاد قريش وفرسانهم.

خرج إلى العراق غازياً في زمن أبيه مع أخيه عبدالله، فلما قفلا مرّا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة، فرحب بهما وقال: لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت؟ ثم قال: بلى، ها هنا مال من مال الله، أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين وأسلفكما فتبتاعان به من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح، ففعلا. وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال، فلما قدما على عمر قال: أكلّ الجيش أسلفهم مثلكما؟ فقالا: لا، فقال عمر: أديا المال وربحها.

فأما عبدالله فسكت وأما عبيدالله فقال: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين، لو هلك المال أو نقص لكننا ضمناّه، فقال: أديا المال فقط. فسكت عبدالله وراجعه عبيدالله. فقال رجل من جلساء عمر: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً، فقال عمر: قد جعلته قراضاً فأخذ رأس المال ونصفَ ربحه، وأخذنا نصف الربح الباقي.

وقد كان عبيد الله يتكئ بأبي عيسى، فضربه عمر وقال: أتتكئ بأبي عيسى؟ وهل كان لعيسى من أبٍ؟

كان عُبيدالله بن عُمَر في صِغَرٍ مع مُعاويةَ، وَكَانَ قائِداً على الخيل يومئذ. وطلب معاوية من عبيدالله بن عمر أن يتجهز ليكون في مقدمة الجيش المرسل ليحارب علياً في صِغَرٍ، فاستعد عبيدالله، ونصحه مولى له فقال له: فذاك أبي؛ إن معاوية إنما يقدمك للموت فإن كان لك الظَّفَرُ فهو يلي، وإن قُتلت استراح منك ومن ذِكْرِكَ، فأطعني واعتلّ (أي ادّعي المرض) فأعرض عنه عبيدالله. ورأته زوجته يتجهز، وكان قومها من شيعة عليّ فقالت له: ما لي أراك مشمراً؟ فقال: أمرني أميري أن أسير في الشهباء. قالت: هو والله مثلُ التابوت لم يحمّله أحد قط إلا قُتِل، أنت تُقتل وهو الذي يريد معاوية. قال: اسكتي والله لأكثرن القتلَ في قومك اليوم. فقالت: خَدَعك معاوية وغرَّكَ مِن

نفسك وثقل عليه مكائك، قد أبرم هذا الأمر هو وعمرو بن العاص قبل اليوم فيك، لو كنت مع عليّ أو جلست في بيتك كان خيراً لك، قد فعل ذلك أخوك عبدالله وهو خير منك. قال اسكتي وهو يتبسم ضاحكاً: لترين الأسارى من قومك حول خباتك هذا. قالت: والله لكأني راكبة دابتي إلى قومي أطلب جسدك لأواريه، إنك مخدوع، فقال أقصري من العذل فليس لك عندنا طاعة.

وذهب عبدالله إلى معاوية فجعله قائد كتيبة الشهداء كمقدمة لجيشه وهم اثنا عشر ألفاً وضم إليه ثمانية آلاف من أهل الشام يقودهم ذو الكلاع الحميري، وزحف بهم عبدالله نحو معسكر عليّ فتصدى لهم شيعة عليّ من قبائل ربيعة، واقتتلوا أشد القتال، وانحزم جيش معاوية وقُتل عبدالله وقُتل ذو الكلاع. وكان الذي قتل عبدالله هو زياد بن خصفة التيمي.

وأراد معاوية أن يستغل قتل عبدالله لمصلحته كما فعل من قبل مع عثمان حين تركه يقتله الثوار ثم استخدم قميصه ليؤلب الناس على عليّ. أراد معاوية الحصول على جثة عبدالله ليثير به الناس، فقال معاوية لامرأة عبدالله: لو أتيت قومك فكلمتهم في جسد عبدالله ابن عمر. فركبت إليهم ومعها من يجبرها ويؤمّنها على نفسها ويحميها، فأتتهم فعزّفتهم بنفسها ونسبها فقالوا:



قد عرفناك مرحباً بك، فما حاجتُك؟ قالت: هذا الجسد الذي قتلتُموه فأذِنوا لي في حملة. فوثب شبان من بكر بن وائل فوضعوه على بغل وشدّوه، وأقبلت امرأته تحمله الى عسكر معاوية فتلقاها معاوية بسرير فحملة عليه، وحضر له وصلّى عليه ودفنه، ثم جعل يبكي ويقول: قُتِل ابنُ الفاروق في طاعة خليفتم حياً وميتاً فترحموا عليه وإن كان الله قد رحمه ووقفه للخير. رضي الله عن عميدالله وعن أبيه، وعن أخته وعن أخيه؛ فقد قُتِل غريباً فطوبى للغرباء.

## شئت يمينك يا بن ملجم

كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي آخِرِ خِلاَفَتِهِ، قَدِ انْتَفَضَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ، وَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ، وَخَالَفَهُ حَيْثُ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَعَيْرِهِمْ، وَنَكَلُوا عَنِ الْقِيَامِ مَعَهُ، وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُ أَهْلِ الشَّامِ وَصَالُوا وَجَالُوا يَمِينًا وَشِمَالًا زَاعِمِينَ أَنَّ الْأَمْرَ لِمُعَاوِيَةَ؛ بِمُقْتَضَى حُكْمِ الْحُكَمَاءِ فِي خَلْعِهِمَا عَلِيًّا، وَتَوَلِيَةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ مُعَاوِيَةَ عِنْدَ خُلُوعِ الْإِمْرَةِ عَنْ أَحَدٍ، وَكُلَّمَا ازدَادَ أَهْلُ الشَّامِ قُوَّةً، ضَعُفَ جَأَشُ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَوَهْنُوا، هَذَا وَأَمِيرُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَهُوَ أَعْبَدُهُمْ وَأَزْهَدُهُمْ، وَأَعْلَمُهُمْ وَأَخْشَاهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ خَدَلُوهُ وَتَخَلَّوْا عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ يُعْطِيهِمُ الْعَطَاءَ الْكَثِيرَ وَالْمَالَ الْجَزِيلَ.

وقد اجتمع ثلاثة من الخوارج ؛ وهم عبدالرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري، والبرك بن عبدالله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتدأكروا قتل علي إخوانهم من أهل النهروان، فترحموا عليهم وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟! كانوا من خير الناس، وأكثرهم صلاة، وكانوا دعاة الناس إلى ربهم، لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فقتلناهم، فأرحنا منهم البلاد، وأخذنا منهم نأر إخواننا.

فَقَالَ ابْنُ مُلْجَمٍ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ الْبُرْكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ بَكْرٍ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ.

فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاتَفُوا أَلَا يَنْكِصَ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَنْ صَاحِبِهِ حَتَّى يَفْتُلَهُ أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ، فَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ فَسَمَوْهَا، وَاتَّعَدُوا لِسَبْعِ عَشْرَةَ مِنْ رَمَضَانَ، أَنْ يُبَيِّتَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَاحِبَهُ فِي بَلَدِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ.

فَأَمَّا ابْنُ مُلْجَمٍ فَسَارَ إِلَى الْكُوفَةِ فَدَخَلَهَا، وَكَتَمَ أَمْرَهُ حَتَّى عَنِ أَصْحَابِهِ مِنْ الْحَوَارِجِ الَّذِينَ هُمْ بِهَا، ثُمَّ ضَمَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ تَيْمِ الرِّبَابِ يُقَالُ لَهُ وَرْدَانٌ؛ لِيَكُونَ مَعَهُ رِدْءًا، وَاسْتَمَالَ رَجُلًا آخَرَ يُقَالُ لَهُ شَيْبُ بْنُ بَجْرَةَ الْأَشْجَعِيُّ الْحُرُورِيُّ.

فَجَاءَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ وَهُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَى سِيُوفِهِمْ، فَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يُخْرَجُ مِنْهَا عَلِيٌّ، فَلَمَّا خَرَجَ جَعَلَ يُنْهَضُ النَّاسَ مِنَ النَّوْمِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، فَتَارَ إِلَيْهِ شَيْبُ بْنُ السَّيْفِ، فَضْرَبَهُ فَوْقَ فِي الطَّاقِ، فَضْرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ بِالسَّيْفِ عَلَى قَرْزِهِ، فَسَالَ دَمُهُ عَلَى حَجِيَّتِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَمَّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَمٍ قَالَ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، لَيْسَ لَكَ يَا عَلِيُّ وَلَا لِأَصْحَابِكَ، وَجَعَلَ يَنْتَلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) وَنَادَى عَلِيُّ: عَلَيْكُمْ بِهِ.

وَهَرَبَ وَرَدَانٌ، فَأَذْرَكَهُ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتٍ فَقَتَلَهُ، وَذَهَبَ شَيْبٌ فَنَجَا بِنَفْسِهِ وَقَاتَ النَّاسَ، وَمَسِكَ ابْنُ مُلْجَمٍ، وَقَدَّمَ عَلِيُّ جَعْدَةَ بِنْتُ هُبَيْرَةَ بِنْتُ أَبِي وَهْبٍ فَصَلَّى بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَحَمَلَ عَلِيُّ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ ابْنُ مُلْجَمٍ، فَأَوْقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ مَكْتُوفٌ، فَبَحَهُ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّ عَدُوِّ اللَّهِ، أَلَمْ أَحْسِنَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَيَّ هَذَا؟ قَالَ: شَحَدْتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَفْتُلَ بِهِ شَرَّ خَلْقِهِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ: لَا أُرَاكَ إِلَّا مَفْتُولًا بِهِ، وَلَا أُرَاكَ إِلَّا مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ مِتُّ فَاقْتُلُوهُ، وَإِنْ عِشْتُ فَأَنَا أَعْلَمُ كَيْفَ أَصْنَعُ بِهِ.

وَلَمَّا اخْتَضَرَ عَلِيُّ جَعَلَ يُكْتَرُ مِنْ قَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا يَنْطِقُ بِغَيْرِهَا وَكَانَ آخِرَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) وَقَدْ أَوْصَى وَلَدَيْهِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَغَفْرِ الذَّنْبِ، وَكَظْمِ الْعَيْظِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَالْحِلْمِ عَنِ الْجَاهِلِ، وَالتَّقْفُهِ فِي الدِّينِ، وَالتَّسْتَبُّتِ فِي الْأَمْرِ، وَالتَّعَاهُدِ لِلْقُرْآنِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ

عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاجْتِنَابِ الْفُؤَادِ حِشْرِ، وَوَصَائِهِمَا بِأَخِيهِمَا مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَوَصَائِهِ  
بِمَا وَصَّاهُمَا بِهِ، وَأَنْ يُعْظَمَهُمَا وَلَا يَفْطَعَ أَمْرًا دُونَهُمَا، وَكَتَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي  
كِتَابِ وَصِيَّتِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. أخو الرسول، زوج البتول، أبو  
السبطين الحسن والحسين.

## عبدالله المقتول لا عبدالله القاتل

أول المواليد في الإسلام. أبوه خَبَّابُ بن الأَرْت. ولما ولد سماه النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم عبدالله؛ وقال لخبَّاب: أَنْتَ أَبُو عَبْدِالله. وكناه أبوه أبا عبدالله. وكان أول مولودين وُلدا في الإسلام عبدالله بن الزبير وعبدالله بن خَبَّاب. وكان من سادات المسلمين رضي الله عنه. إنه عَبْدُاللهِ بنُ خَبَّابِ بنِ الأَرْتِ رضي الله عنهما.

وكانت غربته وفتنته التي رزقه الله الشهادة فيها أن الصَّرم وكان من رعوس الخوارج الذين خرجوا على عليّ، لقي عبدالله بن خَبَّاب بالدار، وهو متوجّه إلى عليّ بالكوفة، ومعه امرأته وولده، فقال: هذا رجلٌ من أصحاب محمد نسأله عن حالنا وأمرنا ومخرجنا؛ فانصرفوا إليه فسألوه، فقال: أمّا فيكم بأعيانكم فلا، ولكن سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم يقول: يَكُونُ مِنْ بَعْدِي قَوْمٌ يَفْرُقُونَ الْقُرْآنَ لَأَ يُجَاوِزَ تَرَاقِيهِمْ. فقتلوه وقتلوا امرأته، وهي حاملٌ مُتَمِّمٌ. وعن رجلٍ من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقه قال: دخلوا قريةً فخرج عليهم عبدالله بن خَبَّاب دَعِرًا، قالوا: لن تُرَاعَ. قال: والله لقد رُعتموني، قالوا: لن تُرَاعَ، قال: والله لقد رعثموني، قالوا: أنت عبدالله بن خَبَّاب صاحب رسول الله؟ قال: نعم، فسألوه عن أبي بكر وعمر وعثمان

وعليّ، فأثنى عليهم خيراً فقالوا: فهل سمعتَ من أبيك حديثاً يحدثه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُحَدِّثُنَاهُ؟ قال: نعم، سمعتُ أباي يحدث عن رسول الله دِكْرَ فِتْنَةِ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِيِ وَالْمَاشِيِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِيِ. قال: فَإِنْ أَدْرَكَتَ ذَاكَ فَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولَ وَلَا تَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْقَاتِلَ. قالوا: أسمعْتَه هَذَا مِنْ أَبِيكَ يَحْدِثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: نعم. قال فَقَدَّمُوهُ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَسَالَ دَمَهُ كَأَنَّهُ شِرَاكٌ نَعْلٍ مَا امْدَقَّرَ يَعْنِي لَمْ يَخْتَلِطْ بِالْمَاءِ. وَبَقَرُوا أُمَّ وَوَلَدَهُ وَكَانَتْ حَامِلًا مُتِمًّا. فِيهِذَا اسْتَحَلَّ عَلِيٌّ قِتَالَهُمْ وَذَلِكَ سَنَةَ سَبْعَةِ وَثَلَاثِينَ. رَحِمَ اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ وَرَحِمَ أَبَاهُ فَقَدْ اسْتَشْهَدَ غَرِيبًا غَرِيبَةَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ.

## سبط الرسول ابن البتول

سبط رسول الله، وخامس الخلفاء الراشدين، أطلق عليه النبي صلى الله عليه وسلم لقب سيد شباب أهل الجنة فقال: «الحَسَنَ والحُسَيْنَ سيِّدا شبابِ أَهْلِ الجنَّةِ»، وكنيته أبو محمد، أبوه علي بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ورابع الخلفاء الراشدين، وأمه فاطمة البتول بنت الرسول، وكان أشبه الناس بالنبي. إنه الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي رضي الله عنهما.

ولد في النصف من شهر رمضان عام ٣ هـ، وكان النبي يحبه كثيراً ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»، وكان يأخذه معه إلى المسجد النبوي في أوقات الصلاة، فيصلي بالناس وكان الحسن يركب على ظهره وهو ساجد، ويحمله على كتفيه، ويُقبِّله ويداعبه ويضعه في حجره ويُرقيه، كما كان يعلمه الحلال والحرام، توفي جده سنة ١١ هـ وكذلك توفيت أمه فاطمة في نفس السنة، وشارك الحسن في الجهاد في عهد عثمان، فشارك في فتح إفريقية تحت إمرة عبدالله بن سعد بن أبي السرح، وشارك في فتح طبرستان وجرجان في جيش سعيد بن العاص، كما شارك في معركة الجمل ومعركة صفين.



بويج بالخلافة في أواخر سنة ٤٠ هـ بعد وفاة علي بن أبي طالب في الكوفة. واستمر بعد بيعته خليفة للمسلمين نحو ستة أشهر، ثم تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان بعد أن صالحه على عدد من الأمور. وانتقل الحسن بعد ذلك من الكوفة إلى المدينة المنورة وعاش فيها بقية حياته.

مات الحسن مسموماً، وبعدهما تأكد من السم قال: لقد لفظتُ قطعةً من كبدي وحركتها بعود، وإني قد سُقيت السم مراراً ولكن لم أُسق مثل هذه المرة، فأتاه أخوه الحسين بن علي فسأله: من سفاك يا أخي؟ قال: ما سؤالك عن هذا؟ أتريد أن تقاتلهم؟ بل أكَلهم إلى الله عز وجل. وأبي أن يخبره.

والمشهور أن الحسن مات مسموماً، لكن لا يُعلم إلى اليوم من الذي وضع له السم. فلَمَّا احتُضِرَ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ: أَخْرِجُونِي إِلَى الصَّحْنِ حَتَّى أَنْظُرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَأَخْرَجُوا فِرَاشَهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَنَظَرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْتَسِبُ نَفْسِي عِنْدَكَ، فَإِنَّهَا أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيَّ. فَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ أَحْتَسَبَ نَفْسَهُ عِنْدَهُ. وَلَمَّا اشْتَدَّ بِالْحُسَيْنِ الْوَجَعُ جَزَعًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَا هَذَا الْجَزَعُ؟ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ تُفَارِقَ رُوحَكَ حَسَدَكَ فَتَقْدِمَ عَلَى أَبِيكَ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ، وَعَلَى جَدِّكَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَحَدِيجَةَ، وَعَلَى أَعْمَامِكَ حَمْرَةَ وَجَعْفَرَ، وَعَلَى أَخْوَالِكَ الْقَاسِمِ وَالطَّيِّبِ وَمُطَهَّرِ  
وَأِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى خَالَاتِكَ رُقَيْيَةَ وَأُمَّ كُنُوثٍ وَزَيْنَبَ. فَسُرِّيَ عَنْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

## ريحانة رسول الله من الدنيا

سَبَطَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وريحانته ومحبوبه، كان مولده سنة أربع للهجرة، ومات رضي الله عنه شهيداً، في يوم عاشوراء سنة إحدى وستين هجرية بكريلاء من أرض العراق. وفيه قال الرسول: حسين مني وأنا من حسين، اللهم أَحِبَّ من أَحَبَّ حسيناً، حسين سَبَطَ من الأسباب. وقال: الحسن والحسين سيدا شبابِ أهل الجنة. إنه أبو عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وكان موقف الحسين من بيعة يزيد بن معاوية هو موقف المعارض، وشاركه في المعارضة عبدالله بن الزبير، والسبب في ذلك حرصهما على مبدأ الشورى، وأن يتولى الأمة أصلحها، ورأى الحسين في محاولة معاوية توريث الحكم من بعده لابنه يزيد مخالفةً واضحة لمنهج الإسلام في الحكم، ومع ذلك فإنه لم يهتم بالخروج على معاوية؛ نظراً لمبايعته له بالخلافة، فظل على عهده والتزامه. ثم إن الحسين استمر على صلواته بأهل الكوفة، وقد كان يعدهم بالمعارضة ولكن بعد وفاة معاوية، وبمجرد وفاته سارع زعماء الكوفة بالكتابة إلى الحسين، وطلبوا منه المسير إليهم على وجه السرعة. وفي هذه الفترة كان رضي الله عنه يرسل أهل العراق، وتقدم إليه الوفود، حتى رأى أنه لا بد من

مقاومة الظلم وإزالة المنكر وأن هذا أمر واجب عليه، وكانت شيعته بالعراق على اتصال به وتمت بينهم مراسلات.

وبعد توافد الرسائل من زعماء الكوفة على الحسين رضي الله عنه والتي تطلب منه المسارعة في القدوم إليهم، ولما كان العدد مشجعاً أراد أن يطّلع على حقيقة الأمر، فبعث ابن عمه مُسلم بن عَقِيل بن أَبِي طالب؛ ليستجلي له حقيقة الخبر، ثم يكتب إليه بواقع الحال، فإن كان ما يقولون حقاً قدم عليهم. ولما بلغ أهل الكوفة قدوم مسلم بن عقيل قدموا إليه فبايعه اثنا عشر ألفاً، وتمت تلك المبايعة بصورة سرية مع حرص شديد، ولما تأكد لمسلم بن عقيل رغبة أهل الكوفة في الحسين و قدومه إليهم كتب إلى الحسين:

أما بعد، فإن الرائد لا يكذب أهله، إن جميع أهل الكوفة معك، فأقبل حين تنظر في كتابي. وهنا تأكد للحسين صدق نوايا أهل الكوفة، وأنه ليس عليهم إمام كما ذكروا من قبل، فلا بد في هذه الحالة أن يفي لهم بما وعدهم به، فتجهز الحسين، وعزم على المضي إلى الكوفة بأهله وخاصته.

لما بلغ محمد بن الحنفية عزم أخيه الحسين على الخروج إلى الكوفة، خاف عليه ونصحه بعدم الخروج إلى الكوفة، وكذلك فعل ابن عمه عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وأبو سعيد الخدري وجابر بن عبدالله وعبدالله بن

جعفر وأبو واقد الليثي وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث وعبدالله بن مطيع وسعيد بن المسيب وعمرو بن سعيد بن العاص وكلهم خاف عليه من بطش يزيد ومن خيانة أهل الكوفة ولكنه أبي ومضى لحكم الله فيه.

ولما وصل الحسين كربلاء لقي عمر بن سعد وشمير بن ذي الجوشن والحسين بن تميم في جيش مكون من أربعة آلاف مقاتل، في المنطقة التي يُطلق عليها الطف، وأخبر الحسين أصحابه أنهم في جِلٍّ من طاعته، لكن أصحابه أصروا على القتال معه حتى النهاية. وفي صباح يوم الجمعة العاشر من محرم ٦١ هـ، عزم الحسين وأصحابه على القتال، وكان معه ٣٢ فارسًا و ٤٠ راجلاً، فجعل زهير بن القين على الميمنة، وحبيب بن مظاهر الأسدي على الميسرة، وأعطى الراية للعباس بن علي. وجعل البيوت وراء ظهورهم وأتى بحطب وقصب وأشعل فيه النار مخافة أن يأتوا وراء ظهورهم.

وبدأ جيش عمر بن سعد بالقتال، وأصحاب الحسين يدافعون عنه، ولم يزل يتقدم رجل رجل من أصحاب الحسين فيُقتل؛ حتى قُتلوا جميعًا، وقُتِلَ من أهله بيته ابنه علياً الأكبر، وإخوته: العباس وعبدالله وجعفر وعثمان، وأبناء أخيه الحسن: القاسم وأبو بكر وعبدالله، وبنو عقيل: جعفر بن عقيل

وعبدالرحمن بن عقييل وعبدالله ومحمد ابنا مسلم بن عقييل، وأبناء عبدالله بن جعفر الطيّار: عون ومحمد.

فلَمَّا قُتِلُوا لم يجرؤ أحد على قتل الحسين خشية أن يبوء بقتله، فقام شمر بن ذي الجوشن وصاح في الجنود وأمرهم بقتل الحسين، فضربه زرعة بن شريك التميمي، وطعنه سنان بن أنس، واحتز رأسه، وحمل الرأس الشريف إلى ابن زياد خولي بن يزيد الأصبحي. وأرسل عمر بن سعد برأس الحسين ونسائه ومن كان معه من الصبيان إلى ابن زياد.

رحم الله الحسين الذي استشهد غربياً عن وطنه واجتمعت عليه أكثر من غربة، غربة لإيمان والوطن وغربة تخلي الأعداء وغربة الخصومة السياسية من يزيد وهكذا فقد بدأ الإسلام غربياً وعاد غربياً كما بدأ ولم تمر على وفاة نبي الإسلام سوى سنوات معدودات فطوبى للغرباء.

## حاملُ سِرِّ عليّ

ولد باليمن سنة سبع قبل الهجرة، أسلم صغيراً وأدرك النبي، ولم يره فهو تابعي، ارتحل مع قبيلته إلى الكوفة في بدء انتشار الإسلام، وكان من سادات قومه، وله مكانة ومنزلة عظيمة عندهم، ابتداءً ظهوره على الساحة الإسلامية في عهد عثمان، إذ كان أحد أعضاء الوفد القادم من الكوفة للاحتجاج على تصرفات والي الكوفة عند عثمان سعيد بن العاص يستنكرون عليه قوله: «إن السواد بستان قريش». وكان من الذين نفاهم والي الكوفة سعيد بن العاص إلى الشام، ومن الشام أعيدهوا إلى الكوفة ومنها نفوا إلى حمص، ثم عادوا إلى الكوفة، بعد خروج واليها منها. إنه كُمَيْلُ بن زياد النُّخعي الكوفي رضي الله عنه.

وقد بايع كُمَيْلُ عليّ بن أبي طالب بعد مقتل عثمان، وأخلص في البيعة، وكان من ثقاته، فلازمه وأخذ العلم منه، واختصه عليّ بدعاء من أعظم الأدعية وأسمائها، وهو الدعاء المعروف اليوم بـ (دعاء كميل)، ونصّبهُ عليّ عاملاً على بيت المال مدة من الزمن، وعينه والياً على (هيت)، فتصدّى لمحاولات معاوية التي كانت تهدف إلى السيطرة على المناطق التي كانت تحت سلطة عليّ. ثم بايع الحسن بعد مقتل علي. وقد أثنى عليه العلماء فقالوا كان

شريفاً مطاعاً ثقة عابداً، مثبتاً في دينه لا تفتن شفتاه عن تلاوة القرآن الكريم  
وذكر الله العظيم.

وقد شهد كميل مع الإمام عليّ معركة صفّين ولما أراد الحجاج بن يوسف  
الثقفي قتله بعد أن طلبه كثيراً فلم يقدر لأنه اختفى عنه، فغضب الحجاج  
وأمر بتحريم العطاء عن قومه وعشيرته إذ كان كميل نافذاً في قومه، فقال  
كميل: لا ينبغي أن أكون سبياً في حرمان قومي. فأتى الحجاج وهو ابن ٨٩  
سنة قائلاً له: لا تصرف عليّ أنيابك ولا تبرق ولا ترعد، فوالله ما بقي من  
عمري إلاّ مثل هذا الغبار فاقض ما أنت قاض؛ فإن الموعد الله، وبعد القتل  
الحساب، ولقد أخبرني أمير المؤمنين أنك قاتلي. فأمر الحجاج بقتله وقطع  
رأسه رحمه الله. وقبره في النجف.



## أول مولود بعد الهجرة

كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة، ولد سنة اثنتين وكانت له صُحبة ورواية أحاديث. وعداده في صغار الصحابة، وإن كان كبيراً في العلم والشرف والجهاد والعبادة. وكان فارس قريش في زمانه، وله مواقف مشهودة فقد شهد اليرموك وهو مراهق، وفتح المغرب، وغزو القسطنطينية، ويوم الجمل مع خالته عائشة. إنه عبدالله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

وقد كان أحد ولاية المدينة المنورة في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. لكنه لم يبايع يزيد بن معاوية وأعلن نفسه خليفةً بعد مقتل الإمام الحسين بن علي وذهب ابن الزبير إلى مكة وتحصن بها بعد وقعة الحرة.

وبويع بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين، وحكم الحجاز، واليمن، ومصر، والعراق، وخراسان، وبعض الشام. ولم يستوثق له الأمر، فإن مروان غلب على الشام ثم مصر، وحارب ابن الزبير حتى كلف الحجاج بن يوسف فذهب بجيشه إلى الطائف ثم مكة فحاصر ابن الزبير فيها.

وفي أيام الحصار دخل ابن الزبير على أمه أسماء فشكا إليها خذلان الناس له، وخرجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بُني أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين وإلى كم خلودكم في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ثم قال: والله ما ركنتُ إلى الدنيا ولا أحببتُ الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُستحل حرمتُه، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرةً مع بصيرتي. فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك، وسلّمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكراً، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجز في حكم الله، ولم يعُدْ في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته، ولم يكن عندي أثر من رضى ربي عز وجل. اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي، اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري، ولكني أقول ذلك تعزيةً لأمي لتسلو عني.

فقلت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً، إن تقدمتني أو تقدمتك، فأخرج يا بُنيَّ حتى أنظر ما يصير إليه أمرك. فقال: جزاك الله يا أمه خيراً فلا تدعي الدعاء قبل وبعد. فقالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبرّه بأبيه وبني، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيتُ بما قضيتَ فقابلني في عبدالله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين. ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها وكانت قد عميتُ في آخر عمرها فوجدته لابساً درعاً من حديد. فقالت: يا بُنيَّ ما هذا لباس من يريد ما يريد من الشهادة! فقال: يا أماه إنما لبسته لأطيب خاطرِك وأسكن قلبك به. فقالت: لا يا بُنيَّ ولكن انزعه فنزعه، وجعل يلبس بقية ثيابه ويتشدد وهي تقول: شمر ثيابك، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلا تبدو عورته إذا قتل. وجعلتُ تذكره بأبيه الزبير، وجده أبي بكر الصديق، وجدته صفية بنت عبدالمطلب، وخالته عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترجّيه القدوم عليهما إذا هو قُتل شهيداً.

ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بما رضي الله عنهما وعن أبيه وأبيها.

وكان يخرج من باب المسجد الحرام وهناك خمسمائة فارس وراجل، فيحمل عليهم فيتفرون عنه يميناً وشمالاً، ولا يثبت له أحد فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، بات ابن الزبير يصلي طول ليلته، ثم جلس فاحتبى بحميلة سيفه فأغفى ثم انتبه مع الفجر على عادته، ثم قال: أذن يا سعد، فأذن عند المقام، وتوضأ ابن الزبير ثم صلى ركعتي الفجر، ثم أقيمت الصلاة فصلى الفجر، ثم قرأ سورة القلم حرفاً حرفاً. ثم سلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم. فكشفوا وجوههم وعليهم المغافر فحرّضهم وحثّهم على القتال والصبر، ثم نحض ثم حمل وحملوا حتى كشفوهم إلى الحجون، فجاءته آجرة فأصابته في وجهه فارتعش لها، ووجد سخونة الدم يسيل على وجهه ثم سقط إلى الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه رضي الله عنه، وجاءوا إلى الحجاج فأخبروه فكتب إلى عبد الملك بما وقع، وبعث برأس ابن الزبير إلى عبد الملك، ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصلبت منكسةً، فمازالت مصلوبةً، حتى مر به عبدالله بن عمر فقال: رحمة الله عليك يا أبا حبيب، أما والله لقد كنت صواماً قواماً. ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج فأنزل عن الجذع ودُفن هناك. رحم الله عبدالله بن الزبير فقد عاش في غربة بعدما عاد الإسلام غريباً كما بدأ فطوي للغرباء.

## صاحب النقب

في إحدى معارك المسلمين حاصروا حصناً منيعاً من حصون الروم، فقام فيهم مسلمة بن عبد الملك بن مروان أحد قادة الفتح الإسلامي منادياً: من منكم سيدخل النقب (وهو عبارة عن سرداب فيه أفاعٍ وعقارب!) فإن كُتبت له الشهادة فاز بالجنة وإن كُتبت له النجاة ذهب لباب الحصن فيفتحه ويكبر فيدخل جند الإسلام منتصرين بإذن الله.

فخرج رجل ملثم وقال أنا من سيدخل النقب! تقدم الرجل من الحصن ودخل النقب وسمع المسلمون صوت التكبير ورأوا الباب يُفتح فدخلوا وفتحوا الحصن. وبعد الفتح نادى مسلمة بن عبد الملك صاحب النقب ليخرج له! إلا أنه لم يخرج أحد! فوقف في اليوم التالي ونادى! ولكنَّ أحدًا لم يخرج!

فوقف في اليوم التالي وأقسم على صاحب النقب بأن يأتيه في أي وقت يشاء من ليل أو نهار. وبينما القائد جالساً في خيمته إذ دخل عليه رجل ملثم! فقال مسلمة: هل أنت صاحب النقب؟

فرد الرجل: أنا رسول منه وهو يشترط شرطين حتى تراه.

فقال مسلمة: وما هما؟

فقال الرجل: ألا تسألوه عن اسمه فتحمده وولاً تعطيه شيئاً فتكافئه.

فقال مسلمة: له ما طلب.

فأماط الرجل اللثام وقال أنا صاحب النقب.

فكان القائد مسلمة يدعو بعدها: رب احشرنى مع صاحب النقب.

إنهم أناس يسيرون على الأرض ارتقت قلوبهم حتى ارتبطت بخالقها وارتفعت  
جباههم حتى لامست السحب فصاروا لا يرون أحداً من البشر.

هدفهم واضح... رضا الله و فقط لا غير. الناس أو البشر آخر همهم! مادام  
عملهم لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله. لا يضرهم إن أثنى الناس على  
عملهم أم لا.

تحية لكل رجل وشيخ وطفل وشاب حمل هم الدعوة إلى الإسلام وحارب من  
أجلها، واكتفى فقط بأن يُذكر في السماء، تحية إليكم جميعاً، فأنتم الغرباء في  
الأرض، المعروفون في السماء، فطوبى للغرباء.

## يموت بفلاة من الأرض وحده

لما حضرته الوفاة بكت زوجته، فقال: ما يبكيك؟ قالت: وما لي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض، وليس عندي ثوب يسعك كفنًا، قال: فلا تبكي وأبشري؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم: ليموتنَّ رجل منكم بفلاة من الأرض، يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية جماعة، وأنا الذي أموت بفلاة، والله ما كذَّبت ولا كدَّبت، فأبصري الطريق، قالت: كيف وقد ذهب الحاجُّ وانقطعت الطرق؟ قال: اذهبي فتبصري. إنه أبو ذر الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قالت: فكنت أجيء إلى كتيب فأتبصر، ثم أرجع إليه، فأمرضه، فبينما أنا كذلك إذا أنا برجال على رحالهم كأنهم الرِّحْمُ، فأقبلوا حتى وقفوا عليّ، وقالوا: ما لك يا أمة الله؟ قلت لهم: امرؤ من المسلمين يموت، تكفونونه؟

قالوا: من هو؟ فقلت: أبو ذر، قالوا: صاحب رسول الله؟ قلت: نعم.

قالت: ففدوه بأبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه، فدخلوا عليه، فرحب بهم، وقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم: يموتن

رجل منكم بفلاة من الأرض، يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك  
 نفر أحد إلا مات في قرية وجماعة، وأنا الذي أموت بفلاة، أنتم تسمعون إنه  
 لو كان عندي ثوب يسعني كفنًا لي أو لامرأتي، لم أكفن إلا في ثوب لي أو  
 لها، أنتم تسمعون أي أشهدكم ألا يكفني رجل منكم كان أميرًا أو عريفًا أو  
 بريدًا أو نقيبًا، فليس أحد من القوم إلا قارف بعض ذلك إلا فتى من  
 الأنصار، فقال: يا عم، أنا أكفئك، لم أصب مما ذكرت شيئًا، أكفئك في  
 ردائي هذا وفي ثوبين في جراي من غزل أمي حاكتها لي، فكفنه الأنصاري في  
 نفر الذين شهده، منهم حجر بن الأدبر، ومالك بن الأشتر في نفر كلهم  
 يماني. رضي الله عن أبي ذر الذي مات وحده غريباً غربة الإيمان وغربة  
 المكان؛ فقد بدأ الإسلام غريباً فطوبى للغرباء.



## صاحب السيف الخشب

أسلم قديماً، وشهد المشاهد كلها إلا غزوة تبوك، وشارك في الفتح الإسلامي لمصر، وكان المبعوث الخاص لعمر بن الخطاب إلى ولايته. إنه الصحابي الجليل محمد بن مسلمة الأوسي رضي الله عنه. اعتزل محمد بن مسلمة الفتنة، وسكن الريزة إلى أن قُتل في خلافة معاوية بن أبي سفيان. ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين محمد بن مسلمة وأبي عبيدة بن الجراح. شهد مع النبي غزواته كلها ما عدا غزوة تبوك حيث استخلف النبي محمد بن مسلمة على المدينة المنورة لما أراد الخروج لها، وكان ممن ثبّت مع النبي في غزوة أحد، ولما خرج النبي لعمرة القضاء، قدّم حين بلغ ذا الحليفة الخيل أمامه وهي ١٠٠ فرس، وجعل محمد بن مسلمة قائدهم. كما استعمله النبي على سريتين إلى القرطاء وذوي القصة. كذلك شارك ابن مسلمة في قتل كعب بن الأشرف زعيم اليهود الخونة.

وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، شارك محمد بن مسلمة في الفتح الإسلامي لمصر، وكان مع الزبير بن العوام في حصار حصن بابلين. وكان محمد بن مسلمة محل ثقة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي استعمله على زكاة جهينة، وكان ابن مسلمة على مقدمة جيش عمر حين قدم إلى الجابية.

كما كان مبعوث عمر الخصاص إلى عمّاله للتقصي في الشكاوي التي كانت تأتيه من العمّال، فهو الذي أحرق على سعد بن أبي وقاص باب قصره في العراق، وهو الذي قاسم عمرو بن العاص ماله في مصر.

فلما قُتل عثمان، اعتزل محمد بن مسلمة الفتنة، واتخذ سيقاً من خشب، وانتقل إلى الريدة، فأقام بها بوصية من النبي، حيث روى أبو بردة بن أبي موسى الأشعري أنه مر بالريدة، فمر بخيمة محمد بن مسلمة، فقال له: لو خرجت إلى الناس، فأمرت ونهيت؟ فقال: قال لي النبي يا محمد، ستكون فرقة وفتنة واختلاف، فاكسر سيفك، واقطع وترك، واجلس في بيتك، ففعلت ما أمرني. كما قال حذيفة بن اليمان عن محمد بن مسلمة: سمعت رسول الله يقول: لا تضربه الفتنة.

وكانت بداية غربة محمد بن مسلمة وفتنته أنه لما عَزَا مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ الْحَنْفِيَّ الْمَدِينَةَ مَرَّ عَلَى وَادٍ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ لِأَحَدِ جُنُودِهِ ادْهَبْ فَأْتِنِي بِهِ أَبَايَعُهُ فَقَالَ لَهُ أَرَأَيْتَ إِنْ أَبِي؟ قَالَ أَتَيْتِي بِرَأْسِهِ قَالَ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ أَجِبِ الْأَمِيرَ قَالَ وَمَنِ الْأَمِيرُ؟ قُلْتُ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ فَقَالَ لِي: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِي هَذِهِ فَمَا نَكَّثْتُ وَلَا بَدَّلْتُ وَأَبِي أَنْ يَجِيءَ. قَالَ فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي وَقُلْتُ لَعْنُ لَمْ تَأْتِهِ لِأَضْرِبَنَّ عَنْقَكَ فَقَالَ

هَا فَوَصَفَ ذَلِكَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى وَمَدَّ عُنُقَهُ عَلَيْهَا فَقَالَ اضْرِبْ. فَقُلْتُ لَهُ وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا مُحَمَّدُ بَنَ مَسْلَمَةَ إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ يُبَايِعُونَ لِأَمِيرَيْنِ مِنْ أُمَّتِي فَخُذْ سَيْفَكَ هَذَا فَاضْرِبْ بِهِ حَيْثُ دَنَا حَتَّى تَأْتِيكَ يَدُ خَاطِيَةِ أَوْ مَوْتَةٌ قَاضِيَةٌ. قَالَ الْجَنْدِيُّ: فَعَمَدْتُ سَيْفِي وَقُلْتُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَكَ؟ قَالَ نَعَمْ فَأَتَيْتُ مُسْلِمَ بْنَ عُقْبَةَ فَقُلْتُ لَهُ وَجَدْتُهُ شَيْخًا كَبِيرًا وَقَدْ بَايَعَكَ.

ثم قُتِلَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَعَمَرَهُ يَوْمَهَا ٧٧ سَنَةً، وَصَلَّى عَلَيْهِ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ. وَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْأُرْدُنِّ تَعَيَّظَ اعْتِزَالَهُ لِلْفِتْنَةِ، فَاقْتَحَمَ عَلَيْهِ مَنْزِلَهُ، وَقَتَلَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ فَقَدْ مَاتَ غَرِيبًا فِي زَمَنِ فُرْقَةٍ وَفِتْنَةٍ وَاخْتِلَافٍ، عِنْدَمَا عَادَ الْإِسْلَامَ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغَرِيبِ.

## الغازي في سبيل الله

الصحابي الجليل الذي شهد العقبة وبدراً وما بعدها، ونزل عليه النبي لما قدم المدينة فأقام عنده حتى بنى بيوته ومسجده. إنه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

خرج أبو بكر في الهجرة، يعني نصف النهار في شدة الحر، فرآه عمر، فقال: يا أبا بكر، ما أخرجك هذه الساعة؟ قال: ما أخرجني إلا ما أجد من شدة الجوع، فقال عمر: وأنا والله ما أخرجني غير ذلك، فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما رسول الله فقال: ما أخرجكما هذه الساعة؟، قالوا: والله ما أخرجنا إلا ما نجده في بطوننا من شدة الجوع، فقال: وأنا والذي نفسي بيده ما أخرجني غير ذلك، قوما معي فانطلقوا فأتوا باب أبي أيوب الأنصاري. وكان أبو أيوب يدخر لرسول الله كل يوم طعاماً، فإذا لم يأت أطعمه لأهله، فلما بلغوا الباب خرجت إليهم أم أيوب، وقالت: مرحباً بني الله ومن معه، فقال رسول الله: أين أبو أيوب؟ فسمع أبو أيوب صوت النبي، وكان يعمل في نخل قريب له، فأقبل يسرع وهو يقول: مرحباً برسول الله وبمن معه، ثم قال: يا رسول الله، ليس هذا بالوقت الذي كنت تجيء فيه، فقال: صدقت، ثم انطلق أبو أيوب إلى نخيله، فقطع منه عذقاً فيه تمر ورطب وبسر، وقال: يا

رسول الله، كُلُّ من هذا، وسأذبح لك أيضًا. فقال: إن ذبحت فلا تدبجن ذات لبن، وقدم الطعام إلى رسول الله، فأخذ منه رسول الله قطعة من لحم الجدي ووضعها في رغيف، وقال: يا أبا أيوب، بادر بهذه القطعة إلى فاطمة الزهراء، فإنها لم تُصب مثل هذا منذ أيام، فلما أكلوا وشبعوا قال النبي: خبز ولحم وتمر وبسر ورطب، ودمعت عيناه، ثم قال: والذي نفسي بيده، هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، وبعد الطعام قال رسول الله لأبي أيوب: ائتنا غدًا، وكان النبي لا يصنع له أحدٌ معروفًا إلا أحب أن يجازيه، فلما كان الغد، ذهب أبو أيوب إلى النبي، فأهداه جارية صغيرة تخدمه، وقال له: استوص بها خيرًا، عاد أبو أيوب إلى زوجته ومعه الجارية، وقال لزوجته: هذه هدية من رسول الله لنا، ولقد أوصانا بها خيرًا وأن نكرمها، فقالت أم أيوب: وكيف تصنع بها خيرًا لتنفذ وصية رسول الله؟ فقال: أفضل شيء أن نعتقها ابتغاء وجه الله وقد كان.

وقد عاش أبو أيوب حياته غازيًا، حتى قيل إنه لم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون في عهد رسول الله، وبعد وفاته ظل جنديًا في ساحات الجهاد، وكانت آخر غزواته حين جهز معاوية جيشًا بقيادة ابنه يزيد لفتح (القسطنطينية)، وكان أبو أيوب وقتها بلغ عمره ثمانين سنة، ولم يمنعه كبر

سنه من أن يقاتل في سبيل الله، ولم يمنعه ذلك من أن ينضوي تحت لواء يزيد، وأن يمحّر عباب البحر غازيًا في سبيل الله.

لكنه لم يمض غير قليل على منازلة العدو حتى مرض أبو أيوب مرضًا أفعده عن مواصلة القتال، فجاء يزيد ليعوده وسأله: ألك من حاجة يا أبا أيوب؟

فقال: اقرأ عني السلام على جنود المسلمين، وقل لهم: يوصيكم أبو أيوب أن توغلوا في أرض العدو إلى أبعد غاية، وأن تحملوه معكم، وأن تدفنوه تحت أقدامكم عند أسوار القسطنطينية، ولفظ أنفاسه الطاهرة رحمه الله. وهناك حفروا له قبرًا وواروه فيه. ومات أبو أيوب سنة اثنتين وخمسين، وصلى عليه يزيد، ودفن بأصل حصن القسطنطينية، والأتراك إلى اليوم يتعاهدون قبره، ويستسقون به. فطوبى للغرباء.

## المرأة الصالحة

كانت أخت أم سليم، وخالة أنس بن مالك، وزوجة الصحابي عبادة بن الصامت. أخوها سليم وحرام اللذان شهدا بدرًا وأحداً، وكان حرام في سرية المنذر بن عمرو يوم بئر معونة، وكان أول من استشهد فيها، وهو القائل عندما طعن من الخلف بالرمح: فزت ورب الكعبة. إنها أم حرام بنت ملحان بن خالد الأنصارية رضي الله عنها.

أسلمت بعدما عرّف الرسول صلى الله عليه وسلم بعض وفود القبائل القادمة من أنحاء الجزيرة العربية على دينه الجديد، وكان من بين من لقيهم من بني النجار عبادة بن الصامت زوج أم حرام وأخوها حرام بن ملحان. وسمعت حينها بعض آيات القرآن الكريم فأسلمت هي وأختها أم سليم، فكانتا من أوائل المسلمات في المدينة.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل بيت عبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان - وكانت خالته من الرضاعة - فتطعمه (تضيفه)، فدخل يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستضافته، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظ وهو يضحك (يتبسّم)، قالت أم ملحان: فقلت

وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاهُ في سبيل الله يركبون تَبَجَّ هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة. قالت: فقلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وضع رأسه (غفا غفوةً ثانية)، ثم استيقظ وهو يضحك (يتبسّم)، فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناسٌ من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاهُ في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين.

فركبت البحر في زمان معاوية بن أبي سفيان فسقطت عن دابتها حين خرجت من البحر فلقيت مصرعها. وذلك في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٨ أو ٢٧ هجرية. وذلك أنها وقعت عن بغلةٍ ودفنت في البقعة التي بُنيَ عليها مسجد لارنكا الكبير ويعرف باسم قبر المرأة الصالحة. وقد اكتُشف قبر الصحابية الجليلة أم حرام عام ١٧٦٠م من قبل رجل يُدعى الشيخ حسن. وهو اليوم جامع أم حرام في قبرص، والذي يقال إن به ضريح أم حرام رضي الله عنها فقد ماتت غريبة غربة الإيمان والأوطان فطوبى للغرباء.



## إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك

الإمام المجاهد، مفتي المدينة أبو سعيد الخدري. وأخوه لأمه هو قتادة بن النعمان أحد البدرين. استشهد أبوه يوم أحد، وشهد أبو سعيد الخندق وبيعة الرضوان. وحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر وأطاب، وعن أبي بكر، وعمر، وطائفة، وكان أحد الفقهاء المجتهدين. قال أبو سعيد: عُرِضت يوم أُحد على النبي صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاث عشرة، فجعل أبي يأخذ بيدي ويقول: يا رسول الله! إنه عبل العظام. وجعل نبي الله يصعد في النظر، ويصوبه، ثم قال: رده، فردني.

ومن أقواله المشهورة: عليك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء. و عليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، و عليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في أهل السماء وذكرك في أهل الأرض، و عليك بالصمت إلا في حق، فإنه تغلب الشيطان. لذا قالوا إنه لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من أبي سعيد الخدري.

وقد اعتزل أبو سعيد الفتنة وكان فيها غريباً فإنه خلال وقعة الحرة عند هجوم جند الشام على المدينة، بقي في بيته، إلا أن الجند أغاروا على بيته، وطالبوه

بالمال، ولما لم يحصلوا عليه قاموا بتعذيبه. وفي ذلك روى أحدهم قَالَ رَأَيْتُ  
أَبَا سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ مَخْلُوقَ اللَّحِيَةِ فَسَأَلْنَاهُ فَقَالَ هَذَا مَا لَقِيتُ مِنْ ظَلَمَةِ أَهْلِ  
الشَّامِ دَخَلُوا عَلَيَّ زَمَانَ الْحَرَّةِ فَأَخَذُوا مَا كَانَ فِي الْبَيْتِ مِنْ مَتَاعٍ ثُمَّ دَخَلَتْ  
عَلَيَّ طَائِفَةٌ أُخْرَى فَلَمْ يَجِدُوا فِي الْبَيْتِ شَيْئًا فَقَالُوا أَضَجَعُوا الشَّيْخَ فَأَضَجَعُونِي  
فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَأْخُذُ مِنْ لِحْيَتِي خِصْلَةً فَإِنَّمَا أَتْرَكُهَا حَتَّى أُوَابِي بِهَا رَبِّي.  
وعنه رضي الله عنه قَالَ لَزِمْتُ بَيْتِي فَلَمْ أَخْرُجْ يَغْنِي إِلَيَّ الْحَرَّةَ قَالَ فَدَخَلَ عَلَيَّ  
نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَقَالُوا أَيُّهَا الشَّيْخُ أَخْرِجْ مَا عِنْدَكَ فَقُلْتُ مَا عِنْدِي مِنْ  
مَالٍ فَتَنَّفَعُوا لِحْيَتِي وَضَرَبُونِي ضَرْبَاتٍ ثُمَّ أَخَذُوا مَا وَجَدُوا فِي الْبَيْتِ حَتَّى الصُّوفَ  
وَحَتَّى زَوْجَ حَمَامٍ كَانَ لَنَا. ودخل عليه أحد جند الشام فقال لأبي سعيد:  
اخرج، قال: لا اخرج، وإن تدخل أقتلك، فدخل الشامي عليه، فوضع أبو  
سعيد السيف، وقال: إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك. فقال الجندي: أنت  
أبوسعيد الخدري؟ قال: نعم. قال: استغفر لي فقال غفر الله لك. ومات رحمه  
الله ورضي عنه بعد الحرّة بسنة.

## صاحب رسول الله

صحابي جليل من أهل بيعة الرضوان، وكان يقول إني لممن رفع عن رسول الله من أغصان الشجرة يومئذ. سكن المدينة ثم البصرة وروى عدة أحاديث. إنه عبد الله بن مَعْقَل المزني رضي الله عنه.

كان أحد البكائين الذين نزل فيهم القرآن فقال إني لأحد الرهط الذين قال الله فيهم: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ). وهو أحد العشرة الذين بعثهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى البصرة يفقهون الناس، وهو أول من دخل مدينة تستر حين فتحها المسلمون.

ثم إنه اعتزل الفتن فلم يخض فيها ولم يتلبس بشيء منها حتى مات مستورا، قبل أن يبتلى بشيء من الدماء. وكان على قبض مغام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما أسلم زوجته النبي صلى الله عليه وسلم امرأة من الأزد، وولاه عمر بن الخطاب بعض الولايات. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا هاجر إليه أحد من العرب وكل به رجلاً من الأنصار، فقال: ففقهه في الدين، وأقرئه القرآن، قال عبدالله: فهاجرث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوكل بي

رجالاً من الأنصار، ففقهني في الدين، وأقراني القرآن، وكنْتُ أغدو عليه، فأجلس ببابه، حتى يخرج متى يخرج، فإذا خرج ترددت معه في حوائجه فأستقرئه القرآن، وأسأله في الدين، حتى يرجع إلى بيته، فإذا دخل بيته انصرفْتُ عنه.

وكانت غرته وفتنته التي تعرض لها فنجاه الله منها حينما قدم على البصرة عبيدالله بن زياد أميراً لمعاوية، وكان غلاماً سفيهاً، حدث السن، يسفك الدماء سفكاً شديداً، وفيهم عبدالله بن مغفل المزني وكان أحد العشرة الذين بعثهم عمر بن الخطاب يعلمون أهل البصرة، فدخل عليه داره في يوم الجمعة، فقال له: انته عما أراك تصنع فإن شر الدعاة الحطمة، وقال: وما أنت إلا من حثالة أصحاب رسول الله فرد عليه عبدالله: وهل كانت فيهم حثالة لا أمّ لك؟ كانوا أهل بيوتات وشرف ممن كانوا منه، أشهد لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يبيت إمام غاشاً لرعيته ليلةً إلا حَرَّمَ الله عليه الجنة. وخرج عبدالله حتى أتى المسجد، فجلس فيه، ونحن قعود حوله، ونحن نعرف في وجهه ما قد لقي منه، فقلنا: يغفر الله لك يا أبا زياد، ما كنتَ تصنع بكلام هذا السفية على رؤوس الناس؟ فقال: إنه كان عندي خفيٌّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحببتُ ألا أموت حتى

أقوم علانية، فوددتُ أن داره وسعت أهل البصرة، فاجتمعوا فيها، حتى يسمعوا مقالي ومقالته.

قالوا: ثم تفرقنا فلم يلبث الشيخ أن مرض مرضه الذي مات فيه، فعاده عبيدالله، فقال: أتعهد شيئاً نفعل فيه الذي تحب؟ قال: أفاعل أنت؟ قال: نعم، قال: فإني أسألك ألا تصلي عليّ، ولا تقم على قبري، وخلّ بيني وبين بقية أصحابي، فيكونوا هم الذين يلون ذلك مني، قال: وكان ابن زياد رجلاً جباناً، وكان يركب كل غداة، فركب ذات غداة، فرأى الناس في السكك، فقال: ما شأن الناس؟ قالوا: مات عبدالله بن مغفل المزني صاحب رسول الله، فوقف حتى مرت جنازته فقال: لولا أنه سألنا أمراً فأعطيناه لسرنا معه، حتى نصليّ عليه، ونقوم على قبره.

## نِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدُ اللَّهِ

كان من أكثر الصحابة روايةً للحديث، فروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أبيه وأبي بكر وعثمان، كان من المتقين الزاهدين، فزهّد في الخلافة واعتزل الفتنة، مدحه كثير من الصحابة وأثنوا عليه، توفي بمكة ودفن بها. إنه عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وكان إسلامه بمكة مع إسلام أبيه، ولم يكن ببلغ يومئذ. وهاجر مع أبيه إلى المدينة، وكان عمره عشر سنين.

وكان عبدالله بن عمر من عبّاد الصحابة منذ صغره، وكان ينام في المسجد، ويحدثنا ابن عمر عن نفسه فيقول فيقول: كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا رَأَى رُؤْيَا فَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَمَنَيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا، فَأَقْصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُنْتُ عَلَامًا شَابًّا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي، فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ وَإِذَا فِيهَا أَنَا قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، فَلَقِينَا مَلَكًا آخَرَ فَقَالَ لِي: لَمْ تُرْعَ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: نِعْمَ

الرَّجُلُ عَبْدِ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ. فَكَانَ بَعْدَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا.

وكان رضي الله عنه من فقهاء الصحابة المعدودين وأعلم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمناسك الحج، وقد أفتى المسلمين قرابة ستين سنة، فعَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ إِمَامَ النَّاسِ عِنْدَنَا بَعْدَ عُمَرَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَكَانَ إِمَامَ النَّاسِ عِنْدَنَا بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وعندما عُرضت عليه الخلافة عدة مرات لم يقبلها، فعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ النَّاسُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَيْهِ، فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ سَيِّدُ النَّاسِ، وَابْنُ سَيِّدِهِمْ، فَاخْرُجْ بِنَا حَتَّى نُبَايِعَ لَكَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا دَامَ فِيَّ رَوْحٌ فَلَنْ يُهْرَاقَ فِيَّ مِحْمَةً مِنْ دَمٍ، فَعَاوَدُوهُ فَقَالُوا: إِنْ لَمْ تَخْرُجْ فَتَلْتَنَا عَلَى فِرَاشِكَ، فَأَعَادَ لَهُمُ الْكَلَامَ مِثْلَ مَا قَالَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى.

وقد اعتزل أكثر الصحابة الفتنة وأبوا أن يخوضوا في دماء المسلمين، ومنهم الصحابي عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، فقد حرص على ألا يقترب من الفتنة أبداً ورفض رضي الله استعمال القوة والسيوف في الفتنة المسلحة بين عليّ ومعاوية، وكان الحياد شعاره ونهجه فقليل له: أتصلي مع هؤلاء ومع

هؤلاء وبعضهم يقتل بعضاً؟ فقال: من قال حي على الصلاة أجبته ومن قال حي على الفلاح أجبته ومن قال حي على قتل أخيك المسلم وأخذ ماله قلت: لا.

فلما قتل الحجاج بن يوسف ابن الزبير أمر بخشبة فصلبه عليها فلما صلب أقبلت أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق إلى الخشبة فعانقتها وجلست تبكي وتقول واغوثاه يا الله ما أعظم ما نزل بنا بعدك يا محمد يا رسول الله لو تدرك ما نزل بعدك بأصهارك وأرحامك وأبناء المهاجرين لرأيت عظيماً اللهم فبلغ عنا نبيك صلى الله عليه وسلم في عظيم ما نزل بنا. فأخبروا بمقاتلتها عبد الله بن عمر فبكى حتى كادت نفسه تفيض ثم قال لابنه سالم قدي إليها وكان قد كبرت سنه وكان يرعش من الكبر وكان قد عُمر فقاده ابنه سالم إليها فلما أشرف على الخشبة نظر إلى ابن الزبير مصلوباً فقال ابن عمر قد كنت نهيته عن مثل هذا يا أبا حبيب يا أخي فلم تنته مع أبي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه فقلت يا رسول الله كيف يذل نفسه؟ قال يعرض نفسه لمن لا يقوى عليه فذل نفسه. وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأن يقتلني أمير جائر على طاعة الله أحب إلي من أن أموت مجاهداً في سبيل الله.



فأتى شقيي من أشقياء هذه الأمة فبلغ ذلك إلى الحجاج بن يوسف فدعا الحجاجُ برجاله فقال لهم إن ابن عمر قال عند خشبة ابن الزبير لأن يقتلني أمير جائر على طاعة الله خير من أن أموت بالسيف مجاهداً في سبيل الله، فقد كشف لنا ما هو عليه وهو ابن خليفة وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخاف إن خرجنا عنه أن يستحل منا ما استحل ابن الزبير وعلماء العراق. قالوا: الرأي رأيك فما ترى؟ قال نقتله. قالوا أيها الأمير اجعل لقتله سبباً تحتج به على الناس فقال ائتوني به فأتوه به فأتى ابن عمر ومعه ابنه سالم فسلم فقال له الحجاج اجلس يا شيخ فجلس ثم قال الحجاج ائتوني برجل من السجن فأتوه به ثم قال هاتوا السيف فأتوه به ثم قال يا سالم بن عبد الله بن عمر خذ هذا السيف فاضرب عنق هذا. وإنما أراد الحجاج أن يقول ابن عمر لابنه لا تفعل فيقول أنا إمام أمرتُ بأمر وتنتهى أنت عنه؟ ثم يقول خذوه فيكون ذلك سبباً لإيذاء ابن عمر والتنكيل به. ففهم ابن عمر ما أراد الحجاج فأمسك عن الكلام فأخذ سالم السيف فهزه ثم تقدم إلى الرجل الأسير فقال له مُدَّ عنقك فمد الرجل عنقه فقال له سالم يا رجل: أزينت بعد إحصان؟ قال الرجل لا ما فعلت. قال له: أرجعت عن الإسلام؟ قال الرجل لا ما فعلت. قال له سالم: أقتلت نفساً بغير نفس؟ قال الرجل لا ما فعلت. قال سالم يا حجاج سمعتُ أبي وهو يسمع ما أقول أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال لا يحل قتل امرئ مؤمن إلا عن ثلاث خصال: يزيى بعد إحصان أو يرتد عن الإسلام أو يقتل نفساً مؤمنة بغير نفس، فليس في هذا الرجل شيئاً من هذا فلماذا تقتله؟ قال الحجاج اضرب عنقه كما أقول لك فقال سالم للرجل مد عنقك فمد الرجل عنقه فقال له سالم: يا أخي أصليت الغداة ركعتي الفجر؟ قال الرجل نعم قد صليت. فقال سالم يا حجاج سمعت أبي وهو يسمع ما أقول أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من صلى ركعتي الفجر كان في ذمة الله وذمة رسوله حتى تتوارى الشمس بالحجاب. يا حجاج كيف تقتل رجلاً وهو في ذمة الله؟ قال الحجاج يا سالم ضع السيف من يدك ودعا رجلاً شقيماً من أشقياء هذه الأمة فقال له اضرب عنق هذا فاضرب عنقه فقتله. فقال الحجاج لسالم اسحبه حتى تخرجه فأخذ سالم برجل القتيل يجزّه وهو يقول يا أخي سحبك أهون عليّ من قتلك وأنا شاهد لك غداً يوم القيامة أنك مظلوم.

فقام عبدالله بن عمر وهو يحمد الله حتى خرج فنادى يا معشر المسلمين اتنوني بسالم ابني فأتوه به فقال له ابن عمر يا سالم ادن مني حتى أقبلك يا بُنيّ إنما سميتك سالمًا لتسلم فاسلم من الدنيا يا بُنيّ تغنم ثم قال يا بُنيّ قدني فقاده إلى داره.

فقال الحجاج هذا أعظم مما كان منا إنما عمدنا إلى جبل الإسلام وحاجب محمد ومن عرضت عليه الخلافة فلم يقبلها ومن حج أربعين حجة ومن سمته قريش حمامة البيت وقدره في العرب ما قد علمتم وحب الأوس والخزرج لأبيه فلست أرى له بعد ما حضر عندي من أمر هذا القتيل أن أدعه بعدي في هذه البلاد. فقتل له أيها الأمير قتلة تبرىء نفسك منه عند العامة لكي لا يشتمل علينا في الفتنة. فبعث الحجاج إلى غلام له يوم الجمعة وكان ابن عمر يهجر إلى الجمعة يعني يخرج مبكراً إلى المسجد في وقت الضحى فأمر الحجاج غلامه أن يركب فرساً جسماً وأمره أن يطحنه بالفرس ويقتله فركب الغلام الفرس فنظر إلى ابن عمر وهو سائر يوم الجمعة فحمل عليه بالفرس حتى إذا بلغ إليه صدمه فأقبله ورضه رضاً فبادر الناس إليه وقالوا يا غلام أهلك المسلمين في علمهم فطلبك الله به.

وأقام الحجاج ينتظر موته فأبطأ ذلك عليه فلما رأى ذلك عمد إلى سهم فسّمه سُمّاً ناقعاً وجعله في رأس عصاً ودفعه إلى بعض رجاله وقال له امض إلى ابن عمر فأقرئه سلامي وقل له يقول لك الأمير ما فعلت في علتك؟ واحذر أن تمس بهذا السهم شيئاً حتى تدخل إليه فقد تركت برأسه ناراً فإذا سلمت عليه وبلغته كلامي فضع السن على ظهر قدمه واتكئ عليه حتى

يدخل فيه فإن قال لك أهلكني فقل له ما علمت أن رجلك ههنا. فدخل عليه الرجل فأقرأه سلامه وجعل السهم على ظهر قدمه حتى دخل في رجله فجرحه جرحاً قبيحاً فقال له ابن عمر يا رجل خفِ الله فقد والله أهلكني. فقال الرجل ما علمتُ أبقاك الله أن رجلك ههنا. فجاءه الحجاجُ يَعُوذُهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الَّذِي أَصَابَكَ مَنْ هُوَ؟ قَالَ: أَنْتَ قَتَلْتَنِي. ثم خرج عنه فاشتعل جسد ابن عمر سُمًّا فأقام ثلاثة أيام فمات رحمه الله.

فقال ابن عمرَ عِنْدَ الْمَوْتِ لِسَالِمٍ: يَا بُنَيَّ إِنَّ أَنَا مِتُّ، فَادْفِنِّي خَارِجًا مِنَ الْحَرَمِ، فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُدْفَنَ فِيهِ بَعْدَ أَنْ خَرَجْتُ مِنْهُ مُهَاجِرًا، فَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنَّ قَدْرَنَا عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: تَسْمَعُنِي أَقُولُ لَكَ وَتَقُولُ: إِنَّ قَدْرَنَا عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالَ سَالِمٌ: الْحَجَّاجُ يَغْلِبُنَا فَيُصَلِّي عَلَيْنِكَ، فَسَكَتَ ابْنُ عُمَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَحِمَ أَبَاهُ.

## الْكَفِّ بِالْمَحَامِدِ وَالْأَذْكَارِ

ومن التابعين الغرباء ماهان أبو صالح، الكفيف بالمحامد والأذكار، والمبتلى في إظهاره على الظلمة الإنكار الذي قال: أما يستحي أحدكم أن تكون دابته التي يركب، وثوبه الذي يلبس أكثر ذكراً لله منه؟ وكان لا يفتر من التكبير والتسبيح والتهليل. وكان يقول: الحق ثقيل، وابن آدم ضعيف، والذكر ساعة بعد ساعة. وينصح جلساءه: إذا دخلت بيتنا ليس فيه أحد فقل: السلام علينا من ربنا.

أرسل الحجاج بن يوسف إلى أبي صالح ماهان المسيح فلما أتاه قال بلغني عنك صلاح وخير وإني أريد أن أوليك القضاء. قال له: أنا؟ قال نعم. قال: وأنا لا أحسن أعد عشره؟ قال يا مرابي علي تتباله. فوالله ما نهته ذلك أن أخذه فصلبه على بابه.

قال عمارة الدهني كنت أنظر إليه وهو مصلوب فقال لي يا عمار لا تنظر إلي في الناظرين، الحق بأهلك حتى لا تلزمك الحجة فتزل بك اللعنة. قال ابن ماجه: هو مصلوب ولا يتزك النصيحة. قال: ورأيتُه حين صلبه الحجاج

على الخشبة يسبح ويهلل ويكبر يعقد بيده حتى بلغ تسعا وعشرين. فجاء  
 فطعنه فقتله، قال: فلقد رأيت العمد في يده بعد كذا، وأشار بيده.

## سيد التابعين

رفض كثير من الفقهاء إعطاء البيعة لبني مروان لأنهم ابتدعوا في الحكم أموراً ليست في الشرع؛ فقد عقد عبدالمملك ولاية العهد لاثنين من أولاده من بعده مرةً واحدة، وطلب البيعة لهما في وقت واحد، وهما بيعتان في بيعة واحدة وهذا منهي عنه في الدين. وعجز عبدالمملك بن مروان بما أوتي من دهاء أن يجر إلى صفوفه سيد التابعين، الذي جمع بين العلم والعبادة، والتقوى والورع، سعيد بين المسيب رضي الله عنه. الإمام العَلَم القرشي، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه. الذي رأى عمرَ، وسمع عثمانَ، وعلياً، وزيد بن ثابت، وأبا موسى، وعائشة وأبا هريرة، وابن عباس.

إن دهاء عبدالمملك وشراكه لم توقع سعيداً فيها. وإن ودّه وتذلّله لم ينظليا على سعيد لينال رضاه، وكلما التمس عبدالمملك قريباً أو كسب ود من سعيد كان الإعراض نصيبه، والإنكار على أفعاله حليفه. دعاه إلى نيف وثلاثين ألفاً ليأخذها فقال: لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم.

مرت الأيام فتقدم عبدالملك إليه يرحو منه أن يزوج ابنته لابنه الوليد حين جعله ولياً للعهد وخليفة من بعده، ولكن سعيد رفض، وأبى هذا القرب! ونفر من هذه المصاهرة غير مبال بما يجلب عليه هذا الرفض من بأس وأذى؛ لأنه قرب ومصاهرة لم يُرد بها وجه الله والدار الآخرة، وعصمة النفس من الشهوات الفاسقة. وكى يقطع الطريق على الخليفة سارع بتزويج ابنته لأحد تلاميذه كان فقيراً.

وحين ذاك عجز عبدالملك وأسقط في يده، فلم ينفعه دهاؤه، بل لم ينفعه اصطناع تقربه أو تزلفه. ولكن ماذا فعل عبدالملك مع سعيد بعدئذ. هنا جاءت المحنة وحلت النكبة بسعيد ولكنه صبر عليها واحتسب ذلك عند الحي القيوم.

كتب والي المدينة إلى عبدالملك بن مروان أن أهل المدينة قد أجمعوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب. فكتب أن اعرضه على السيف فإن أبي فاجلده خمسين جلدة وطُف به في أسواق المدينة. فلما قدم الكتاب على الوالي دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبدالله، على سعيد بن المسيب، وقالوا: جئناك في أمر، قد قدم كتاب عبدالملك إن لم تباع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصلاً ثلاثاً، فأعطنا إحداهن؛ فإن الوالي



قد قبل منك أن يُقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا ولا نعم، قال: يقول الناس بايع سعيد بن المسيب، ما أنا بفاعل، وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم، قالوا: تجلس في بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياماً، فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجده؟ قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذني حيّ على الصلاة. ما أنا بفاعل، قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجده أمسك عنك، قال: أخوفاً من مخلوق الله؟ ما أنا متقدم شبراً ولا متأخر، فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان فيه، فلما صلى الوالي بعث إليه، فأُتي به فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك، قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين: بيعة للوليد ومثلها لسليمان في وقت واحد. فلما رآه لم يُجب أُخرج إلى السدة فمُدت عنقه وسُلَّت السيوف. فلما رآه قد مضى أمر به فضُرب خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال: إن هذه الوجوه ما نظرتُ إليها منذ أربعين سنة. ومنعوا الناس أن يجالسوه. فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له قم من عندي، كراهيةً أن يُضرب بسببه.

وبعدما ضَرَبَ هشام بن إسماعيل والي المدينة لعبدالمملك بن مروان الإمام سعيد بن المسيب لامتناعه عن إعطاء البيعة لوليِّ عهده الوليد وسليمان ضرباً مبرحاً خمسين سوطاً طاف به المدينة ثم أخذوه إلى السجن.

وبأمر من الوالي دخل أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث على سعيد بن المسيب فجعل يكلمه ويلابنه ويحاول إثناءه عن موقفه فنهره ابن المسيب قال: يا أبا بكر اتق الله إنك والله أعمى البصر أعمى القلب، فخرج أبو بكر من عنده، وأرسل إليه هشام بن إسماعيل فقال: هل لان سعيد بن المسيب منذ ضربناه؟ فقال أبو بكر: ما كان أشد لساناً منه منذ فعلك به ما فعلت فاكفف عن الرجل. ثم خلى سبيله.

وفي السجن أيضاً يقول عبدالله بن يزيد الهذلي: دخلت على سعيد بن المسيب السجن فإذا هو قد ذبحت له شاة فجعل الإهاب على ظهره، وجعلوا له بعد ذلك قضيباً رطباً وكان كلما نظر إلى عضديه قال اللهم انصرتني من هشام.

وهكذا عاش سعيد ممتحناً في دينه غريباً في علمه، شأنَ المتقين الأبرار. رحم الله سعيداً فقد جاد بنفسه في سبيل الحق وإقامة العدل فلم تزعزع إيمانه المحن بل زادته إيماناً و يقيناً بأن للدين صولة وللإسلام قوة ولا غرو في ذلك لأنه من

العلماء الرجال. ومات سعيد سنة إحدى وتسعين هـ وله من العمر ٧٤  
عاماً.

## إمام دار الهجرة

سئل عن الخارجين على الحكام أيجوز قتلهم؟ قال: نعم إن خرجوا على مثل عمر بن عبدالعزيز. قالوا: فإن لم يكونوا مثله؟ قال دعهم يُنتقم من ظالم لظالم ثم يُنتقم من كليهما.

إنه مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذي قيل فيه: لا يُفنى ومالك في المدينة؛ ففي هذا البلد الطيب وفي حرم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وفي جوار المصطفى حبيب الرحمن، وبين القبر الشريف والمنبر العظيم والروضة المباركة كان الإمام مالك بن أنس يأخذ كامل زينته من طيب ولباس، ووافر حظ من حسن الأدب جالساً على منصة متواضعة يبين للناس ويعلمهم هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قائلاً: حدثني فلان أن صاحب هذا القبر قد قال. والناس يسمعون، وكأنا على رؤوسهم الطير، وهم بين ناصت بكل جوارحه ليصون قلبه ويحفظ عقله، وبين كاتب يسجل على قرطاس. وكان ما حدث به هذا الإمام الجليل قوله صلى الله عليه وسلم: (ليس على مستكره طلاق).

وما أن نطق بهذا الحديث الصحيح حتى شاع وانتشر بين الخلق في مدينة سيد الخلق عليه الصلاة والسلام. ثم أخذت التأويلات لهذا الحديث تجري على قدم وساق، كل طائفة وجدت فيه بُغيتها وعضت عليه بالنواجذ لأن فيه مستنداً شرعياً لما عزمت عليه من أمر مما بيّنت من فعل.

فالمناوئون لحكم أبي جعفر المنصور وجدوا فيه مستنداً قوياً على التحلل من بيعة المنصور لأنها جاءت كما اعتقدوا عن طريق الإكراه؛ إذ قاسوا البيعة على الطلاق فقالوا: وليس على مستكره بيعة. وأنصار محمد بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنهم وجدوا فيه متكاً لخروج هذا الإمام الجليل وثورته على الحكام. أما الحكام من أبي جعفر وولاته فقد وجدوا في نشر هذا الحديث خطراً عليهم وعلى كياناتهم، لذلك حاولوا أن يمنعوا الإمام مالكاً من التحدث به.

ولكن مالكاً لم يفعل، وهددوه فلم يسمع، لأنه يؤمن بأن الله أوجب على العلماء أن يبينوا للناس ما نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكتُمونه. ولم يكن الإمام مالك من الجبناء الذين يكتُمون أحكام الإسلام إرضاء لهوى الحكام، أو خوفاً من بطشهم وجبروتهم أو أسواطهم وأغلالهم، عند ذاك نزلت المحنة ووقع الأذى؛ إذ لما نهاه المنصور أن يحدّث بهذا الحديث

وأبى دس إليه من يسأله عنه فحدّث به على رؤوس الناس فضربه سبعين  
سوطاً أضجعتَه بعد انتهاء الفتنة.

ولكنه لم يقعد ولم يضعف ولم يستسلم لغربة العلم والعلماء بل عاد إلى  
دروسه وصنف كتابه الموطأ بعد ذلك.

## جامع العلوم

(التوكل على الله جَماع الإيمان) هذا ما قاله سعيد بن جبير أحد التابعين الكرام، الإمام الحافظ الذي كان تقياً عابداً قواماً وعالمًا بالدين، وكان كثير الذكر لله عزَّ وجل، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما، وكانا يشهدان له بنبوغه وضلوعه فيه. وقيل: كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحجَّ عطاء بن رباح، وبالحنبل والحرام طاووس، وبالتفسير مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير. وكان سعيد بن جبير رحمه الله من المكثرين في رواية الحديث، وقد روى عن: ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وأبي سعيد رضي الله عنهم، وطائفةٍ أخرى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما لسعيد بن جبير رحمه الله: حَدَّث. فقال: أُحَدِّث وأنت هاهنا؟ فقال: أوليس من نعمة الله عليك أن تتحدَّث وأنا شاهد؛ فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت عَلَّمْتُكَ. وقال إسماعيل بن عبد الملك: كان سعيد بن جبير يَوْمُنَا في شهر رمضان فيقرأ ليلةً بقراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وليلةً بقراءة زيد بن ثابت رضي الله عنه وليلةً بقراءة غيره، هكذا أبدًا. وقال ميمون بن مهران: لقد مات سعيد بن جبير رحمه الله، وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى علمه. وكان يخرج كلَّ سنةٍ

مرّتين مرّةً للعمرة ومرّةً للحج. وقد أثر عنه رحمه الله خوفه وحشيته، وقد كان ذكُر الموت لا يُفارقة، فيقول: لو فارق ذكر الموت قلبي خشيتُ أن يفسد عليّ قلبي.

أما غربته فقد وقعت لما انهزم أصحاب ابن الأشعث في معركة دير الجماجم الشهيرة، وكان سعيد بن جبير رحمه الله في جيش ابن الأشعث، وهرب سعيد إلى مكة، فأخذه خالد بن عبدالله القسري، وكان والي الوليد بن عبد الملك على مكة، فبعث به إلى الحجاج بن يوسف الثقفي فلما وقف بين يديه قال له الحجاج: اختر أيّ قِتْلَةٍ شئت، فقال له: بل اختر أنت لنفسك فإنّ القصاص أمامك يوم القيامة. قال له: يا شَقِيَّ بن كَسِير، ألم أقدم الكوفة وليس يؤمُّ بها إلّا عربي، فجعلتك إمامًا؟ (وكان ابن جبير مولى من أصول غير عربية) فقال سعيد: بلى. قال الحجاج: ألم أولك القضاء فضجّ أهل الكوفة وقالوا لا يصلح للقضاء إلّا لعربي فاستقضيتُ أبا بردة، وأمرته ألاّ يقطع أمرًا دونك؟ قال: بلى. قال: أوما جعلتك في سُمّاري؟ قال: بلى. قال: أوما أعطيتك كذا وكذا من المال تُفرّقه في ذوي الحاجة ثم لم أسألك عن شيءٍ منه؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك عليّ؟ قال: كانت بيعة لابن الأشعث في عنقي. فغضب الحجاج، ثم قال: كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في



عُنُقِكَ قَبْلَهُ، وَاللَّهِ لَأَقْتُلَنَّكَ. فَقَالَ: دَعَوْنِي أَصِلَّ رَكَعَتَيْنِ، فَقَالَ الْحِجَّاجُ: وَجَّهْهُ  
إِلَى قِبْلَةِ النَّصَارَى، قَالَ سَعِيدٌ: (فَأَيْنَمَا تُؤَلُّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ). ثُمَّ قَالَ: إِيَّيْ  
أَسْتَعِيدُ مِنْكَ بِمَا عَاذْتَ بِهِ مَرِيْمَ، قَالَ: وَمَا عَاذْتَ بِهِ مَرِيْمَ؟ قَالَ: قَالَتْ: (إِيَّيْ  
أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا).

فلما قتله الحجاج كان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه، فيقول: يا  
عدوَّ الله فيم قتلتني؟ فيهبُّ مذعوراً ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير! ما لي  
ولسعيد بن جبير! وذُكِرَ أنه مكث ثلاث ليالٍ لا ينام يقول ما لي ولسعيد بن  
جبير كلما أردت النوم أخذ برجلي.

وقد قُتِلَ سعيد بن جبير رحمه الله يومئذٍ على يد الحجاج سنة خمس وتسعين،  
وكان حينها ابن تسعٍ وأربعين سنة. رحم الله سعيداً، ورفع قدره في عليين  
وأسكنه الفردوس الأعلى.

## زينة الشباب

الشباب في كل زمان هم الأمل الذي يحدو بالأمة إلى العز التليد والمجد الأثيل، وهم موضع النظر منذ عهد النبوة وإلى يوم الدين؛ لأن في استقامتهم العزَّ والتمكين. وقد حظيت الأمة في تاريخها كله بنماذج فريدة من هؤلاء الشباب الأتقياء الشجعان الذين يقولون الحق ولا يخافون سوط ظالم أو جور مستبد. من هؤلاء العالم الشاب الشجاع حُطَيْط الزيات.

ولد حُطَيْط الزيات في أسرة متواضعة في الكوفة ببلاد العراق، حوالي سنة ٦٦هـ، في ظل خلافة عبدالملك بن مروان. ويبدو من اسمه أنه كان يعمل زياتاً في بلاد الكوفة، إلا أن ذلك لم يمنعه من طلب العلم وملازمة حلق الفقهاء، فالتحق بمجالس كبار العلماء في الكوفة والبصرة ودمشق وبلاد الشام، وأدرك جماعة من التابعين، وتفقه على أيديهم، حتى علا نجمه وارتفع اسمه. ومع صغر سنه قصده طلاب العلم، فروى عنه جعفر بن أبي المغيرة والكثير من الكوفيين، وارتفع في منزلته حتى وضعه ابن حبان في ثقات أهل الكوفة.

وكان حطيط الزيات ممن تعلقت قلوبهم بطاعة الله تعالى، واشتهر عنه أنه كان صواماً قواماً قارئاً للقرآن، يختم في كل يوم وليلة ختمة، يجاهد نفسه

لتربيتها وتقويم اعوجاجها، حتى أنه كان يخرج من البصرة ماشياً حافياً إلى مكة في كل سنة. وكان الخُلق الفريد الذي اشتهر به حطيط الزيات بين أقرانه صدَّعُه بالحق، فكانت لا تأخذه في الله لومةً لائم، وقد شاء الله تعالى لحطيط أن يعيش في العراق زمن ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي اکتوى به الكثير من العلماء والصلحاء من المسلمين.

ولما كانت ثورة عبدالرحمن بن الأشعث سنة ٨١ هـ ضد جور الحجاج بن يوسف الثقفي، والتي كانت من أخطر الثورات التي قامت على الدولة الأموية وأخطرها، حيث هددت كيان الخلافة بالزوال واضطرت الخليفة إلى مساومة أصحابها بما لم يساوم به غيرهم من أصحاب الثورات السابقة. فقد ناصرها أهل البصرة والكوفة وانضم إليه أهل الثغور وكثير من الموالي. وكان من قوة ثورة ابن الأشعث أن انضم إليها العديد من العلماء والفقهاء، سواء بتحريض الناس على المشاركة فيها أو بمشاركتهم المباشرة في القتال مع ابن الأشعث ضد الحجاج، وقد انضم إليها كثير من العلماء وشاركوا فيها مثل الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه، وعبدالرحمن بن أبي ليلى والإمام الشعبي، وسعيد بن جبير.

وكان حطييط الزيات في ذلك الحين قد بلغ خمس عشرة سنة، ولم يكن بمنأى عن هذه الأحداث، وهو الشاب الشجاع الصاعد بالحق، فوقف بجانب الفقهاء في مناصرة عبدالرحمن بن الأشعث في ثورتهم ضد الحجاج. ومع ذلك استطاع الحجاج بن يوسف أن يقمع ثورة ابن الأشعث بعد ثمانين موقعة أريقَت فيها دماء عشرات الألوف من المسلمين أشهرها موقعة دير الجماجم، والتي استمرت مائة يوم حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث فهرب إلى سجستان، وهناك مات.

وخلال أحداث الثورة العارمة كان الحجاج بن يوسف يسجل في ذاكرته كل من ناصر ابن الأشعث، لينتقم منهم في لحظة القصاص، وكان أشهرهم: سعيد بن جبير وحطييط الزيات. أرسل الحجاج بن يوسف في طلب الشاب حطييط الزيات، فأُتِيَ به إليه. وبينهما دار هذا الحوار:

قال له الحجاج: إيها.. أنت حطييط؟

قال حطييط: نعم. سل عما بدا لك، فأبني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقق، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوقبت لأشكرن، ولأحمدن الله تعالى على ذلك.

قال له الحجاج: ما تقول في أبي بكر وعمر؟

قال حطييط: أقول فيهما خيرًا.

قال الحجاج: ما تقول في عثمان؟

قال حطييط: ما وُلدت في زمانه.

فقال له الحجاج: يا بن اللخناء (المرأة التي لم تُحْتَن، واللخن هو النتن)، وُلدت

في زمان أبي بكر وعمر ولم تولد في زمن عثمان!

فقال له حطييط: يا بن اللخناء، إني وجدتُ الناس اجتمعوا في أبي بكر وعمر

فقلت بقولهم، ووجدت الناس اختلفوا في عثمان فوسعني السكوت.

قال الحجاج: فما تقول في؟

قال حطييط: أقول فيك أنك عدو الله، تقتل على الظُّنَّة.

قال الحجاج: فما قولك في أمير المؤمنين (يعني عبد الملك بن مروان)؟

قال حطييط: أنت شرُّه من شره، وهو أعظم جُرمًا منك.

فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب، فقال الجلاد إني أريد أن تدفعه إليّ، فوالله لأسمعَنَّ صياحه، فسلمّه إليه، فجعل يعذبه ليلته كلّها وهو ساكت، فلما كان وقت الصبح كُسر ساق حطيظ، ثم دخل عليه الحجاج لعنه الله فقال له: ما فعلت بأسيرك؟ فقال: إن رأى الأمير أن يأخذه مني، فقد أفسد عليّ أهل سحني. فقال له الحجاج: عليّ به.

فعذبه الحجاج بأنواع العذاب وهو صابر، فكان يأتي بإبر الحديد فيغرزها في جسمه وهو صابر، فلم ينطق بكلمة، فأخبروا الحجاج، فأمر بالقصب فشقق، ثم شدّ على حطيظ وصب عليه الخل والملح وجعل يستل قصبه قصبه، حتى انتحلوا لحمه، ومع ذلك كله لم يقل حسّاً ولا بسّاً، ولم يسمعوا منه ضجراً ولا قولاً.

فأتوا الحجاج فأخبروه، فقال: أخرجوه إلى السوق فاضربوا عنقه. فأتاه صاحب له فعرض عليه الماء عند الموت، فأبى وقال: لا أشرب إلا من ماء الحياة إن شاء الله عز وجل. ثم أمر الحجاج أن يلفّ في بارية (وهي الحصير المعمول من القصب) وألقاه حتى مات رضي الله عنه، وهو ابن ثماني عشرة سنة. رحم الله حطيظاً، ورفع قدره في عليين وأسكنه الفردوس الأعلى.

## أَذْهَبُ فَأَنْتَ فِي حِلِّ

كان مولى آل أبي حيشم الفهري القرشي، وُلد باليمن سنة سبع وعشرين أثناء خلافة عثمان بن عفان، إنه عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه. وكان عطاء أسود أعور أشلَّ أعرج، ثم عمي في آخر عمره، وكان من سادات التابعين فقهًا وعلماً وورعًا وفضلاً ولم يكن له فراش إلا المسجد الحرام إلى أن مات. وقد تلقى عطاء بن أبي رباح العلم على يد ثلثة من الصحابة منهم عبدالله بن عباس حَبْر الأمة، وتعلم على يد عبدالله بن عمر، وسمع من أبي هريرة، ونهل من علم السيدة عائشة رضي الله عنها.

وعُرف عنه حرصه على مصالح الناس وجُرأته في طلب الحق؛ فقد دخل عطاء بن أبي رباح على هشام بن عبدالملك، فرحب به وقال: ما حاجتُك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشرف الناس يتحدثون، فسكنوا، فذكَّره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وأعطياتهم. فقال: نعم؛ يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم قال: يا أبا محمد هل من حاجة غيرها؟ فقال: نعم، فذكَّره بأهل الحجاز وأهل نجد وأهل الثغور، ففعل مثل ذلك، حتى ذكَّره بأهل الذمة ألا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك، فإنك خلقت

وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك من ترى أحد. فأكب هشام بيكي، وقام عطاء. فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندرى ما فيه، أدرهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا، فقال عطاء: (ما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها.

وقد بلغ عطاء بن أبي رباح درجة عالية من العلم، فكان يجلس للفتيا في مكة بعد وفاة حَبْرِ الأمة عبدالله بن عباس، ولما قدم ابن عمر مكة فسأله فقال: أجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن أبي رباح؟ وكان يُعرف عنه أنه لا يريد بعلمه جاهًا أو سلطانًا، ولم يكن طالبًا بعلمه يومًا مالاً أو شيئًا من متاع الدنيا، بل كان يريد وجه الله.

وكانت الفتنة التي تعرّض لها عطاء فنجاه الله منها وذلك أن أحد الحجاج أتى إلى مسجد مكة فنَامَ فَكَشَفَتِ الرِّيحُ التُّوبَ عَنْ بَطْنِهِ فَظَهَرَ حِزَامَهُ الَّذِي بِهِ نَقُودُهُ، فَمَرَّ بِهِ أَصْحَابُهُ الَّذِينَ جَاءُوا لِلْحَجِّ مَعَهُ، فَخَافُوا عَلَيْهِ اللَّصُوصَ فَنَزَعُوهُ عَنْهُ، فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ الرَّجُلُ فَإِذَا حِزَامَهُ قَدْ حُلَّ فَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَمْ يَرَ إِلَّا عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ قَائِمًا يُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَسَارَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ بَتَلَابِيهِ وَصَيَّقَ



عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ فَعَلْتَ الَّذِي فَعَلْتَ بِي فَلَمَّا رَهْمْتُكَ قُتِمْتَ تُصَلِّي؟  
فَقَالَ لَهُ مَا بِأَلَيْكَ يَا هَذَا؟ قَالَ حِزَامِي حَلَلْتَهُ، قَالَ وَكَمْ كَانَ فِيهِ؟ قَالَ مِائَتَا  
دِينَارٍ قَالَ لَهُ هَلْ سَمِعَ بِهَذَا غَيْرِكَ؟ قَالَ لَا قَالَ فَادْهَبْ مَعِي حَتَّى أُعْطِيَكَ مَا  
ذَهَبَ لَكَ. فَذَهَبَ مَعَهُ فَعَدَّ لَهُ مِائَتَيْ دِينَارٍ فَذَهَبَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ  
الْخَبْرَ فَقَالُوا لَهُ ظَلَمْتَ وَاللَّهِ الرَّجُلَ كَانَ مِنْ قِصَّتِنَا كَيْتَ وَكَيْتَ ثُمَّ حَلَلْتَنَاهُ  
عَنْكَ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ اللَّصُوصِ وَهَذَا هُوَ هَذَا فَقَامُوا بِأَجْمَعِهِمْ يَبْحَثُونَ عَنْ  
الرَّجُلِ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيْهِ فَسَأَلُوا عَنْهُ فَقِيلَ لَهُمْ هُوَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَاحٍ فَقِيهٌ أَهْلُ  
مَكَّةَ وَسَيِّدُهُمْ فَاعْتَدَرُوا إِلَيْهِ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حِلٍّ وَيُقْبَلَ الدَّانِيَةَ فَقَالَ لَهُمْ  
هَيْهَاتَ مَا كَانَتْ بَالِي تَرْجِعُ إِلَيَّ اذْهَبْ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ وَهِيَ لَكَ.

## إِنَّ صَدَقَاتِكُمْ قَتَلْتُمُونَا

تابعي مُحدّث ثقة، روى له أصحاب كتب الحديث، ولد في عام ٣٦ هـ يوم معركة الجمل، وتوفي في عام ١١٣ هـ. وهو والد القاضي إياس بن معاوية المزني. إنه معاوية بن قرّة المزني، أبو إياس البصري رضي الله عنه. قال معاوية بن قرّة: أدركت سبعين من الصحابة، لو خرجوا فيكم اليوم، ما عرفوا شيئاً مما أنتم فيه إلا الأذان. وكان يقول: لا تجالس بعلمك السفهاء، ولا تجالس بسفهاك العلماء.

ومن أقواله المشهورة:

- إن الله تعالى يرزق العبد رزق شهر في يوم واحد فإن أصلحه أصلح الله على يديه وعاش هو وعياله بقية شهرهم بخير، وإن هو أفسده أفسد الله على يديه وعاش هو وعياله بقية شهرهم بشر.

- اللهم إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم، اللهم فكما أصلحتهم فأصلحنا وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم فارزقنا أن نعمل بطاعتك وارض عنا.

وكانت غربته وسبب نفيه أن الحجاج قدم على عبدالمليك وإفداً ومعه معاوية  
 بن قرة فسأل عبدالمليك معاوية عن الحجاج؟ فقال إن صدقناكم قتلتُمونا  
 وإن كذبناكم حسينا الله تبارك وتعالى؟ فنظر إليه الحجاج بعين غضب فقال له  
 عبدالمليك لا تتعرض له. فتغيظ منه الحجاج فنفاه إلى السند.

## شبيه يوسف بن يعقوب

كان مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث زوجة النبي صلى الله عليه وسلم. تابعي مدني، وأحد رواة الحديث النبوي، وواحد من فقهاء المدينة السبعة من التابعين وأخوه عطاء بن يسار. إنه سليمان بن يسار رضي الله عنه. ولد أبو أيوب سليمان بن يسار في المدينة المنورة سنة ٣٤ هـ في خلافة عثمان بن عفان، وكان أبوه يسار من سبي فارس، وهو مولى لأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، بل إن سليمان نفسه كان لها عبداً ثم كاتبها على حريته. نبغ سليمان في تلقي العلم في المدينة، حتى صار أحد فقهاء المدينة السبعة من التابعين. وقد ولّاه عمر بن عبدالعزيز سوق المدينة حين كان عمر والياً للمدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك.

وكان سليمان من أحسن الناس وجهاً. فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها. فقالت له: ادن فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه؛ وذلك أن عطاء بن يسار وسليمان بن يسار خرجا حاجين من المدينة، ومعهما أصحاب لهما، حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً. فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقي عطاء بن يسار قائماً في المنزل يصلي. فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة فأوجز في صلاته،

ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم. قال: ما هي؟ قالت: قم فأصب مني فإني قد ودقتُ ولا بعل لي فقال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار.

ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه ويأبى ما تريد. وجعل يبكي ويقول: ويحك إليك عني. فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه. فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي. فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته فلما نظر إلى عطاء يبكي والمرأة بين يديه تبكي في ناحية البيت بكى لبكائهما لا يدري ما أبكاهما. وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتى رجل فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت. فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت. فقام القوم فدخلوا. فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبه. وكان عطاء أسن من سليمان.

ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء الله فبينما عطاء ذات ليلة نائم إذ استيقظ وهو يبكي فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ فاشتد بكاءه. قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة. قال، وما هي؟ قال لا تخبر بها أحداً ما دمتُ حياً: رأيت يوسف النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه فلما رأيت حسنه بكيت فنظر إليَّ في

الناس فقال: ما ييكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، ذكرتك وامرأة العزيز وما ابثليت به من أمرها وما لقيت من السجن وفُرقة يعقوب، فبكيث من ذلك وجعلتُ أتعجب منه. قال: فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد فبكيث واستيقظت باكياً.

قال سليمان: أي أخي وما كان من حال تلك المرأة؟ فقص عليه عطاء القصة فما أخبر بها سليمان أحداً حتى مات عطاء. وكان سليمان بن يسار يصوم الدهر وكان عطاء بن يسار يصوم يوماً ويفطر يوماً.

وأما غربة سليمان التي نجاه الله منها فكانت بسبب أنه وشى به أحد خصومه إلى بعض الخلقاء فأمرَ بقطع لسانه حتى توسط فيه عُمرُ بن عبد العزيز فعفا عنه وأطلق سراحه.

## ما سمعتُ حديثاً إلا حفظتهُ

علامة عصره، وُلِدَ بالكوفة سنةَ عشرين للهجرة وكان يسكن الكوفة، ولكنه تنقل بين الأقطار لطلب العلم؛ وكان يتمتع بذاكرة قوية فكان يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث قطُّ إلا حفظته، ولا أحببتُ أن يعيده عليّ. وقد أدرك أكابر الصحابة وأعلامهم رضي الله تعالى عنهم، ومنهم: عليُّ بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وابن عباس، وابن عمر، وأسامة بن زيد، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وجريير بن عبدالله البجلي. إنه الإمام الشَّعبي عامر بن شراحيل رضي الله عنه.

قال رجل للشَّعبي كلاماً أذع فيه، فقال له: إن كنت صادقاً غفر الله لي، وإن كنت كاذباً غفر الله لك. وكلم الشَّعبي عُمَرَ بن هبيرة الفزاري أمير العراقين في قوم حبسهم ليطلقهم فأبى، فقال له: أيها الأمير، إن حبستهم بالباطل فالحق يخرجهم، وإن حبستهم بالحق فالعفو يسعهم، فأطلقهم.

وكانت غربته التي نجح الله منها أنه أتى بي إلى الحجاج مؤثماً فلما أتى بي باب القصر لقيته يزيد بن أبي أسلم فقال له إنا لله يا شعبي لِمَا بَيْنَ رَقَبَتِكَ مِنْ

الْعِلْمِ وَلَيْسَ يَوْمَ شَفَاعَةٍ، أَمَرَ لِلْأَمِيرِ بِالشُّرْكِ وَالنَّفَاقِ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ تَنْجُو. ثُمَّ لَقِيَهُ مُحَمَّدُ بْنُ حَجَّاجٍ فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ. قَالَ الشَّعْبِيُّ فَلَمَّا دَخَلْتُ عَلَى الْحَجَّاجِ قَالَ وَأَنْتَ يَا شَعْبِيُّ فِيمَنْ حَرَجَ وَكَفَرَ؟ فَقُلْتُ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ أَحْزَنَ بِنَا الْمَنْزِلُ وَأَجْدَبَ الْجَنَابَ وَضَاقَ الْمَسْلُوكُ وَاسْتَحْلَسْنَا السَّهْرَ وَاسْتَحْلَسْنَا الْخَوْفَ فَوْقَعْنَا فِي خِزْيَةٍ لَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَّةً أَتَقِيَاءَ وَلَا فَجْرَةً أَقْوِيَاءَ. قَالَ صَدَقَ وَاللَّهِ مَا بَرُّوا بِخُرُوجِهِمْ عَلَيْنَا وَلَا قَوُّوا عَلَيْنَا إِذْ فَجَرُوا، ثُمَّ قَالَ أَطْلُقُوا عَنْهُ. فَأُطْلِقُوا سَرَّاحَهُ.

عاش الشَّعْبِيُّ ٨٧ سنة، وكانت وفاته فجأة بالكوفة، سنة ١٠٣ هـ ولما علم الحسن البصري بوفاة الشَّعْبِيِّ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن كان لقدسَمَ السن، كثيرَ العلم، وإنه لمن الإسلام بمكان. رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.



## هو في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما

الفقيه الكوفي، وأحد أعلام الزهد عند المسلمين، وإمام من أئمة الحديث النبوي، وواحد من تابعي التابعين، وصاحب واحد من المذاهب الإسلامية المندثرة، والذي ظل مذهبه متداولاً حتى القرن السابع الهجري، والذي قال عنه الذهبي: هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه المجتهد مصنف كتاب الجامع، كما قال عنه بشر الحافي: سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما. إنه أبو عبدالله سفيان الثوري رضي الله عنه.

نشأ سفيان الثوري في الكوفة وتلقى العلم بها، وسمع من عدد كبير من العلماء، حتى صار إماماً لأهل الحديث في زمانه. طلبه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ومن بعده ابنه المهدي لتولي القضاء، فتهرب منهما وأعياهما، حتى غضبا عليه وطاردوه حتى توفي متخفياً في البصرة سنة ١٦١ هـ.

وكانت غربته وفتنته بعد أن مات أبو حنيفة في سجون الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور لرفضه تولي القضاء، سأل المنصور عمن يلي أمر القضاء، فأشاروا عليه بسفيان الثوري وأخبروه بأنه أعلم أهل الأرض، فأرسل في طلبه

وهو يتهرَّب حتى اضطرَّ إلى الخروج من الكوفة إلى مكة سنة ١٥٥ هـ، فأرسل المنصور في الأقاليم بمنادٍ يقول: من جاء بسفيان الثوري فله عشرة آلاف، ففر الثوري إلى البصرة، وعمل متخفيًا في حراسة أحد البساتين حتى عرفه الناس وهُمُّوا به، فخرج منها إلى اليمن، وهناك أُثمَّم بالسرقة، ودفعوه إلى معن بن زائدة والي اليمن الذي سأله عن حاله فعرفه، وخيَّره بين الإقامة والرحيل. فرحل إلى مكة مرة أخرى الموسم الذي تصادف أن جاء فيه أبو جعفر حاجًا. وبلغت أبا جعفر أنباء عن وجود الثوري بمكة، فأرسل إلى واليها يطالبه بالقبض على الثوري وصلبه، فلما علم الثوري، تعلق بأستار الكعبة وأقسم على الله ألا يُدخِل المنصور مكة، فإذا بالمنصور يمرض ويموت قبل أن يدخلها. ثم خلف المهدي أباه المنصور، فأرسل إلى الثوري وطلب منه كما طلب أبوه بأن يلي القضاء، وكتب للثوري عهدًا بذلك. فرمى الثوري العهد في النهر، وفرَّ إلى البصرة مجددًا، واستخفى في دار يحيى بن سعيد القطان، ثم انكشف أمره بعد أن توافد طلاب الحديث على الدار، فعاد إلى الكوفة وتخفى في دار عبدالرحمن بن مهدي. ثم رصد المهدي جائزة لمن يأتيه برأس الثوري، فظلَّ الثوري هائمًا يتنقَّل بين البلاد متخفيًا، وبعث في حاله هذه إلى المهدي كتابًا قال فيه: طردتني وشردتني وخوفتني، والله بيني وبينك،

وأرجو أن يَخِيرَ اللهُ لي قبل رجوع الكتاب، فمات سفيان قبل أن يأتيه كتاب المهدي بالأمان.

كانت وفاته في شعبان ١٦١ هـ في البصرة، وهو متخفٍ في دار بشر بن منصور السليمي. فأُخرجت جنازته على أهل البصرة فجأةً، فشهدتها جمع كبير من الناس، وصلى عليه عبدالرحمن بن عبدالملك بن أجزر بحسب وصية الثوري.

## أول من نَقَطَ المصاحف

يكنى أبا عدي، حليف بني ليث من قبيلة كنانة، فقيه علامة مقرئ، كان قاضي مرو، ويقال إنه أول من نَقَطَ المصاحف، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم، حدَّث عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهم من الصحابة. وكان أحد الفصحاء، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي وعليه قرأ القرآن. وكان الحجاج قد نفاه، فأقبل عليه الأمير قتيبة بن مسلم وولاه قضاء خراسان، فكان إذا انتقل من بلد إلى بلد، استُخلف على القضاء بها. إنه أبو سليمان يحيى بن يعمر العدواني البصري رضي الله عنه.

وكانت بداية غربته وتغريبه ونفيه أن الحجاج لما بنى واسط سأل الناس ما عيبها؟ قالوا: لا نعرف لها عيباً، وسندلُّك على من يعرف عيبها؛ يحيى بن يعمر، فبعث إليه، فسأله فقال: بنيتها من غير مالك، ويسكنها غير ولدك؛ فغضب الحجاج وقال: ما حملك على ذلك؟ قال: ما أخذ الله على العلماء في علمهم ألا يكتموا الناس حديثاً، فنفاه إلى خراسان.

وكان الحجاج بن يوسف قال له قبل ذلك: أتجدني ألحن؟ فقال: الأمر أوضح من ذلك، فقال: عزمت عليك لتخبرني ألحن؟ قال يحيى: نعم، فقال له: في

أي شيء؟ فقال: في كتاب الله، فقال: ذلك أشنع، ففي أي شيء من كتاب الله؟ قال قرأت (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) فرفعت أحب وهو منصوب فقال له الحجاج: طول لحيتك أوقعك، وكان طويل اللحية، فقال رجل ممن حضر: أيها الأمير حدثني كعب الأخبار أنه مكتوب في بعض الكتب أن اللحية مخرجها من الدماغ، فمن تُفرط عليه لحيته في طولها يخفِّ دماغه، ومن خف دماغه قل عقله، ومن قل عقله كان أحمق، والأحمق لا يُسمع منه فقال الحجاج ليحيى: لا تساكني ببلد أنا فيه ونفاه إلى خراسان، وبها يزيد بن المهلب فكان عنده. قال محمد بن سلام: أخبرني أبي أن يزيد بن المهلب كتب إلى الحجاج: إنا لقينا العدو ففعلنا وفعلنا واضطررناه إلى عُرْعرة الجبل، فقال الحجاج: ما لابن المهلب وهذا الكلام؟ فقيل له: إن يحيى بن يعمر عنده فقال: ذاك إذن.

ولم تقف الغربة والتغريب والنفي عند ذلك بل إن الحجاج أُرْسِلَ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ فَأَتَى بِهِ مِنْ خُرَاسَانَ فِي الْحَدِيدِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ لَتَأْتِيَنِي بِآيَةٍ

تستدل بها من كتاب الله أو لأضرين عنقك ولا تأتي بهذه الآية (فعلوا تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم) قال أنا أتيتك بهذه الآية وقرأ (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وذكرياً ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين) قال فذكر الله عيسى من ذرية إبراهيم بأمه فكذلك الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم بأُمَّهُمَا. فبهت الذي كفر.

## يولد لك ولد نحلته اسمي وكنيتي

أبوه أمير المؤمنين وأمه خولة بنت جعفر الحنفية، فينسب إليها تمييزاً عن أخويه الحسن والحسين، يكنى أبا القاسم، حيث أذن رسول الله لعلي بن أبي طالب أن يسميه باسمه ويكنيه بكنيته فقد حدّث محمد ابن الحنفية عن أبيه علي قال: قلت: يا رسول الله أرأيت إن ولد لي بعدك ولد أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك؟ قال: نعم. إنه أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقد ولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين للهجرة، وهو أحد الأبطال الأشداء، كان ورعاً واسع العلم ثقة له عدة أحاديث في الصحيحين. وكان قائداً كبيراً من قادة المعارك التي خاضها علي بن أبي طالب في الجمل وصفين حيث حمل الراية وأبلى بلاءً حسناً وكان أبوه يعتمد عليه كثيراً في هذه الحروب رغم صغر سنه. لذا ساعدت هذه المرحلة كثيراً في صقل شخصيته. وقيل لمحمد ابن الحنفية ذات مرّة: لم يغرر بك أبوك في الحرب، ولا يغرر بالحسن والحسين؟ فقال: إنهما عيناه، وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه.

ويروى أنّ ملك الروم بعث إلى معاوية برجلين من جيشه، يزعم أنّ أحدهما أقوى الروم والآخر أطول الروم، فلما اجتمع الناس قال معاوية: من لهذا القوي؟ فجيء بمحمّد ابن الحنفية فغلبه بأنّ أقامه ورفعته في الهواء ثمّ ألقاه على الأرض، فسُترّ بذلك معاوية. وأمّا علمه، فقد عاش في بيت الوحي والرسالة والإمامة، فتلقّى من المعارف ما ارتقى بها سلماً عجز غيره عن بلوغه، وقد عاش جُلَّ عمره مع أبيه عليّ وارتوى من عذب سيرته، وكان المطيع لأمر والده وفي خدمته. وقد بعثه عليّ إلى الكوفة برفقه محمّد بن أبي بكر، وكان على الكوفة أبو موسى الأشعري ولما عاد أعطاه عليّ الراية في حرب الجمل، وأوصاه قائلاً له: تَنزول الجبال ولا تَنزُل، عَضَّ على ناجدك، أَعِرِ الله جُمُحَمَّتَكَ، تَد في الأرض قَدَمَكَ (أي تَبَثُّها)، اِرْم ببصرك أقصى القوم، وَعُضَّ بِبَصْرِكَ، واعلم أنّ النصر من عند الله سبحانه.

وإلى آخر اللحظات.. كان محمّد ابن الحنفية مع أبيه أمير المؤمنين وفي كنفه وإلى جنبه، حتّى روي أنّه اشترك في غُسل والده بعد استشهاده، وشارك في تجهيزه بعد أن كان الحسن رضي الله عنه يغسله والحسين رضي الله عنه يصبّ عليه الماء، وقد أوصاه أمير المؤمنين رضي الله عنه وصيةً خاصّة بأخويه الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال له: أوصيك بتوقير أخويك؛ لعظم



حَقُّهُمَا عَلَيْكَ، وَلَا تُوثِقُ أَمْرًا دَوَّهْمَا (أَوْ تَقْطَعُ أَمْرًا دَوَّهْمَا). كَمَا أَوْصَى  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَدَيْهِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِأَخِيهِمَا مُحَمَّدٍ.

وَلَا زَمَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ أَخَاهُ الْإِمَامَ الْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَلْتَزِمًا بِمَحَبَّتِهِ وَوَلَايَتِهِ  
وَالدِّفَاعِ عَنْهُ وَعَنْ إِمَامَتِهِ، وَالاسْتِمَاعِ إِلَى وَصَايَاهُ. حَتَّى إِذَا اشْتَكَى الْإِمَامُ  
الْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السَّمَّ وَعَلِمَ بِقُرْبِ أَجَلِهِ، أَرْسَلَ إِلَى أَخِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ  
الْحَنْفِيَّةِ، فَجَاءَ مِنْ فُورِهِ وَكَانَ فِي بَسْتَانٍ لَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَجَلَسَ عَنْ يَسَارِهِ؛ إِذْ  
كَانَ الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ عَنْ يَمِينِهِ، فَقَالَ الْإِمَامَ الْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ فَتَحَ  
عَيْنَيْهِ لِلْحُسَيْنِ: يَا أَحْيَى، أُوصِيكَ بِمُحَمَّدٍ أَخِيكَ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُ جَلَدُهُ مَا بَيْنَ  
الْعَيْنَيْنِ. ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَأَنَا أُوصِيكَ بِالْحُسَيْنِ، كَانِفُهُ وَوَازِرُهُ (يَعْنِي كُنْ قَرِيبًا  
مَعَاوَنًا لَهُ).

كَمَا عَايَشَ أَخَاهُ الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ أَخًا وَإِمَامًا فِي جَمِيعِ مَا جَرَى بَعْدَ الْإِمَامِ  
الْحَسَنِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْحُسَيْنَ أَعْلَمُنَا عِلْمًا، وَأَثْقَلُنَا حِلْمًا، وَأَقْرَبُنَا مِنْ رَسُولِ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةً، وَكَانَ إِمَامًا فَقِيهًا.

وَقَدْ اعْتَمَدَ ابْنُ الْحَنْفِيَّةِ السَّلْمِيَّةَ كَمَنْهَجِ لِحَيَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا فَضَّلَ بَعْدَ  
شَهَادَةِ أَبِيهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَعْدَ صَلَاحِ أَخِيهِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
أَنْ يَعِيشَ فِي الْمَدِينَةِ حَالَةَ مِنَ الْهَدُوءِ وَالِاسْتِقْرَارِ بَعِيدًا عَنِ الْمَجَادَلَاتِ السِّيَاسِيَّةِ،

حتى أنه مدّ يد البيعة ليزيد بن معاوية كولي للعهد، وبقي ملتزماً بذلك بعد وفاة معاوية وتولي يزيد لزام الأمور. وبقي محافظاً على نفس المنهج في سائر حياته.

ولما قُتل المختار بعث ابن الزبير إلى ابن الحنفية مرةً أخرى يطالبه بالبيعة وإلا فالسيف بينهما، وفي تلك الأثناء جاءه كتاب عبدالمملك بن مروان الذي كان قد تولى الحكم تَوّاً يطلب منه القدوم إلى الشام. فخرج محمد وأصحابه من الشَّعب متجهين إلى الشام، فلما وصل مَدِين بلغه غدر عبدالمملك بعمرو بن سعيد - من أصحاب ابن الحنفية - فندم على إتيانه وخافه فنزل أيلة - ميناء على البحر الأحمر- ثم ارتحل منها إلى مكة ونزل شعب أبي طالب ومنه إلى الطائف وبقي هناك حتى حاصر الحجاجُ ابنَ الزبير فأقبل ابن الحنفية من الطائف، ونزل الشَّعب، فطلبه الحجاج ليباع عبدالمملك، فامتنع حتى يجتمع الناس فلما قُتل ابن الزبير كتب ابن الحنفية إلى عبدالمملك يطلب منه الأمان له ولمن معه، فاستجاب له عبدالمملك بذلك.

وكانت غربة ابن الحنفية قد بدأت عندما أخاف الحجاجُ مُحَمَّدَ ابن الحَنْفِيَّةِ وَأَخَذَ فِي تَعْرِضِهِ بِمَا يَكْرَهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ ابن الحَنْفِيَّةِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَلَاثِمِائَةَ حَظَّةٍ وَسِتِّينَ حَظَّةٍ يَلْحَظُهَا عِبَادُهُ فَأَرْجُو أَنْ

يكفينيك في بعض لحظاته فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَقَالَ لِلْحَجَّاجِ  
 أُعْطِيَ اللَّهُ عَهْدًا لَنْ تَعْرَضْتَ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ بِمَا يَكْرَهُ لِأَضْرِبَنَّ عَنْقَكَ فَمَا  
 عَادَ الْحَجَّاجُ إِلَى شَيْءٍ يَكْرَهُهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنْفِيَّةِ بَعْدَهَا.

ليس هذا فحسب بل إن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّيْبِرِ حَبَسَ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ فِي خَمْسَةِ  
 عَشَرَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَقَالَ لِتَبَايَعِنِي فَأَبَوْا مِنْ بَيْعَتِهِ وَكَانَ السَّجْنُ الَّذِي حُبِسُوا  
 فِيهِ يُدْعَى عَارِمَ فَوَجَّهَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ جَمَاعَةً تَسِيرُ اللَّيْلَ وَتَكْمُنُ النَّهَارَ  
 حَتَّى كَسَرُوا سِجْنَ عَارِمٍ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ بَنِي هَاشِمٍ ثُمَّ سَارُوا بِهِمْ إِلَى مَا مِنْهُمْ.

## خير بني أمية

والده خليفة وهو خليفة، وكانا من خيار أمراء بني أمية، وقد بقي أبوه أميراً على مصر أكثر من عشرين سنة. ولما أراد أبوه الزواج قال لقيّمه: اجمع لي أربعمئة دينار من طيب مالي، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فولدت له عمر. إنه عمر بن عبدالعزيز بن مروان أبو حفص رضي الله عنهم.

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف شهير مع عمر بن الخطاب، فعن عبدالله بن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يَعْسُ (يعني يبحث في الليل عن أهل الرّيبة) بالمدينة إذ أعياء، فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء يعني اخلطيه، فقالت لها: يا أمتاه، أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم؟، قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟، قالت: إنه أمر منادياً فنادى ألا يُشَاب اللبنُ بالماء، فقالت لها: يا بنتاه، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه في المألأ وأعصيه في الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم، علّم الباب واعرف

الموضع، ثم مضى في عسه. فلما أصبحا قال: يا أسلم، امض إلى الموضع فانظر من القائلة ومن المقول لها، وهل لهما من بعل؟ قال فأتيت الموضع فنظرت، فإذا الجارية أيم لا بعل لها، وإذا تيك أمها وإذا ليس بها رجل، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا عمر ولده فجمعهم فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟، فقال عاصم: يا أبتاه، لا زوجة لي فزوجني، فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم، فولدت لعاصم بنتاً، وولدت البنت عمر بن عبدالعزيز.

وكانت غربته وفتنته قبل أن يتولى الخلافة أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَيَّامَ الْوَلِيدِ فَقَالَ يَا أَبَا حَفْصٍ أَلَا تُعَلِّمُ الْوَلِيدَ وَتَعْطُهُ؟ قَالَ إِنِّي لَا أَقْدِرُ. قَالَ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ. فَلَمَّا دَخَلَ عُمَرُ عَلَى الْوَلِيدِ قَالَ إِنَّ بِالْبَابِ رَجُلًا يُرِيدُ أَنْ يُكَلِّمَكَ. فَقَالَ لِجَارِحِهِ ائْذَنْ لَهُ فَلَمَّا دَخَلَ كَلَّمَهُ وَوَعَّظَهُ وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ تُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ عَنْ وَفَّيْهَا وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ الْوَلِيدُ إِنَّكَ لَصَادِقٌ فِيمَا قُلْتَ وَلَكِنْ هَذَا وَاللَّهِ مَقَامٌ لَا يَقُومُهُ أَحَدٌ بَعْدَكَ، ثُمَّ نَادَى عَلَى السِّيفِ: يَا بَنَ رِيَّانَ اضْرِبْ عُنُقَهُ. فَلَمَّا مَرَّ بِهِ ابْنُ رِيَّانَ دَعَاهُ الْوَلِيدُ فَقَالَ إِنِّي لِأَطْنُوكَ أَنَّكَ لَمْ تَجْتَرِئْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا وَقَدْ كَانَ مَعَكَ غَيْرُكَ فَلَعَلَّ هَذَا مِنْهُمْ يُرِيدُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ لَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ مَعِيَ عُمَرُ وَلَا غَيْرُهُ. قَالَ ابْنُ رِيَّانَ فَلَمَّا سَمِعْتُ الْوَلِيدَ يَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ

فِي عُمَرَ سَلَّلْتُ مِنْ سَيْفِي قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعٍ فَعُلْتُ يَا مُرِي فَأَضْرَبُ عُنُقَ عُمَرَ.  
 ثُمَّ أَقْبَلَ الْوَلِيدُ عَلَى الرَّجُلِ وَقَالَ اخْتَرِ أَيَّ فِتْلَةٍ إِنْ شِئْتَ أَفْتُلُكَ بِهَا فَقَالَ  
 الرَّجُلُ بَلِ اخْتَرِ أَنْتَ أَيَّ فِتْلَةٍ تَفْتُلُنِي بِهَا فَإِنِّي قَاتِلُكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَقَالَ  
 عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَجَلَسْتُ أَسْتَرِّقُ النَّظَرَ إِلَى السُّفِّ مَخَافَةَ الْعُقُوبَةِ أَنْ  
 تَعْشَانَا مِنَ السَّمَاءِ حِينَ قَتَلَهُ ثُمَّ أَرْحَى السُّرَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَاَنْصَرَفْتُ وَاتَّبَعَنِي  
 ابْنُ رِيَّانٍ فَقَالَ يَا أَبَا حَفْصِ الْحُمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَفَ عَنْكَ شَرَّ هَذَا الرَّجُلِ  
 فَعُلْتُ لِابْنِ رِيَّانٍ وَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَ أَوْلَمَ تَرَى سَلَّلْتُ مِنْ سَيْفِي قَدْرَ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ  
 لَعَلَّهُ يَغْمِرُنِي. فَقَالَ لَهُ عَمْرٍ وَكَنتَ فَاعِلًا يَا بَنَ رِيَّانٍ؟ قَالَ إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

وقال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَرْسَلْتُ إِلَيَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ  
 قَاطِبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَأَجْلَسَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ مَجْلِسَ الْحُضْمِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا ابْنُ الرَّيَّانِ  
 فَأَمَّا بِسَيْفِهِ فَقَالَ كَيْفَ تَرَى فِيمَنْ سَبَّ الْخُلَفَاءَ أَتَرَى أَنْ يُقْتَلَ؟ فَسَكَتُ  
 فَأَنْتَهَرَنِي وَقَالَ مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ قلتَ أَفَتَك يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ لَا وَلَكِنَّهُ  
 سَبَّ الْخُلَفَاءَ. قلتَ فَإِنِّي أَرَى أَنْ يَنْكَلِ بِهِ بِمَا أَنْتَهَكَ مِنْ حُرْمَةِ الْخُلَفَاءِ. قَالَ  
 فَرَفَعَ الْوَلِيدُ رَأْسَهُ إِلَى ابْنِ رِيَّانٍ وَمَا أَظُنُّ إِلَّا أَنَّهُ يَقُولُ اضْرِبْ عُنُقَهُ ثُمَّ حَوَّلَ  
 وَرَكَهُ وَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ. وَقَالَ لِي ابْنُ رِيَّانٍ بِيَدِهِ انْقَلِبْ فَاَنْقَلِبْتُ وَمَا حَبُّ رِيحٍ  
 وَرَائِي إِلَّا وَأَنَا أَرَى أَنَّهَا تَرُدُّنِي إِلَيْهِ.

## طاووس القراء

اسمه ذكوان، وطاووس لقبه، لأنه كان طاووس القراء وكان من التابعين من أهل اليمن. وقد تعلم طاووس رضي الله عنه من ثلة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فروى عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما، وسمع أبا هريرة رضي الله عنه، وكان طاووس يقول: جالست ما بين الخمسين إلى السبعين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. إنه طاووس بن كيسان اليماني رضي الله عنه.

ولما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة كتب إليه طاووس: إن أردت أن يكون عملك خيراً كله فاستعمل أهل الخير فقال عمر: كفى بها موعظةً. وكان من عبّاد أهل اليمن ومن فقهاءهم ومن سادات التابعين، وقد صلى طاووس الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة. ولم يترك صلاته وعبادته حتى في مرض موته. وكان يعجب ممن يغفل عن السّحر وينام في وقت ينزل الله فيه إلى السماء الدنيا، لينادي على عباده، فيقول داوود بن إبراهيم: إن الأسد حبس ليلة الناس في طريق الحج فدق الناس بعضهم بعضاً فلما كان السّحر ذهب عنهم فنزلوا وناموا وقام طاووس يصلي فقال له رجل ألا تنام قال: هل ينام أحدٌ السّحر!

ومن ورعه عن محارم الله أن امرأة ماجنة قالت: ما بقي أحد إلا فتنته ما خلا طاووس، فإني تعرضتُ له فقال: إذا كان وقت كذا فتعالِي. فجئتُ ذلك الوقتَ فذهب بي إلى المسجد الحرام، فقال: اضطجعي فقلت: ها هنا! فقال: إن الذي يرانا هنا يرانا هناك.

وكانت غريته وفتنته أن هشام بن عبد الملك قدم حاجاً إلى بيت الله الحرام، فلما دخل الحرم قال: ايتوني برجل من الصحابة فقييل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا، قال: فمن التابعين، فأُتي بطاووس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم بإمارة المؤمنين ولم يكنه، وجلس إلى جانبه بغير إذنه، وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب من ذلك غضباً شديداً حتى همَّ بقتله، فقييل: يا أمير المؤمنين أنت في حرم الله وحرم رسوله لا يمكن ذلك، فقال له: يا طاووس ما حملك على ما صنعت؟ قال: وما صنعت؟ فاشتد غضبه وغيظه، وقال: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تسلّم عليّ بإمارة المؤمنين، ولم تكني، وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت يا هشام كيف أنت؟ قال: أما خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ، وأما ما قلت: لم تسلّم عليّ بإمارة المؤمنين فليس كل المؤمنين راضين بإمارتك فحفت أن أكون كاذباً،



وأما ما قلتَ لم تكنيَّ فإن الله سبحانه وتعالى سمى أنبياءه قال: يا داود يا يحيى يا عيسى، وكنتي أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب وتب، وأما قولك: جلست بإزائي فلإني سمعت أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إذا أردتَ أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام. فقال له: عظني قال: إني سمعت أمير المؤمنين رضي الله عنه يقول: إن في جهنم حيات كالقِلال وعقارب كالبعال، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام وخرج.

وما وقفت الفتنة عند هذا؛ فلمَّا وليَّ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْيَمَنَ قَالَ مَنْ أَفْضَلَ مَنْ بِهَا عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَعْمَلَكَ عَلَى هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الَّتِي بُجِّي. قَالَ مَا أَدْخُلُ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ. قَالَ فَأَخْرِجُوهُ إِلَى صَاحِبِ الشُّرْطَةِ فَإِنْ قَبِلَهُ وَإِلَّا فَلْيَجْلِدْهُ مِائَةَ سَوْطٍ وَيَخْلُقْ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ وَيَحْمِلْهُ فِي مَحْمَلٍ لَيْسَ تَحْتَهُ وَطَاءٌ حَتَّى يُجَاوِزَ بِهِ الْعَمَلَ كُلَّهُ. فَرَدَّ طَاوُوسُ أَفْعَلَ مَا بَدَأَ لَكَ. فَلَمَّا أُخْرِجَ إِلَى صَاحِبِ الشُّرْطَةِ أَتَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَقَالُوا لَهُ مَا الَّذِي تَصْنَعُ فَوَاللَّهِ لَئِنْ ضَرَبْتَ فَمِتَّ مِنَ الضَّرْبِ لَا يُصَلِّي عَلَيْكَ مِنْ أَحَدٍ وَمَا دَعَاكَ إِلَّا إِلَى خَيْرٍ. فَقَالَ أَمَا إِذْ رَأَيْتُمْ لِي فِي ذَلِكَ فَقَدْ قَبِلْتُ وَخَرَجْتُ فَكَانَ فِيهَا كَانَ فِيهِ. ثُمَّ

قَدِمَ فَقَالَ ابْنُ يُوسُفَ أَيْنَ جَبَائِيتُكَ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْكَ مَالٌ عَظِيمٌ؟  
 قَالَ ذَهَبَ فِي وُجُوهِهِ. قَالَ وَمَنْ أَمَرَكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ كَمْ بَقِيَ  
 مَعَكَ؟ قَالَ ثَلَاثُونَ دِينَارًا لَمْ أَجِدْ لَهَا مَوْضِعًا أَرْضَاهُ لِأَصْرَفِهِ فِيهَا. فَقَالَ ابْنُ  
 يُوسُفَ لَئِنْ لَمْ تَحْضِرْنِي بِالْمَالِ كُلِّهِ غُدُوَّةً لَأَرْفَعَنَّ خَشْبَتَكَ. فَخَرَجَ فَلَمَّا كَانَ  
 مِنَ الْعَدِ دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ مَاذَا أَحْضَرْتَ مِنَ الْمَالِ؟ قَالَ قَدْ أَخْبَرْتُكَ أَنَّ  
 الْمَالَ ذَهَبَ فِي وُجُوهِهِ. قَالَ وَكَمْ دَكَرْتَ أَنَّهُ بَقِيَ مَعَكَ؟ قَالَ ثَلَاثُونَ دِينَارًا لَمْ  
 أَجِدْ لَهَا مَوْضِعًا أَرْضَاهُ فَأَنْفَعَهَا فِيهِ. فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ ثُمَّ عَاوَدَهُ وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ  
 النَّاسِ عِنْدَهُ.

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بَعَثَ طَاوُوسَ عَلَى الصَّدَقَةِ وَكَانَ طَاوُوسُ يَأْتِي إِلَى أَهْلِ  
 الْأَمْوَالِ فَيَقُولُ لَهُمْ تَصَدَّقُوا بِمَا آتَاكُمْ اللَّهُ فَإِذَا أَخَذَ الصَّدَقَةَ قَالَ هَلْ فِيكُمْ  
 فَقِيرٌ؟ فَإِذَا قَالُوا نَعَمْ فَسَمَّهَا بَيْنَهُمْ فَرَجَعَ وَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ فَقِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ  
 يُوسُفَ إِنْ طَاوُوسٌ لَمْ يُورِدْ مِنَ الصَّدَقَةِ شَيْئًا فَأَرْسَلْ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ فَقَالَ أَخَذْتُهَا  
 مِنَ الْأَعْيَاءِ وَوَضَعْتُهَا فِي الْفُقَرَاءِ فَحَبَسَهُ فِي الْحَبْسِ وَكَتَبَ إِلَى الْحُجَّاجِ بِحَبْرِهِ  
 فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحُجَّاجُ أَخْرِجْهُ مِنَ السَّجْنِ وَارْجِعْ إِلَى أَهْلِ الصَّدَقَةِ فَخَذَهَا  
 مِنْهُمْ.

## شبيه إبراهيم الخليل

ريحانة أهل الشام وسيد التابعين وزاهد العصر أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب. قدم من اليمن وقد أسلم في أيام النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقابله، فدخل المدينة في خلافة الصديق، وقالوا انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين منهم أبو مسلم الخولاني. وكان يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان ويقول: اذكر الله حتى يرى الجاهل أنك مجنون. وقال له قائل حين كثر ورق: لو قصرت عن بعض ما تصنع. فقال: أرايتم لو أرسلتم الخيل في الحلبة أستم تقولون لفرسها دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم الغاية لم تستبقوا منها شيئاً؟ قالوا: بلى قال: فإني قد أبصرت الغاية وإن لكل ساعة غاية، وغاية كل ساعة الموت، فسابق ومسبق. وكان يقول: لو رأيت الجنة عياناً ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عياناً ما كان عندي مستزاد.

ومن شدة حرصه على دينه أنه لم يكن يجالس أحداً يتكلم في شيء من أمر الدنيا إلا تحول عنه، فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا، فطمع أن يكونوا على ذكر الله تعالى، فجلس إليهم وإذا بعضهم يقول: قدم غلامي فأصاب كذا وكذا. وقال آخر: جهزت غلامي، فنظر إليهم وقال: سبحان الله أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثّل رجل أصابه مطر غزير وابل

فالتفت فإذا هو بمصرعين عظيمين فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب هذا المطر، فدخل فإذا البيت لا سقف له. جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير فإذا أنتم أصحاب دنيا.

وقد دخل أبو مسلم على معاوية فقام بين الولاة فقال السلام عليك أيها الأجير فقالوا ماذا تقول؟ قال معاوية دعوه فهو أعرف بما يقول وعليك السلام يا أبا مسلم. وكان الولاة يتيمنون بأبي مسلم ويؤمرونه على مقدمة الجيش.

وكان من غربته وفتنته التي نجاه الله منها أن الأسود ذي الحمار تبنأ باليمن فدعا أبا مسلم الحولاني فقال: اشهد أباي رسول الله. قال لا أسمع. قال اشهد أن محمدا رسول الله قال نعم. فأمر بنار ففذف فيها فخرج أبو مسلم يرشخ عرقا فقيل للأسود ذي الحمار انه من بلادك وإلا أفسد عليك الناس. فأخرجوه ثم قدم المدينة وبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقال له عمر من أين أقبل الرجل؟ قال من اليمن. قال ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوب. فقال له عمر أنشدك بالله أنت هو؟ قال نعم فأدخله عمر وأجلسه بينه وبين أبي بكر وقال الحمد لله الذي أراني في هذه الأمة من فعل به مثل ما فعل بإبراهيم خليل الرحمن.

## الإمام الذي بكى من الفرح

كان فقيه أهل الكوفة، صيرفي الحديث، من كبار التابعين وكان يصوم يوماً ويُفطر يوماً. أدرك جماعة من الصحابة وأكثر روايته عن علماء التابعين وكان زاهداً لا يُدرى أهو من الفقراء أو من القراء. أحد الأئمة المشاهير ومن كبار التابعين. تعرض للغربة بسبب خصومة بينه وبين الحجاج بن يوسف الثقفي ترتب عليها طلب الحجاج باعتقاله، فهرب الإمام منه مدة من الزمن، وظل محتفياً عن الأنظار حتي بعد موت الحجاج. إنه الإمام إبراهيم النخعي رضي الله عنه.

وذلك أن النخعي أنكر علي الحجاج بعض أفعاله وبطشه وجرأته وكان يسبه، وتُقل عنه أنه كَفَّر الحجاج بتلك الأقوال والأفعال. وكان إذا ذُكر الحجاج قال: ألا لعنة الله على الظالمين. وقال: من شك في الحجاج قبحه الله.

وكان الحجاج يتوعد من يقرأ بقراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، والنخعي يقرأ بهذه القراءة. بل كان يقتل من قرأ بقراءة عبدالله، فكانوا يكتتمون بها. وقد فعل الحجاج ذلك لأن هذه القراءة كان بها اختلاف عن المصحف الجامع الذي كان معتمداً وقتها. كما أن الحجاج اتهم النخعي

بالخروج في فتنة ابن الأشعث. حيث كتب الحجاج بن يوسف إلى عامله أن يعتقل إبراهيم بن يزيد فكتب إليه عامله أن لدينا إبراهيم بن يزيد التيمي وإبراهيم بن يزيد النخعي فأيهما نأخذ؟ فكتب إليه خذهما جميعاً. فأما إبراهيم النخعي فهرب وأما إبراهيم التيمي فأُخذ فمات في السجن.

ولما بُشِّر إبراهيم بموت الحجاج سجد لله شكراً. وقالوا ما رأينا أحداً يبكي من الفرح حتى رأينا إبراهيم النخعي يبكي من فرحه على هلاك الحجاج.

## سيد علماء البصرة

الإمام القاضي المحدث التابعي من أكثر الشخصيات البارزة في عصر صدر الإسلام. سكن البصرة، وعظمت هيئته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، ولا يخاف في الحق لومة لائم. إنه الحسن بن يسار البصري رضي الله عنه.

تنقل الحسن البصري بين أكثر من مدينة حيث كان مسقط رأسه في المدينة المنورة ونشأته، إلى أن سافر إلى كابل عندما اتجهوا إلى فتحها، كما عمل كاتباً للربيع في خراسان وكان ذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان، وبعدها استقر في البصرة حتى حصل على لقبه البصري وأصبح يُعرف باسم الحسن البصري.

وكان الحسن البصري حسن الصورة، بهي الطلعة، وكان عظيم الزند، فصيحاً، وسيماً. وكان من الشجعان الموصوفين في الحروب، وكان المهلب بن أبي صفرة يقدمه إلى القتال، واشترك الحسن في فتح كابور مع عبدالرحمن بن سمرة.

ولما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق وطغى في ولايته وتجر كان الحسن البصري أحد الرجال القلائل الذين تصدّوا لطمغانه وجهروا بين الناس بسوء

فعاله وصدعوا بكلمة الحق في وجهه. ومن ذلك أن الحجاج بنى لنفسه بناء في واسط فلما فرغ منه نادى في الناس أن يخرجوا للفرجة عليه والدعاء له بالبركة. فلم يشأ الحسن أن يفوّت على نفسه فرصة اجتماع الناس هذه فخرج اليهم ليعظهم ويدكرهم ويهديهم في عرض الدنيا ويرغبهم بما عند الله عز وجل. ولما بلغ المكان ونظر الى جموع الناس وهي تطوف بالقصر المنيف مأخوذة بروعة بنائه مدهوشة بسعة أرجائه مشدودة إلى براعة زخارفه وقف فيهم خطيباً وكان في جملة ما قاله: لقد نظرنا فيما ابتنى أخصب الخبيثين فوجدنا أن فرعون شيد أعظم مما شيد وبني أعلى مما بنى ثم أهلك الله فرعون وأتى على ما بنى وشيّد. ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه وأن أهل الأرض قد غرّوه. ومضى يتدفق على هذا المنوال حتى أشفق عليه أحد السامعين من نقمة الحجاج فقال له حسبك يا أبا سعيد حسبك فقال له الحسن لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم لبيئته للناس ولا يكتمونونه.

وفي اليوم التالي دخل الحجاج الى مجلسه وهو يتميز من الغيظ وقال لجلسائه تباً لكم يقوم عبد من عبيد أهل البصرة ويقول فينا ما يشاء ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء ثم أمر بالسيف والنّطع فأحضرا ودعا بالجلاد فمثل واقفاً بين يديه ثم وجه الى الحسن



البصري بعض شرطته وأمرهم أن يأتوا به فلما حضر الحسن شخصت إليه الأبصار ووجفت القلوب فلما رأى الحسن السيف والنطع والجلاد حرك شفتيه ثم أقبل على الحجاج وعليه جلال المؤمن وعزة المسلم ووقار الداعية الى الله.

فلما رآه الحجاج على حاله هذا هابه أشد الهيبة وقال له هاهنا يا أبا سعيد هاهنا ثم مازال يوسع له ويقول هاهنا والناس ينظرون إليه في دهشة حتى أجلسه على فراشه. ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج وجعل يسأله عن بعض أمور الدين والحسن يجيبه كل مسألة بجنان ثابت وعلم واسع فقال له الحجاج أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ثم دعا بطيب وطيب به لحيته وودّعه.

ولما خرج الحسن من عنده تبعه حاجب الحجاج وقال له يا أبا سعيد لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك وإني رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع فحركت شفتيك فماذا قلت؟ فقال الحسن لقد قلت: يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي اجعل نعمته برداً وسلاماً عليّ كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

## يا منصور يا منصور

ولد عام ٧٨ هـ في المدينة المنورة، ونشأ في أحضان والده علي زين العابدين وأخيه الأكبر محمد الباقر، ودرس على يديهما العقيدة الإسلامية، وكانَ مضرب المثل في العلم والورع بشهادة أخيه الأكبر محمد الباقر، وقد تنقل بين البلاد الشامية والعراقية باحثًا عن العلم ورواية الحديث، وعن الدعوة لآل البيت مرة أخرى، ثم اتصل بواصل بن عطاء رأس الاعتزال وتدارس معه العلوم فتأثر به وبأفكاره التي انعكست على فكر الشيعة الزيدية في العقائد. إنه الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وقد ألف زيد بن علي كتابًا في الفقه والحديث اسمه المجموع الكبير، وقد كرس واصل بن عطاء عند زيد بن علي فكرة الخروج على الحاكم الظالم ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من منظور المعتزلة، ولكن زيد بن علي لم يحاول ذلك وقتها لضعف الناصر وقلة الأتباع وقوة الدولة الأموية.

ثم بدأت فكرة الثورة تراود زيد بن علي عندما كان مقيمًا في أرض العراق، حيث كان العدد الأكبر من شيعة آل البيت هناك خاصة بالكوفة، وتمثلت فرصة الثورة عندما غضب الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك على والي

العراق خالد بن عبدالله القسري بسبب وشايات وسعايات في حق خالد، فقام بعزله وكلف مكانه رجلاً من ألد أعداء خالد القسري، وهو يوسف بن عمر الثقفي وكان والياً على اليمن، وكان يجب أن يتشبه بالحجاج وكان من قرابته، فكان أول ما فعله يوسف عندما دخل العراق القبض على خالد القسري والتحفظ على كل أمواله ومحاسبته عليها، وأثناء المحاسبة ادعى البعض على خالد أنه قد أودع جزءاً من ماله وديعة عند زيد بن علي، فأرسل للخليفة هشام بذلك فألح على زيد بن علي بالتوجه إلى الكوفة ليتحقق من هذه التهمة، وذهب زيد بن علي للكوفة واستبان براءته من تلك التهمة، ولكن زيد بن علي ظل مقيماً بالكوفة لبعض الوقت ولم يعد بعد الانتهاء من القضية.

وعندما عرف الشيعة بالكوفة والعراق عمومًا أن زيد بن علي بن الحسين مقيم بالكوفة، قدموا إليه يباعونه ويقسمون بين يديه بالقتال حتى الموت ويحضونه على الخروج حتى اجتمع عنده ديوان به أسماء أربعون ألف مقاتل، وفي هذه الفترة كان يوسف بن عمر مشغولاً بمحاسبة خالد وعماله السابقين، فلم تصل له أخبار مبايعة أهل الكوفة لزيد بن علي، حتى طارت الأخبار ووصلت للخليفة هشام بن عبد الملك، فأرسل ليوسف بن عمر يوجه

ويعلمه بحركة زيد بن علي، فأخذ يوسف في البحث عن زيد والتضييف عليه  
بشتى الوسائل.

وعندها قرر زيد بن علي أن يقدّم موعد قيام الثورة فاجتمع مع مناصريه  
وأطلعهم على خطته للحركة وتسريع ميعاد الخروج، وحدد زيد بن علي موعدًا  
للخروج، وذلك يوم الأربعاء ١ صفر ١٢٢ هـ، ولكن هذا التقديم أدى  
لسهولة كشف الثورة، حيث وصلت الأخبار ليوسف بن عمر، فأمر بجمع  
أهل الكوفة جميعًا يوم الثلاثاء آخر محرم أي قبلها بيوم في الجامع الكبير،  
وأخذ يتوعد من يتخلف بالقتل وأرسل الشرطة لجمع الناس بالجامع، وخرج  
زيد ومن وافقه على مذهبه يوم الأربعاء ١ صفر ١٢٢ هـ، وأخذ يرسل بعض  
فرسانه ينادون في نواحي الكوفة بشعار الثورة: يا منصور يا منصور، ولم يجتمع  
عنده إلا ثلاثمئة وثمانية عشر رجلاً فقط، وأصر زيد بن علي على مواصلة  
الثورة والخروج.

وعندما التقى الطرفان أقبل يوسف بن عمر بجيشه، ودارت رحى حرب غير  
متكافئة، وثبت زيد ومن معه في القتال، فلما كان يوم الخميس ٢ صفر  
واصل زيد القتال بضراوة شديدة، وانكشف أمامه وابل من السهام انصبَّ  
عليه ومن معه، فأصابه سهم في جانب دماغه الأيسر، فحمله أصحابه تحت

جُنح الظلام وطلبوا له الطبيب، ولكنه ما إن نزع السهم من دماغه حتى مات، ودفنه أصحابه في حفرة من الطين ثم أجزوا عليها الماء حتى لا يعثر عليه أحد. وأمر الخليفة هشام بإخراج جثته من قبره وصلبه عريانياً، حيث بقيت جثته مصلوبة على جذع شجرة أربع سنوات، ثم أمر الخليفة بإحراقها، فكانت شهادته والتمثيل به حدثاً مروعاً هز وجدان الأمة الإسلامية، وأزكى فيها روح الثورة، وقد عجل بسقوط الحكم الأموي، إذ لم يمض على استشهاده أكثر من ١١ عاماً مليئاً بالثورات والأحداث والانتفاضات حتى انهار الحكم الأموي.

## هكذا يُطلب العلم

أدرك عمر بن عبدالعزيز. وكان من كبار الفقهاء، ولد في سنة خمس وتسعين. وما كان أحد أروع في علمه منه قال له رجل: كيف تجددك يا أبا عبدالله؟ قال: أجدني شاكياً غير شاكي الله. وقيل له: ما تقول فيمن يفضل علياً على أبي بكر؟ قال: إذن يُفتضح يقول أخطأ المسلمون. إنه القاضي شريك بن عبدالله رضي الله عنه.

قال شريك لبعض إخوانه: أكرهتُ على القضاء. وقال أحدهم لشريك: يا أبا عبدالله، عزلوك عن القضاء، ما رأينا قاضياً عُزل. فقال: هم الملوك، يعزلون ويخلعون. وقال: كنت عند شريك، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند، فسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك. فقال: كأنك تستخف بأولاد الخليفة؟ قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه. قال: فجتنا على ركبتيه، ثم سأله، فقال شريك: هكذا يُطلب العلم.

ثم تعرض شريك إلى الغربية والامتحان في دينه؛ فقد دخل يوماً على المهديّ فسَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ سَلَّمَ عَلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لَا سَلَّمَ اللَّهُ عَلَى الْأَبْعَدِ فَقَالَ وَلَمْ يَأْمُرِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِشَيْءٍ جَنَيْتُهُ أَمْ لِأَمْرٍ أَحَدْتُهُ؟ فَقَالَ السَّيْفَ

وَالنَّطْعَ. قَالَ وَلِمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَجُوزُ قَتْلِي إِلَّا عَنْ عِلْمِ تَعْلِمَنِي بِدَنِي. قَالَ رَأَيْتَ فِي مَنَامِي كَأَنَّكَ تَطَأُ بِسَاطِي وَأَنْتَ مُعْرِضٌ عَنِّي فَقَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَى مَنْ عَبَّرَهَا فَقَالَ يُظْهِرُ لَكَ طَاعَةً وَيُضْمِرُ مَعْصِيَةً. فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رُؤْيَاكَ بِرُؤْيَا الْحَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا مُعَبَّرِكَ بِيُوسُفَ الصَّادِقِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَفَبِالْأَحْلَامِ الْكَاذِبَةِ تَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَاسْتَحْيَا الْمَهْدِيَّ وَتَطَامَنَ ثُمَّ قَالَ أَخْرَجْ عَنِّي فَتَبِعَهُ سَلْمُ بْنُ سَعْدٍ فَقَالَ لَهُ مَا ظَنَنْتَ أَنَّهُ بَقِيَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَكَ نَظِيرٌ فَقَالَ لَهُ شَرِيكَ مُتَعَجِّبًا رَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنْ هَذَا يَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَحْلَامِ الْكَاذِبَةِ.

## ولدني أبو بكر مرتين

من النسل الشريف لعلي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء. وأمه هي فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وأمها هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ولهذا كان يقول: ولدني أبو بكر الصديق مرتين، وكان مولده سنة ثمانين من الهجرة. من التابعين وأخذ عنه أبو حنيفة وابن جريج وشعبة ومالك ويحيى القطان. إنه أبو عبدالله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

روى له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. وسئل الإمام أبو حنيفة عن أفضه من رأى فقال: ما رأيت أحداً أفضه من جعفر بن محمد؛ وذلك حين جاء به أبو جعفر المنصور إلى الحيرة بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيبى له من مسائلك الصعاب، فهيات له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر فأتيته بالحيرة فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه فلما بصرت بهما دخلني لجعفر من الهيبة ما لم يدخل لأبي جعفر، فسلمتُ وأذن لي فجلستُ ثم التفت أبو جعفر إلى جعفر فقال: يا أبا عبدالله، تعرف هذا؟ قال: نعم هذا أبو حنيفة قد أتانا. ثم قال: يا أبا حنيفة هات من مسائلك نسأل أبا عبدالله، وابتدأتُ أسأله وكان يقول في



المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا، فرما تابعنا وربما تابع أهل المدينة وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيتُ على أربعين مسألة ما أحرم منها مسألة، ثم قال أبو حنيفة أليس قد روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس.

وسأله سالم بن أبي حفصة عن أبي بكر وعمر فقال: يا سالم توهُمَا وأبرأ من عدوهُمَا فإنهما كانا إمامي هُدى ثم قال جعفر: يا سالم أيسبُ الرجل جدّه؟ أبو بكر جدي لا نالتني شفاعة محمد يوم القيامة إذا لم أكن أتولهما وأبرأ من عدوهُمَا. وكان يقول: إذا بلغك عن أخيك ما يسوؤك فلا تغتم فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة عُجِّلَت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.

وكانت غربته وفتنته التي نبأه الله منها أنّ أبا جَعْفَرٍ الْمَنْصُورَ بَعَثَ فِي طَلَبِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ فَأَتِي بِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَدِينَةِ. فَأَتَى الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ حَاجِبُ أَبِي جَعْفَرٍ فَقَالَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُتَعَيِّظٌ عَلَيْكَ. فَدَخَلَ وَهُوَ يُحْرِكُ شَفَتَيْهِ. فَلَمَّا رَأَهُ أَبُو جَعْفَرٍ هَضَّ إِلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ ثُمَّ عَانَقَهُ وَقَالَ لَهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي يَبْلُغُنِي عَنْكَ لَقَدْ هَمَمْتُ... فقاطعه جعفر وقال له يا أمير المؤمنين إنَّ أَيُّوبَ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ وَإِنَّ سُلَيْمَانَ

أَعْطِي فَشَكَرَ وَأَنْتَ مِنْ ذَلِكَ النَّسِيجِ. فَقَالَ الْمَنْصُورُ: بَلِغْنِي أَنَّ الْأَمْوَالَ تُجْحَى  
إِلَيْكَ بِلا سَوْطٍ وَلَا عَصَا. ثُمَّ أَمَرَ بِمَنْ أَبْلَغَهُ فَأَحْضَرَهُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحَقًّا  
مَا بَلَّغْتَ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ نَعَمْ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ اسْتَحْلِفْهُ يَا أَمِيرَ  
الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ احْلِفْ فَقَالَ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. فَقَالَ لَهُ  
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْسَ هَكَذَا تَحْلِفُ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا بَجَدَ اللَّهَ فِي يَمِينِهِ  
أَمَهَلَهُ بِالْعُقُوبَةِ وَلَكِنْ قُلْ أَنَا بَرِيءٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَرِيءٌ مِنِّي وَأَنَا خَارِجٌ مِنْ حَوْلِ  
اللَّهِ وَقُوَّتِهِ رَاجِعٌ إِلَى حَوْلِ نَفْسِي وَقُوَّتِهَا. فَقَالَ فَوَاللَّهِ مَا خَرَجَ إِلَّا مَيْتًا فَرَاعَ  
ذَلِكَ أَبَا جَعْفَرَ وَقَالَ انصَرِفْ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَلَسْتُ أَسْأَلُكَ بَعْدَهَا عَنْ شَيْءٍ.  
فَخَرَجَ جَعْفَرٌ وَتَبِعَهُ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ فَسَأَلَهُ مَا الَّذِي كَانَ يُحْرِكُ بِهِ شَفَقَتِيهِ؟  
فَلَمْ يُجِبْهُ. فَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ عَمَّا قَالَ فَقَالَ قُلْتُ: اللَّهُمَّ بِكَ اسْتَفْتَحُ  
وَبِكَ اسْتَسْتَجِبُ وَبِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّوَجَّهْتُ، اللَّهُمَّ ذَلَّلْ لِي  
حُزُونَتَهُ وَكُلَّ حُزُونَتِي، وَسَهِّلْ لِي صُعُوبَتَهُ وَكُلَّ صُعُوبَتِي، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي مِنْهُ مِنَ  
الْخَيْرِ مَا أَرْجُو وَاصْرِفْ عَنِّي مِنْهُ مِنَ الشَّرِّ فَوْقَ مَا أَحْذَرُ فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ  
وَتُثَبِّتُ وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ.

## شريف بني هاشم

ولد بالمدينة في حدود سنة ٣٠ هـ، وكان جواداً زاهداً، ممدوحاً كبير القدر، تولى الصدقات بالمدينة، وتوفي بين مكة والمدينة وهو ابن تسعين سنة، وحُمل إلى المدينة ودفن بالبقيع سنة ١٢٠ هـ، وهو والد أمير المدينة الحسن بن زيد. إنه زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

روى عن أبيه وعبدالله بن عباس، وكان معدوداً في العلماء الثقات، وقد كتب عمر بن عبدالعزيز: إن زيد بن الحسن شريف بني هاشم فأدوا إليه صدقات رسول الله. وكان جليل القدر، كريم الطبع عفيف النفس، كثير البر، ومدحه الشعراء، وقصده الناس من الآفاق لطلب فضله، وكان يلي صدقات رسول الله صلى الله عليه. ومات وله تسعون سنة.. ولم يدع الإمامة ولا ادعائها له مدع من الشيعة ولا غيرهم. وكان مسلماً لبني أمية، ومتقلداً لهم الأعمال وتحلف عن عمه الحسين يوم كربلاء، فلم يخرج معه إلى العراق، وبايع بعد قتل عمه الحسين، عبدالله بن الزبير لأن أخته كانت زوجة لعبدالله بن الزبير.

وكانت غربته وفتنته أن الوليد بن عبدالمالك في خلافته كتب إلى زيد بن الحسن بن علي يسأله أن يبايع لابنه عبدالعزير بن الوليد ويخلع سليمان بن

عبدالمَلِكِ. فحاف زَيْدٌ مِنَ الْوَلِيدِ وَكَانَ غَلِيظًا وَرَدَّ عَلَى كِتَابِهِ بِالْمُوَافَقَةِ. فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ سُليْمَانُ وَحَدَّ كِتَابًا مِنْ زَيْدٍ إِلَى الْوَلِيدِ فَكَتَبَ سُليْمَانُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بْنِ حَزْمٍ وَهُوَ أَمِيرُ الْمَدِينَةِ أَنْ ادْعُ زَيْدَ بْنَ الْحَسَنِ فَأَقْرِئْهُ هَذَا الْكِتَابَ، فَإِنْ عَرَفَهُ فَاكْتُبْ إِلَيَّ بِذَلِكَ، وَإِنْ هُوَ أَنْكَرَ فَقَدِّمُهُ فَأَطْهَرُ يَمِينَهُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ مَا كَتَبَ هُوَ الْكِتَابَ وَلَا أَمَرَ بِهِ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ حَزْمٍ فَأَقْرَأَهُ الْكِتَابَ فَقَالَ أَنْظِرْنِي مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْعِشَاءِ لِأَسْتَحِيرَ اللَّهَ. وَأَرْسَلَ زَيْدُ بْنُ الْحَسَنِ إِلَى الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَسْتَشِيرُهُمَا وَقَالَ إِنِّي كَتَبْتُ هَذَا الْكِتَابَ أَفْتَرُونَ أَنْ أَحْلِفَ بِأَبِي مَا كَتَبْتُ؟ قَالُوا لَهُ لَا تَحْلِفْ وَلَا تُبَارِزِ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَقَدْ نَرَجُو أَنْ يُنَجِّيكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالصِّدْقِ. وَأَقْرَأَ بِالْكِتَابِ وَلَمْ يَحْلِفْ فَكَتَبَ بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى سُليْمَانَ فَكَتَبَ سُليْمَانُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يَضْرِبَهُ مِائَةَ سَوْطٍ وَيَلْبِسَهُ عِبَاءَةً وَيُمَشِّئَهُ حَافِيًا. فَحَبَسَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الرَّسُولَ فِي عَسْكَرِ سُليْمَانَ وَقَالَ لَا تَخْرُجْ حَتَّى أُكَلِّمَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا كَتَبَ فِي زَيْدِ بْنِ الْحَسَنِ، لَعَلِّي أَسْتَطِيبُ نَفْسَهُ فَيَتْرُكَ هَذَا الْكِتَابَ وَحُبْسَ الرَّسُولِ. وَمَرِضَ سُليْمَانُ فَقَالَ عُمَرُ لَزَيْدٍ لَا تَخْرُجْ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَرِيضٌ. إِلَى أَنْ مَاتَ سُليْمَانُ وَصَارَتِ الْخِلاَفَةُ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَدَعَا بِالْكِتَابِ فَحَرَقَهُ.

## الخطيب البغدادي

كان من العلماء العاملين، الذين لهم قَصَبُ السَّبْقِ، وَقَدَمَ رَاسِخَةً فِي نَشْرِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَكَانَ عَاطِلًا لِلْمُحَدِّثِينَ وَصَاحِبَ التَّصَانِيفِ الْفَائِئِقَةِ غَيْرِ الْمَسْوُوقَةِ، وَأَمَّتْ بِهِ مَحَنَةٌ قَاسِيَةٌ بِسَبَبِ جُهُودِهِ فِي نَشْرِ السَّنَةِ وَصَحِيحِ الدِّينِ وَالتَّأْرِيخِ لِلْأُمَّةِ وَحَضَارَتِهَا وَرِجَالِهَا، عِنْدَمَا هَاجَمَهُ خُصُومُهُ وَقَدَحُوا فِي مَكَانَتِهِ وَذَمُّوا فِي عِلْمِهِ وَطَارِدُوهُ وَشَرَدُوهُ وَحَاطَلُوا تَصْفِيَتَهُ جَسَدِيًّا وَمَعْنَوِيًّا. إِنَّهُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ثَابِتِ الْمَعْرُوفِ بِالْإِمَامِ الْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتتلخص أسباب المحنة التي تعرض لها في معارضته للمد الرافضي الذي صارت له أمور الحكم في وقته، ولما كانت لهؤلاء السلطة والغلبة ظلوا يبحثون عن العلماء الذين ناصبهم العدا، وطعنوا فيهم، وكان من أشهر من فضحهم وبيّن فسادهم الإمام الخطيب البغدادي.

ولما كثرت مطاردته خرج من بغداد متخفياً قاصداً دمشق حيث استقر بها ولقي من الناس ترحيباً وإقبالاً علي مجالسه، لكن والي دمشق كان من الفاطميين وأراد الإيقاع بالإمام الخطيب ولا يريد أن يواجهه لعلمه بمحبة الناس له، فاحتال حيلة خبيثة وصنع مكيدة ذنيئة فأشاع عنه ما هو بريء

منه؛ وذلك أنه كانت قراءته حسنة جهوري الصوت، وذلك في أيام الدولة العبيدية، والأذان بدمشق كان بحيّ على خير العمل، فضاقوا منه، وتكلموا في عرضه بما ليس فيه، وتعصب عليه والي البلد، وأراد قتله، ثم اتفق الحال على نفيه، فذهب إلى صور.

وقد استغل الرافضة تهمه باطلة رَوَّجها خصوم الخطيب عنه عندما كان في دمشق، فقد تكلم بعضهم أن الخطيب كان يَختلف إليه صبي مليح، وكان أمير البلد رافضيًا متعصبًا، فبلغته القصة، فجعل ذلك سببًا للفتك به، فأمر صاحب شرطته أن يأخذ الخطيب بالليل ويقتله. وكان صاحب الشرطة سنّيًّا، فقصدته تلك الليلة مع جماعة ولم يمكنه أن يخالف الأمير فأخذه، وقال: قد أمرت فيك بكذا وكذا، ولا أجد لك حيلةً إلا أني أعبرك عند دار الشريف ابن أبي الجن العلوي، فإذا حاذيت الباب فاقفز وادخل الدار، فإني لا أطلبك، وأرجع إلى الأمير فأخبره بالقصة. ففعل ذلك، ودخل دار الشريف، فأرسل الأمير إلى الشريف أن يبعث به، فقال: أيها الأمير، أنت تعرف اعتقادي فيه وفي أمثاله، وليس في قتله مصلحة، هذا مشهور بالعراق، إن قتلته قُتل به جماعة من أصحابنا، وخربت المشاهد. قال: فما ترى؟ قال: أرى أن يخرج من بلدك. فأمر بإخراجه إلى صور، وبقي بها مدة.

وعلى نهج علماء الأمة الغرباء في كثير من ابتلاءات الله لهم يخرجون منها أشداء أقوياء فقد كانت هذه الغربة التي اضطر إليها الإمام الخطيب منحة جليلة للأمة كلها إذ كانت سبباً في انقطاعه عن الناس، وتفرغه للكتابة والتأليف، مما أنتج تلك المؤلفات النافعة للأمة في علوم الشريعة عامة وعلوم الحديث خاصة فرحم الله الإمام وأجزل له المثوبة وأحقه بالصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

## ضحية الروافض

صاحب المؤلفات العظيمة ومن أشهرها تلبيس إبليس، كان من نسل شريف فجدّه العاشر هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه. إنه الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه.

وقد عاش الإمام ابن الجوزي غربة عظيمة في أواخر عمره بعد أن قارب الثمانين من العمر، وذلك بسبب ما كان بينه وبين الرافضة من مناظرات ومناقشات فقد كان لهم بالمرصاد. وتبدأ هذه الغربة حين عقد الوزير ابن يونس الحنبلي مجلساً للرّكن عبدالسلام بن عبدالوهاب بن عبدالقادر الجيلاني وهو حفيد الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وكان أبناء الشيخ عبدالقادر وأحفاده يبغضون الإمام ابن الجوزي بشدة بسبب رأيه في الشيخ عبدالقادر وانتقاده الدائم له، وكان الرّكن عبدالسلام أشدّهم كراهية لابن الجوزي، وكان رديء المعتقد، على مذهب الفلاسفة، شروباً للخمر، فأفتى ابن الجوزي بحرق كتبه فأحرقت، وانتزع الوزير ابن يونس منه مدرسة جدّه عبدالقادر الجيلاني، وسلمها إلى ابن الجوزي. فلما ولي الوازرة ابن القصاب وكان رافضياً سعى في القبض على ابن يونس، وتتبع أصحابه، فقال له الركن عبدالسلام: أين أنت عن ابن الجوزي النَّاصبي؟ فإنه ناصبي ومن أولاد أبي بكر الصديق، فهو من



أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتيبي بمشورته. فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله وكان الناصر له ميل إلى الرافضة ولم يكن له ميل إلى الشيخ أبي الفرج، بل كان يقصد أذاه، فأمر بتسليمه إلى الركن عبدالسلام، ف جاء الركن إلى دار الشيخ وشتمه، وأغلظ عليه وختم على كتبه وداره، وشتت عياله.

فلما كان في أول الليل حُمِلَ في سفينة، وليس معه إلا عدوه الركن، وَعَلَى الشيخ ابن الجوزي غلاظةً بلاً سراويل، وَعَلَى رأسه تخفيقة، وقد كان ناظر واسط رافضياً فقال له الركن مكّي من هذا الفاعل لأرميه في مطمورة. ولما حضروا إلى واسط جمع الناس، وادعى ابن عبدالقادر على الشيخ: أنه تصرف في وقف المدرسة، واقتطع من مالها كذا وكذا، وكذب فيما ادعاه، وأنكر الشيخ، وصدق وبر، وسجن الشيخ في دار بدرب الديوان بواسط، وأقام بها في غربة خمس سنين يخدم نفسه بنفسه، ويغسل ثوبه ويطبخ، ويستقي الماء من البئر، ولا يتمكن من الخروج إلى حمّام ولا غيره وقد قارب الثمانين.

وكان السبب في خلاص الشيخ من هذه الغربة أن ولده يوسف نشأ واشتغل بالعلم والوعظ في هذه المدة واجتهد حتى توصل إلى أم الخليفة وأخبرها بما أصاب والده الشيخ الجليل فأمرت بإطلاق سراحه.

وأطلق سراحه بعد توسط أم الخليفة، وعاد إلى بغداد، ولما قدم إلى بغداد خرج خلق كثير يوم دخوله لتلقيه، وفرح به أهل بغداد فرحاً شديداً، ونودي له بالجلوس يوم السبت، وأذن له الخليفة في الوعظ وحضر مجلسه بنفسه، ولم يزل الشيخ على عادته الأولى في الوعظ، ونشر العلم وكتابه إلى أن مات بعد مدة قصيرة من عودته في منتصف شهر رمضان.

وفي هذه الغربة أمضى الإمام ابن الجوزي السنوات الخمس عاكفاً على قراءة القرآن الكريم بالقراءات العشر، وأبدى همّة عالية في ذلك، حتى أتم حفظ القراءات العشر وهو في الرابعة والثمانين من العمر.

## الحافظ المقدسي

ومن الغرباء الحافظ عبدالغني المقدسي صاحب كتاب عمدة الأحكام، ولد في نابلس من بيت المقدس سنة ٥٤١، ولكنه سرعان ما انتقل مع أسرته من بيت المقدس إلى دمشق. وإليه انتهى حفظ الحديث متناً وإسناداً، ومعرفة بفنونه مع الورع والعبادة والتمسك بالأثر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد تعرض الحافظ المقدسي للغربة كثيراً كما تعرض لها أحمد بن حنبل من قبل، ولكن بصورة تختلف قليلاً، فكلاهما أودي بسبب ثباته على العقيدة الصحيحة وتمسكه بمذهب التابعين وعقيدة أهل السنة والجماعة. وكما كان خصم الإمام أحمد في محنته المعتزلة الذين كانت لهم دولة وصولاً أيام خلافة المأمون والمعتصم والواثق بني العباس، كان خصم الحافظ عبدالغني في محنته الأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري والأشعري منهم بريء. فقد ظلت عقيدة الأشعري في بداية الأمر عقيدة مهجورة متروكة، وأخذ يحذر منها بعض أهل العلم وينهى عنها أرباب السلوك ويأمر بلعنها على المنابر السلطين، وظلت هذه العقيدة هكذا حتى أيام الوزير نظام الملك الذي احتضن أتباع الأشعري وفتح لهم المدارس في بغداد وأرجاء العراق. وعندها تعرض الحافظ عبدالغني لحملة كبيرة وقاسية من جانب الأشاعرة في كل موطن وبقعة زارها، نظراً

لعلمه الواسع واجتماع طلبه العلم عليه وأيضاً نظراً لحدته وصرامته عند النقاش.

وعندما دخل الحافظ عبدالغني أصبهان لسماع الحديث وإسماعه عدة مرات وكانت أصبهان من المحطات الرئيسة التي يجب لكل طالب علم الحديث أن يدخلها، وخلال زيارته المتكررة لأصبهان كوّن العديد من التلاميذ والطلبة، وقد طالع المقدسي خلال إقامته بأصبهان كتاب أسماء الصحابة للحافظ أبي نعيم وهو من كبار علماء الأشاعرة، فاستدرك عليه في مائتين وتسعين موضعاً، فثارت ثورة الأشاعرة في أصبهان وسعوا إلى رئيس البلد وهو الصدر الخجندي وكان أشعرياً متعصباً لأبي نعيم، فطلب الحافظ وأراد قتله، فاختفى المقدسي وتحايل تلاميذه حتى أخرجوه خفية من أصبهان قبل أن يصل إليه الأشاعرة.

وخلال رحلة الحافظ العلمية دخل مدينة الموصل العراقية وجلس في جامعها الكبير وأخذ في تدريس كتاب الضعفاء للعقيلي، وعندما وصل لذكر أبي حنيفة النعمان وكلام العقيلي عن ضعفه من جهة الحفظ، ثار أهل البلد وكانوا من الأحناف وحبسوه وقرروا قتله ولكن صديقه الواعظ ابن البرنس أنقذه بحيلة ذكية فأطلقوا سراحه.

ثم كان الحافظ يجلس في الجامع الأموي بدمشق لقراءة الحديث في رواق الحنابلة، وكان درسه مليئًا بالوعظ والذكر والبكاء من خشية الله فاجتمع عليه الناس، وازدحموا على حلقاته فأكلت العيرة قلوب الأشاعرة أمثال القاضي ابن الزكي والخطيب الدولعي وطلبوا المناظرة منه بين يدي والي البلد واسمه برغش، وفي المناظرة احتد الحافظ عليهم واشتد بعد أن علت حجته حجته فما كان من الأمير برغش إلا أن أمر بنفيه من دمشق، فدعا الحافظ على من ظلمه وشرده.

وبعد ما حدث للحافظ من محن على يد أشاعرة دمشق، خرج منها إلى بعلبك فأقام بها مدة، فقال له أهلها: إن اشتهيت جئنا معك إلى دمشق نؤذي من آذاك فرفض الحافظ حرصًا على السلامة وعدم إثارة أذى فتنة بين المسلمين، ثم توجه الحافظ إلى مصر وأخذ في التحديث والتدريس فلم يعجب ذلك أشاعرة دمشق هناك الذين لم يكونوا ليرضوا بأي شيء سوى قتل الحافظ أو نفيه ومنعه من نشر العقيدة السلفية، فأرسلوا بالعديد من الفتاوى إلى حاكم مصر وهو الملك عماد الدين بن السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبي تُشنع ضد الحنابلة عمومًا والحافظ عبدالغني المقدسي خصوصًا، وترميهم بالتحسيم والتشبيه والزندقة، وهكذا حتى عزم عماد الدين على طرد

الحنابلة من كل أنحاء مصر والتنكيل بهم، ولكنه مات قبل أن ينفذ عزمه، فعظم بعد ذلك الحنابلة في أعين الناس، ثم أخذ الأشاعرة في تأليب الملك العادل وولده الأمير الكامل محمد ضد المقدسي، وبالغ بعض الأشاعرة فأفتوا بكفره وإباحة دمه، فضاق الأمر بشدة على المقدسي وتكاثرت عليه الهموم والعلل وهو في كل يوم يترقب من يؤذيه ويسعى فيه حتى مات في القاهرة غريباً طريداً محارباً لاجئاً وهو دون الستين.

## مجدد المائة الثالثة عشرة من الهجرة

ومع عالم جليل آخر ممن تعرضوا لغربة العلم وهو الإمام الكبير والمجتهد المطلق وقاضي قضاة اليمن ومجدد المائة الثالثة عشرة من الهجرة، المحدث المفسر المؤرخ، صاحب التصانيف السائرة والمؤلفات النافعة ومن أشهرها نيل الأوطار، وسبل السلام، إنه الإمام الشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبدالله بن الحسن الشوكاني الذي ولد في بلدة شوكان جنوب صنعاء. وقد تركزت غريته العلمية التي مر بها في تصديه لجملة من الأفكار الخاطئة عند الزيدية (المذهب السائد وقتئذ) فناصره العداة وترصدوا له السبل وحاكوا له الدسائس وأشاعوا في حقه الوشائيات.

وكانت طريقة الشوكاني في الرد علي مخالفه منهجية علمية شأن العلماء المجتهدين، وكان يؤلف الكتب والرسائل في إحقاق الحق وإبطال الباطل. ومن ذلك أنه ألفت كتاب (السييل الجرار في نقض كتاب حدائق الأزهار) وهو كتاب الفقه المعتمد عند الزيدية الذي لا يعرفون غيره، وبين زيف كثير من آرائه وأقواله. وكتاب (وبل الغمام في نقض كتاب شفاء الأوام) وهو من أهم كتب الحديث عند الزيدية واستغنوا به عن سائر كتب الحديث المعتمدة، واقتصر مؤلفه على الأحاديث التي رواها بسنده إلى آبائه من أهل البيت.

فكشفت الشوكاني كذب معظم أحاديث ذلك الكتاب بالحجج العلمية والدلائل الشرعية.

وفي سنة ١٢٠٨ هـ ألف العلامة الشوكاني رسالته الشهيرة (إرشاد الغيبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي) وذكر فيها أقوال أعيان وعلماء أهل البيت وحدهم في الصحابة وعقيدتهم في الترضي عليهم جميعاً، وعندها ثارت نائرة الرفض في زبديفة اليمف وصالوا وجالوا، وتعصبوا على الشوكاني وردوا عليه بقراءة العشرين رسالة نقلوها نصاً وحرفاً من كتب الرافضة الإمامية، واشتغل الناس بذلك أياماً وزاد الشر وعظمت الفتنة.

ثم أخذت الغربية والحرب زحماً كبيراً بقيام أحد شيوخ الشوكاني وكان معروفاً بعلم الكتاب والسنة ومنه تعلم الشوكاني الكثير، قام ذلك الشيخ بتأليف رد كبير على رسالة الشوكاني حشاه بكلام الرافضة الإمامية والمجازفات الباطلة التي يعلم ذلك الشيخ نفسه قبل الشوكاني أنها أكاذيب باطلة، ولقد حزن الإمام الشوكاني بشدة من فعل شيخه، الذي اتضح بعد ذلك أن السر وراءه خوف ذلك الشيخ من سطوة أحد وزراء الدولة عليه بعد أن هدده وتوعده إن لم يفعل، فأثر ذلك الشيخ رضا الطاغية على قول الحق، فما ضر إلا



نفسه التي جنى عليها بالتعرض لمقام الصحابة بالسب والشتم فضلاً عن كتم العلم وخذلان العلماء الربانيين.

ثم كانت للإمام الشوكاني محنة أخرى وغربة أشد مع الحوثي الكذاب، والحوثي هذا هو يحيى بن محمد الحوثي من أهل صنعاء كان يجيد علوم المساحة والحساب، ولا يعرف غيرها وكانت فيه غفلة وسلامة صدر كما كان فقيراً كثير العيال، وقد تسبب هذا الرجل في فتنة عظيمة بصنعاء في شهر رمضان سنة ١٢١٦هـ، وأزمة هائلة كاد يهلك فيها الإمام الشوكاني وغيره من أهل العلم العاملين. وكانت بداية ذلك عندما قام بعض أهل الدولة ممن يعتقدون بالرفض ويتظاهر بذلك مع الجهل المفرط، قام ذلك الخبيث بإقناع «الحوثي» بإلقاء بعض الدروس في مسجد صلاح الدين، فجلس الحوثي وشرع في إلقاء كتاب «تفريج الكرب» وهو في مناقب الإمام علي رضي الله عنه، ولم يتوقف الحوثي عند شرح الكتاب، بل جاوز ذلك بسب السلف وشتم الصحابة، ووجد ذلك الأمر صدى عند روافض اليمن، فاجتمعوا بالآلاف في المسجد حتى ضاق بهم المسجد، وهم يتجاوبون مع الحوثي في السب والشتم. ثم أراد الحوثي أن ينتقل بدرسه من مسجد صلاح الدين إلى جامع صنعاء الذي هو مجمع الناس ومحل التعليم والعلماء، وذلك من أجل نشر

اللعن والشتيم من الفكر الرافضي، فلما بلغ ذلك الأمر حاكمَ اليمن وقتها أصدر أوامره بمنع الحوثي من الجلوس في جامع صنعاء، فلما علمت العوام ثارت غضبتهم ونفخ في نارها شياطين الإمامية وجهلة المتفكحة ومنعوا الناس من صلاة الجماعة، وخرجوا للشوارع وهم ألوف يصرخون باللعن والسب والشتيم للصحابة والتابعين وخير القرون. وتوجهت القطعان الغاضبة الثائرة نحو بيوت علماء أهل السنة وذلك للفتك بهم، وعلى رأس هؤلاء كان بيت الإمام الشوكاني وهو في نفس الوقت قاضي القضاة، وكان وقتها في مجلس علم يشرح فيه نيل الأوطار مع جماعة من العلماء وطلبة العلم، وحاولوا اقتحام الدار وقتل من فيها، وكذلك فعلوا مع سائر بيوت العلماء ومدارسهم، لولا فضل الله عز وجل وحده، ثم التدخل السريع لحاكم اليمن وقتها لهلك الشوكاني ومعه أعيان علماء اليمن في تلك المحنة والفتنة.

## لا أدخلها والظاهر فيها

كانت مواقف شيخ الإسلام العلامة المحدث الفقيه يحيى بن شرف النووي سبباً فيما تعرض له من غربة وعداوة في مواجهة الملوك والجبابرة بالإنكار، فلم تكن تأخذه في الله لومةً لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب إليهم يخوفهم بالله تعالى. ومن المواقف التي حدثت في زمانه وترتب عليها نفيه من دمشق ما نُقل أن الظاهر يبهرس لما أراد قتال التتار بالشام أخذ الفتاوى من العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه. فقال: هل بقي أحد؟ فقليل له: نعم بقي الشيخ محيي الدين النووي فطلبه فحضر. فقال له: اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع. قال: ما سبب امتناعك؟ فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرّق للأمير بندقدار وليس له مال، ثم من الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك، كل مملوك له كثير من الذهب وعندك مائتا جارية، لكل جارية صندوق من الحلبي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالثياب بدلاً من الذهب، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلبي، أفتيتك عندها بأخذ المال من الرعية، فغضب الظاهر من كلامه. وقال: اخرج من بلدي يعني دمشق فقال: نعم وخرج إلى نوى. فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ومن

يُقتدى به، فأعدّه إلى دمشق، فأمر برجوعه، فامتنع الشيخ، وقال: لا أدخلها  
والظاهر فيها، فمات الظاهر بعد شهر.

## أول الأئمة الأربعة

الإمام المقدم، وفقهه الإسلام، وعالم العراق، وأستاذ مدرسة الرأي، أبو حنيفة النعمان بن ثابت المولود سنة ٨٠هـ بالكوفة وكان الإمام الأول في ترتيب الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، القائمة حتى وقتنا الحاضر؛ لذلك لقبوه بالإمام الأكبر والأعظم، برغم وجود علماء فحول في زمانه وقبله، ربما يفوقونه علمًا ورواية.

ولما مات حماد بن أبي سليمان سنة ١٢٠هـ جلس أبو حنيفة مكانه في حلقة الدرس بجامع الكوفة، وكان وقتها في الأربعين من عمره، وقد بلغ حد الكمال العلمي والذهني، فتصدر وهو كهل، وكان تاجرًا يعمل في بيع الحرير، فإذا قضى حاجته من التجارة جلس للعلم والتدريس والإفتاء، حتى فاق أهل زمانه جميعًا، وصار علمًا مقدّمًا في الفقه وغيره، وقد أرسى دعائم مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي، وصار أستاذ القياس الأول بلا منازع.

لم يكن الإخلاص وحده، أو الإعراض عن الدنيا ومناصبها وزخارفها ما يميز الإمام أبا حنيفة، بل كان من رجال الكمال في العلم والعمل، موصوفًا بكل فضل؛ فلقد كان عالمًا عاملاً، جمع بين العلم والعبادة، فكان يصلي

العشاء والصبح بوضوء واحد أغلب حياته، يطيل الصلاة جدًّا مع الخشوع والسكينة، حتى لُقّب بالوتد لطول صلاته، وكان ممن قرأ القرآن كله في ركعة كما فعل ذلك من قبل ذو النورين عثمان رضي الله عنه، وكان يجيبي ليله كله تضرعًا ودعاءً، وقد تواتر هذا الأمر عند أهل زمانه جميعًا، أما في مجالسه فكان حليمًا وقورًا هيوّبًا، لا يتكلم إلا جوابًا، ولا يخوض فيما لا يعنيه، كافيًّا لسانه عن النيل من خصومه الذين كانوا يطيلون الكلام فيه بسبب الرأي، معرضًا عن زلات الآخرين، لا يجاري أحدًا فيما لا ينفع ولا يُغني، وقد جعل على نفسه إن حلف بالله صادقًا أن يتصدق بدينار، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها، ويكثر من الإنفاق على إخوانه وتلاميذه، بل وأهالي تلاميذه.

وكان أبو حنيفة ورعًا تقيًّا، متحررًا من مواطن الشبهة والمظنّة، ولعل هذا الورع الذي أورثه محنته التي مات فيها رحمه الله، ولقد قال له رجل يومًا: اتق الله، فانتفض واصمّر وأطرق، وقال: جزاك الله خيرًا، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يقول لهم مثل هذا.

وقد عاصر عهدين مختلفين ومتتابعين في حياة الأمة الإسلامية: العهد الأول، عهد الدولة الأموية المجاهدة، وفيه وُلد الإمام، ونشأ وترعرع، وتعلم ودرس،

وطاف البلاد، وجالس العلماء الكبار، وفيه أيضًا بلغ حد الإمامة والتصدر، وصار له تلاميذ وأتباع، وأصبح من جملة علماء الأمة الكبار والمعروفين، الذين يُرجع إلى رأيهم، ويُفزع إلى علمهم وقت النوازل والمحن.

أما العهد الثاني فهو عهد الدولة العباسية، التي قامت على بقايا الدولة الأموية، والتي سفكت الكثير والكثير من الدماء من أجل إزاحة الأمويين، وكشأن أية دولة تقوم قسرًا على أنقاض سابقتها، شهدت الدولة العباسية في بداية عهدها العديد من الثورات الكبيرة ضدها من أولياء الدولة السابقة، أو من الناقمين على أسلوب الدولة الجديدة وطريقة الحكم فيها.

وفي هذا الجو المتوتر، والمليء بالفتن والاضطرابات تجد الشائعات البيئة الخصبة للرواج والانتشار، ويجد الوشاة والحاقدون والحاسدون الآذان المصغية لأكاذيبهم وافترائهم، ومن هنا كانت محنة الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

فعندما اندلعت ثورة النفس الزكية سنة ١٤٥هـ بقيادة أخوين من آل البيت: هما محمد وإبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن، استطاعت هذه الحركة أن تسيطر على المدينة والبصرة والكوفة، وأجزاء من الدولة العباسية، وكانت هذه الثورة من أشد وأقوى الثورات التي قامت على الدولة العباسية أيام الخليفة أبي جعفر المنصور، والذي بذل مجهودات ضخمة من أجل القضاء عليها،

وخلال هذه الثورة راج بين الناس أن الإمام أبا حنيفة بالعراق والإمام مالك بالمدينة يؤيدان هذه الثورة، وكان الإمامان من أكبر علماء العصر وقتها، فلما انتهت الثورة انتهز الوشاة والحاقدون الأمر، وأخذوا في تأليب الخليفة المنصور على العالمين الجليلين، وما جرى للإمام مالك معروف، أما ما جرى مع الإمام أبي حنيفة فأشد وأقسى جُرماً.

فلقد كان الإمام أبو حنيفة عازقاً عن المناصب الدنيوية، وخاصة المناصب التي يكون صاحبها قريباً من السلطة الحاكمة، وخاضعاً لتأثيراتها وضغوطها، لما يعلمه من حجم المخالفات التي سيقع فيها صاحب المنصب من أجل إرضاء السلطة الحاكمة: إما رهبة، وإما رغبة، لذلك لما عرض ابن هبيرة والي العراق في أيام الخليفة الأموي يزيد بن الوليد - الملقب بالناقص - على الإمام أبي حنيفة منصب القضاء بالكوفة رفض أبو حنيفة بشدة؛ فهدده ابن هبيرة بالضرب والحبس، ومع ذلك أصر أبو حنيفة على الرفض، فما كان من ابن هبيرة إلا أن ضربه وجلده؛ فلم يَزِدْ ذلك الضربُ أبا حنيفة إلا إصراراً على الرفض، وعندما تركه ابن هبيرة، وعين آخر مكانه أدت هذه الحادثة لارتفاع مكانة أبي حنيفة بين الناس، وعلا شأنه بين علماء الزمان.



ولما انتهى الخليفة أبو جعفر المنصور من ثورة النفس الزكية، وفعل ما فعله مع الإمام مالك في المدينة، التفت لمن حامت حولهم الشائعات، ودارت حولهم الأقاويل في اشتراكهم في ثورة النفس الزكية، أو حتى في تأييدهم لها، وعلى رأس هؤلاء الإمام أبو حنيفة، فطلبه إلى بغداد، فحُمل الإمام إلى هناك، وفي مجلس الخليفة المنصور، دعا المنصور أبا حنيفة إلى منصب القضاء، من جديد، وهو يعلم علم اليقين أن الإمام سيرفض تمامًا، كما فعل من قبل مع الأمويين وواليهم ابن هبيرة، وإنما أراد المنصور بهذا العرض أن يختبر مدى طاعة وولاء أبي حنيفة للدولة العباسية، وفي مجلس المنصور دار هذا الحوار الفريد بين الخليفة المستبد والإمام الكبير:

قال المنصور: أترغب عما نحن فيه؟

فقال أبو حنيفة: لا أصلح.

فقال المنصور وقد احتد: كذبت.

فقال أبو حنيفة: فقد حكم أمير المؤمنين على أي لا أصلح! فإن كنت كاذبًا فلا أصلح، وإن كنت صادقًا، فقد أخبرتكم أي لا أصلح.

وعندها غضب أبو جعفر المنصور بشدة، وأقسم بأغلظ الأيمان ليتولّى الإمام منصب القضاء، وكان من الطبيعي أمام هذا الغضب، وهذه الأيمان المغلظة، وسطوة الخلافة أن يرضخ أبو حنيفة لكل هذه الضغوط ويوافق، ولكن أبا حنيفة العالم الرباني، الذي لا يبالي إلا بسخط الله عز وجل وحده وغضبه، والذي يعلم عواقب أمثال هذه المناصب المشروطة يرد على الخليفة المنصور قسمه بقسم أغلظ، ويمين أوكد، ويقسم أبو حنيفة ألا يتولى هذا المنصب الخطير، ومع قوة رد الإمام لم يستطع الخليفة المنصور أن يرد، وعندها تدخل الربيع حاجب الخليفة المنصور في الحوار لعله يستطيع إثناء أبي حنيفة عن رأيه، ويقول للإمام أبي حنيفة مهدداً: ترى أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف؟ فرد أبو حنيفة بهدوئه ووقاره وفطنته المعهودة: أمير المؤمنين على كفارة يمينه أقدر مني، وهو بذلك يؤكد على إصراره، ورفضه لمنصب القضاء، وأنه مهما كانت الضغوط، ومهما كانت شخصية صاحب هذه الضغوط وسطوته فلن يرضخ الإمام.

عندها قرر الخليفة المنصور أن يُصعّد ضغوطه على الإمام؛ فخيره بين قبول القضاء أو السجن، وكان الخليفة المنصور قد تأكدت عنده الشائعات التي راجت حول دعم أبي حنيفة لثورة النفس الزكية، وأراد أن ينكّل بالإمام ويؤدبه

بشدة كما حدث مع الإمام مالك؛ فأصر أبو حنيفة على الرفض، ولسان حاله يقول ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ فأمر المنصور بضربه أولاً، ثم حملوه في القيود إلى سجن بغداد.

وفي السجن المظلم عانى الإمام أبو حنيفة من التضييق والتشديد، وأيضاً من التهديد بالقتل يوماً بعد يوم، وقد أمر الخليفة المنصور بالتشديد على الإمام، وكان وقتها على مشارف السبعين، وقد وهن جسده، وحطمته دروس العلم، وسؤالات الناس، ومع ذلك لم يتراجع أبو حنيفة عن قراره، ولم تلن عزيمته قيد أنملة، ولكنه وإن صمد قلبه وروحه وعزيمته وإيمانه أمام كل هذه الضغوط فإن الجسد الواهن لم يصمد كثيراً؛ فتوفي الإمام أبو حنيفة في سجنه في رجب سنة ١٥٠هـ، وصعدت روحه إلى بارئها وهي في قيود السلطان لتخاصمه يوم القيامة أمام المحكمة الإلهية يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا سلطان.

## سلطان العلماء

الفقيه الشافعيّ الذي بلغ رتبة الاجتهاد فلقبوه بسلطان العلماء عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام والمعروف اختصاراً بالعز بن عبدالسلام. ولد ونشأ في دمشق، وتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، وخرج إلى مصر، فولّاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة، ومكّنه من الأمر والنهي، ثم اعتزل ولزم بيته، وتوفي بالقاهرة.

قالوا عنه: العز بن عبدالسلام شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها، لم يرَ مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله، عالماً وورعاً وقيماً في الحق وشجاعة، وقوة جنان، وفصاحة لسان، ووفرة المؤلفات وكانت له عظمة عند العامة والخاصة، وهيبة لدى الملوك وغيرهم.

ومما يدل على منزلته الرفيعة عندهم أن الملك الظاهر بيبرس لم يبايع واحداً من الخليفة المستنصر والخليفة الحاكم، إلا بعد أن تقدمه الشيخ عز الدين للمبايعة، ثم بعده السلطان، ثم القضاة؛ ولما مرت جنازة الشيخ عز الدين تحت القلعة، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها، قال لبعض

خواصه: اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه لانتزع الملك مني.

ولما ولي الخطابة بدمشق بعد الزيلعي، أزال أشياء كثيرة من بدع الخطباء، ولم يلبس سواداً، ولا سجع خطبة، بل كان يقولها مسترسلاً، واجتنب الثناء على الملوك، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاة الرغائب والنّصف، فوقع بينه وبين شيخ دار الحديث الإمام أبي عمرو بن الصلاح بسبب ذلك، وبرز الشيخ عز الدين في إصابة الحق، ولم يكن يؤذّن بين يديه يوم الجمعة إلا مؤذن واحد، وكان المؤذّنون يقولون بعد المكتوبة الآية في الأمر بالصلاة على النبي، فأرشدهم أن يقولوا: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الحديث في صحيح مسلم عن عبدالله بن الزبير، وحديث المغيرة في الصحيح.

طلع العز بن عبدالسلام مرة إلى السلطان، في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته، على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر ثم تبيح الخمر؟

فقال: هل جرى هذا؟!

فقال: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمر، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. ويناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر واقفون.

فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال: أنت من الذين يقولون (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ).

فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

وسئل الشيخ لما رجع من عند السلطان، وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بُنَيَّ رأيته في تلك العظمة، فأردتُ أن أهينه؛ لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقلتُ: يا سيدي أما خفته؟ فقال: والله يا بُنَيَّ استحضرتُ هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامي كالقط.

ولما جمع قطز الأمراء والأعيان، وحضر الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، والقاضي بدر الدين السنجاري، وجلس الملك المنصور في ديوان السلطنة، فاعتمدوا على ما يقوله الشيخ عز الدين، فكان خلاصته:

إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس كلهم قتالهم، وجاز أن يُؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهادهم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبعوا ما لديكم من الذهب والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه

وسلحاه، ويتساووا في ذلك هم والعامه، وأما أخذ أموال العامه مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا.

وبالغ الشيخ في القيام بالأمر بالمعروف، وشدد في ذلك، حتى نشب بينه وبين الأمراء كلام في هذا المعنى، فقال لهم: أنتم الآن أرقاء، لا ينفذ لكم تصرف، وقد عزمث على بيعكم، فشق ذلك عليهم، واستشاطوا غضباً، وهُمُوا بالإيقاع به، وقال بعضهم: كيف ينادي علينا ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنّه، وشهر الأمير سيفه وركب في جمع من خدمه، حتى أتى بيت الشيخ، وسيفه مشهور بيده، وطرق الباب، فخرج عبداللطيف بن الشيخ، فلما رآه على تلك الحال رجع إلى أبيه وأخبره بما رأى، فخرج غير مكترث، وقد اشتد جزع الولد، فقال له: يا بُيَّ أبوك أقلُّ من أن يُقتل في سبيل الله، وعندما عاينه الأمير هابه، وسقط السيف من يده، وبكى، ثم نزل عن فرسه، وأخذ يقبل يد الشيخ، ويسأله الدعاء، ويستغفر مما كان منه، ثم قال: يا سيدي، خبرنا إيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: فثمنا في أي شيء تصرفه؟ قال: في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟ قال: أنا.

وانصرف، فلم يزل إلى أن نادى عليهم واحداً بعد واحد، وبالغ في إشهاتهم في النداء، وحمل ثمنهم لبيت المال. وتصادف أن بعض غلمان الوزير معين الدين بنى بنياناً على سطح مسجد بمصر، وعمل فيه صالة للموسيقى فأنكر ذلك الشيخ عز الدين، ومضى بجماعته، وهدم البناء، وعلم أن الوزير

والسلطان يغضبان لذلك، فأشهد عليه بإسقاط عدالته، وحكم بفسق الوزير، وعزل نفسه عن القضاء، فعظم ذلك على السلطان، وقيل له: اعزله عن الخطابة، وإلا شنع عليك على المنبر، كما فعل بدمشق، فعزله، فأقام في بيته من المدرسة الصالحية يعلم الناس.

وبعد مدة أمر الصالح إسماعيل بعض خواصه بالسير إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ، وتلطف به غاية التلطف، وتستنزله وتعدده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به عليّ، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملايينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير، فقال له: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له: قد أمر لي إن لم توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك، فقال: افعلوا ما بدالكم، فأخذه، واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان.

وعندما اتفقوا بعد قتل الملك الصالح على تولية شجر الدر أم خليل جارية الملك الصالح، فملكوها، وخطب لها على المنابر، فكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة: واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية، صاحبة السلطان الملك الصالح، ونُقش اسمها



على الدينار والدرهم، وكانت توفّع على الكتب والمناشير وتكتب: والدة خليل، ولم يحكم مصر في الإسلام امرأة قبلها. فلما توليت تكلم الشيخ عز الدين بن عبدالسلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلي المسلمون بولاية امرأة، وأرسل الخليفة المستعصم يعاتب أهل مصر في ذلك، ويقول: إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه، فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً.

ولما مرض الشيخ العز، وأحس بالموت، أرسل له الملك الظاهر بيبرس أن يعين أولاده في مناصبه وقال: أن يكون ولدك مكانك بعد وفاتك في تدريس الصالحية، فقال العز: ما يصلح لذلك، قال له: فمن أين يعيش؟ قال: من عند الله تعالى، قال له: نجعل له راتباً؟ قال هذا إليكم، ثم أشار إلى تعيين تقي الدين بن بنت الأعز. والحقيقة أن ولد العز الشيخ عبداللطيف كان عالماً فقيهاً، يصلح للتدريس، ولكن ورع العز وزهده منعه من جعل منصب التدريس وراثته لأولاده.

وقد شارك العز بن عبدالسلام بنفسه في قتال الإفرنج، وكانت النصره أولاً للفرنج، وقويت الريح على المسلمين، فقال الشيخ عز الدين بأعلى صوته مشيراً بيده إلى الريح: يا ريح خذهم، عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتهم، وكان الفتح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من المسلمين صارخ: الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد رجلاً سخر له الريح، وكان ذلك

في يوم الأربعاء ثالث المحرم، وأسر المصريون ملك الفرنج الفرنسي لويس،  
وحبسوه مقيداً بدار ابن لقمان.

وهكذا كانت حياة العز بن عبدالسلام ومواقفه من حكام عصره، ومن  
منكراتهم، ومنكرات غيرهم، فقد كان في حياته المديدة كلها أمراً بالمعروف،  
ناهياً عن المنكر، صادعاً بالحق، حرباً على الباطل وأهله، عاش أحداث  
عصره فأثر به، وتفاعل معها، وتأثر بها، فجاهد باليد، كما جاهد بالقلم،  
واللسان، حتى كُتِبَ اسمه بأحرف من نور، في سجل الخالدين، حتى توفاه  
الله في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمئة بالقاهرة.

## إمام الأئمة ضحية النميمة والبهتان

يرجع سبب تلقيبه بإمام الأئمة لكون علمه قد انتشر بين الناس، وأقبل عليه طلاب العلم من كل حذب وصوب، مع سُؤدد ورياسة وحشمة ووقار، أضف إلى ذلك البركة التي ألقاها الله في عمره وجسده، فقد جاوز الثمانين من العمر وهو صحيح البدن سليم الحواس، لا يتخلف عن دروسه ومجالس علمه، حتى صار له تلاميذ وأتباع بأعداد كبيرة برز العديد منهم، وتقدموا في العلم حتى صاروا من الأئمة المقدمين والعلماء المتبوعين، إنه الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري الشافعي (٢٢٣هـ)، المكتب بأبي بكر، الحافظ الحجة الفقيه، الملقب بشيخ الإسلام، وإمام الأئمة وصاحب كتاب صحيح ابن خزيمة. عُرف بشفوف نظره في باب التعارض والترجيح في أصول الفقه حيث كان بارعاً في إيجاد أوجه الجمع بين النصوص الصحيحة المتعارضة في الظاهر فكان يقول: من رأى نصين متعارضين فليأتني أوفق له بينهما.

وتبدأ فصول غربة ابن خزيمة عندما ورد إلى نيسابور رجل معتزلي فاسد العقيدة اسمه منصور الطوسي، قد أخذ على عاتقه نشر المذهب المعتزلي بين الناس، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً؛ لوجود الأسد الرابض بنيسابور وخراسان كلها، الإمام ابن خزيمة وتلاميذه.

فأخذ هذا الرجل في حضور مجالس ابن خزيمة لسماع آرائه وأقواله في العقيدة، باحثاً عن مدخل أو مطعن يجد به على أقوال الإمام ويشنع عليه بها، فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً. فقرر أن يسلك سبيل إبليس بالتحريش بين المسلمين وإيقاع الفتنة بين المتحابين؛ فقد عاين ما عليه تلاميذ الإمام الكبار من علم وكرامة وسؤدد، فداخله الحسد وأكل قلبه الغل، وأخذ يخطط من أجل إيقاع الفرقة بين الإمام وأصحابه، واجتمع مع رجل على شاكلته هو أبو عبد الرحمن الواعظ القدري المعتزلي، واتفقا على تفاصيل المؤامرة وعلى بث الوشائيات الكاذبة عند الإمام ابن خزيمة بحق أصحابه ليوقع بينهم.

كان مدخل الفتنة الذي اعتمده الوشاة المفسدون من أجل الإيقاع بين الإمام وأصحابه العقائد؛ فابن خزيمة كان شديداً في باب العقائد، ينهى أصحابه أشد النهي عن سبل المبتدعة وأرباب الكلام خاصة في مسألة القرآن، وكانت عباراته في القول بخلق القرآن شديداً كما بيّن الإمام الذهبي. أخذ المتآمرون في النميمة بين ابن خزيمة وتلاميذه، ونقل الكلام بينهم، وكان منصور الطوسي المعتزلي وشريكه في المؤامرة أبو عبد الرحمن القدري، يخفون عقيدتهما الضالة عن ابن خزيمة، ويكثرون من حضور مجالسه من أجل بث الشائعات والنميمة في مجلسه، وشحن صدره تجاه تلاميذه.

وحدث ذات يوم أن اجتمع مجموعة من تلاميذ الشيخ وجرى ذكر كلام الله بينهم: أفديم هو لم يزل، أم تثبت عند إخباره تعالى أنه متكلم به؟ فوقع بينهم في ذلك خوض وخلاف، وانتشرت هذه المسألة في البلد، ووجد الوشاة الفرصة مناسبة؛ لإيقاع الفتنة بين الإمام وتلاميذه، فذهب منصور الطوسي المعتزلي إلى ابن خزيمة، وأخبره بما كان فجمع ابن خزيمة أصحابه وقال: ألم أنهكم غير مرة عن الخوض في الكلام؟ ولم يزداهم على هذا ذلك اليوم، ونبههم على عدم العودة لمثلها.

وكان أربعة من تلاميذ الشيخ يُرَدُّون على ابن خزيمة ما يمليه، وكان ذلك بعد أن تقدم به السن، وضعف حفظه قليلاً، ثم يحضرون مجلس أبي علي الثقفي، فيقرؤون ذلك على الملاء، فغضب ابن خزيمة من ذلك، إذ كيف يرد عليه تلاميذه ويشيعون ذلك في مجالس العلم الأخرى.

ولم يزل الطوسي يروح ويجول بفريته على مسامع الشيخ ابن خزيمة حتى جرأه على أصحابه واستحكمت الوحشة بين الشيخ وتلاميذه، وزادت الأمور سوءاً بتدخل بعض الأطراف الخارجية حتى وصل الحال بابن خزيمة وكان قد جاوز الثمانين من العمر وضجر وضاق صدره بأن أعلن في محضر من طلاب العلم بأن أصحابه الأربعة كذبة، وأنه محرّم على كل طالب علم أن يقبل منهم

شيئًا يروونه عن ابن خزيمة، وما هم بكذبة بل أئمة أثبات، ولكنه فعل الطوسي المنحرف الذي سعى بالنميمة والكذب، حتى انحرف الشيخ عن أقرب وأخص أصحابه.

اغتنم الطوسي الفتنة في نشر مذهبه في الاعتزال ووجد من بعض الحسدة من يساعده على تأجيج الفتنة، فانصب الحافظ أبو عمرو الحيري للصلح بين الجماعة، وشرح لابن خزيمة غرض المعتزلة في فساد الحال حتى استطاع أن يجمع بين الشيخ وأصحابه في مجلس وأصلح بينهم، وكتب الأصحاب عقيدتهم في محضر ووقع ابن خزيمة عليه بالصحة والسلامة، وأودع المحضر عند الحافظ الحيري حتى لا يبقى لمتقوّل كلام.

ولم يكذب ينقضي يوم واحد على الصلح وكتابة المحضر حتى أسرع الطوسي ومن على شاكلته من المعتزلة إلى الشيخ ابن خزيمة، وقالوا له: إنهم قد غدروا بك وغيروا من كلام المحضر؛ ليوافق عقيدتهم عقيدة ابن كلاب، فغضب ابن خزيمة بشدة، فأرسل إلى أبي عمرو الحيري يطلب المحضر للتأكد من صحة الخبر، فرفض الحيري، فقوي ظن ابن خزيمة بأنهم قد غدروا به وغيروا كلامه في المحضر، فظل ساحطاً مقاطعاً لأصحابه وتلاميذه الأئمة حتى مات بعد ذلك بقليل.

وهكذا فعلها النمامون بين إمام الأئمة وبين طلابه، فمن يأمن بعد ابن خزيمة  
 إمام الأئمة من شر مثل هؤلاء الملبّسين الذين يتدثرون بثوب الصلاح  
 ويتسترون بقناع النصح؟ وهم أغش الخلق لعباد الله الصالحين! أعاذنا الله من  
 بطانة السوء ورفاق السوء وجلساء السوء.

## سيد الفقهاء ومجدد الأمة

قرشي مُطَّلبيّ، أحد الأئمة الأربعة، وإليه تُنسب الشافعية كافة، ولد في غزة (بفلسطين) وحُمّل منها إلى مكة، وهو ابن ستين، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة (١٩٩هـ) وتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة. إنه الإمام محمد بن إدريس شافع الهاشمي رضي الله عنه.

وقد ظفر الشافعي بشرف العلم والعمل به، وشرف الحسب لقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يلتقي معه في جده هاشم بن عبدمناف. ولما حملت أم الشافعي به رأت كأن المشتري خرج منها، حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية، فتأول المعبرون أنه يخرج منها عالم يخص علمه أهل مصر، ثم يتفرق في سائر البلدان. حتى لقبوه بسيد الفقهاء. وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما صليتُ صلاة منذ كذا سنة، إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له، وقال له ابنه عبدالله: يا أبي، أي رجل كان الشافعي؟ فإني أسمعك تكثر من الدعاء له، قَالَ: يا بُنيَّ كان كالشمس للدينا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف، أو منهما من عوض.

وقال الإمام أحمد: يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، قال فكان عمر بن عبدالعزيز على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى.



أما غربته وفتنته فكانت في الوقوف في وجه بدعة القول بخلق القرآن التي شاعت في عصره فتصدى لها العلماء العاملون مثل أحمد بن حنبل وأوذوا وشجّونوا في سبيل الوقوف في وجهها. وكان الشافعي واحداً منهم فأبجأه الله من نار هذه الفتنة.

فبينما الشافعي في مصر وقد رفعه أهلها فلم يزل أمره يعلو، وأصحابه يتزايدون إلى أن وردت مسألة من هارون الرشيد يدعو الناس إليها، وقد فرضها على الفقهاء، فأجابوه إلى ذلك، وقبلوها منه طوعاً، ومنهم كرهاً، فجيء بالمسألة إلى الشافعي، فلما نظر فيها، قال: غفل والله أمير المؤمنين عن الحق، وأخطأ المسير، عليه بهذا وحقُّ الله علينا أوجب وأعظم من حق أمير المؤمنين، وهذا خلاف ما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخلاف ما اعتقدته الأئمة والخلف، فكتب بذلك إلى هارون، فكتب في القبض عليه وحمله مقيداً، فحُمل حتى أحضر في دار أمير المؤمنين، فأجلس في بعض الحجَر، ثم دخل محمد بن الحسن، وبشر المريسي جميعاً، فقال لهما هارون الرشيد: القرشي الذي خالفنا في مسألتنا قد أحضر في دارنا مقيداً، فما الذي تقولان في أمره؟ فقال محمد بن الحسن: يا أمير المؤمنين، وقد بلغني أيضاً أنه قد خالف صاحبه، وقد رد عليه، وعلى صاحبي أيضاً، وجعل لنفسه مقالة يدعو الناس إليها، ويتشبه بالأئمة، فإن رأيت أن تحضره حتى نبلو خبره، ونقطع حجته، ثم تضاعف عليه عقوبة أمير المؤمنين، فدعا به بقيده، فأحضر بين يدي أمير المؤمنين، فسلم عليه فلم يرد عليه، وبقي قائماً طويلاً، لا يؤذن

له بالجلوس، وأمير المؤمنين مقبل عليهما دونه، ثم أوماً إليه، فجلس بين الناس، فقال محمد بن الحسن: هات مسألة يا شافعي نتكلم عليها، فقال له الشافعي: سلوني عما أحببتهم، فتجرد بشر، وقال له: لولا أنك في مجلس أمير المؤمنين وطاعته فرض، لئنزلن بك ما تستحقه، فليس أنت في كنف العمر، ولا أنت في ذمة العلم، فيليق بك هذا، فقال له الشافعي كلمة قبيحة بلغة أهل اليمن.

فقال بشر: يا أمير المؤمنين دعني وإياه، فقال له هارون: شأنك وإياه، فقال له بشر: أخبرني ما الدليل على أن الله تعالى واحد؟ فقال الشافعي: يا بشر ما تدرك من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم إلا أنه لا بد لي أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت؛ الدليل عليه به ومنه وإليه، واختلاف الأصوات في المصوت، إذا كان المحرك واحداً دليل على أنه واحد، وعدم الضد في الكمال على الدوام، دليل على أنه واحد، وأربع نيرات مختلفات في جسد واحد متفقات على ترتيبه في استفاضة الهيكل دليل على أن الله تعالى واحد، وأربع طبائع مختلفات في الخافقين أصداد غير أشكال مؤلفات على إصلاح الأحوال دليل على أن الله تعالى واحد، وفي خلق السموات والأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون، كل ذلك دليل على أن الله تعالى واحد لا شريك له.

فقال بِشْر: وما الدليل على أن محمداً رسول الله؟ قال: القرآن المنزل، وإجماع الناس عليه، والآيات التي لا تليق بأحد، وتقدير المعلوم في كون الإيمان بدليل واضح دليل على أنه رسول الله لا بعده مرسل يعزله، وامتحانك إياي بهذين السؤالين، وقصدك إياي بهما دون فنون العلوم دليل على أنك حائر في الدين، تائه في الله عز وجل، ولو وسعني السكوت عن جوابه لاخترتة، وإن قلت آمراً لي: لا تشمر من سؤاليك هذين لقلت: بعيد من بركات اليقين، وكيف قصرت يدي عنك، لقد وصل لساني إليك.

فقال له بِشْر: ادعيت الإجماع، فهل تعرف شيئاً أجمع الناس عليه؟ قال: نعم، أجمعوا على أن هذا الحاضر أمير المؤمنين فمن خالفه قُتل، فضحك هارون، وأمر بأخذ القيد عن رجليه، قال: ثم انبسط الشافعي في الكلام، فتكلم بكلام حسن، فأعجب به الرشيد، وقربه من مجلسه، ورفع عليه، قال: ثم غاصا في اللغة - وكان بشر يفتخر بها - حتى خرجا إلى لغة أهل اليمن، فانقطع بِشْر في مواضع كثيرة، فقال محمد بن الحسن لِبِشْر: يا هذا إن هذا رجل قرشي، واللغة من نسكه، وأنت تتكلفها من غير طبع. ثم جرى بينه وبين الشافعي عشر مسائل انقطع محمد بن الحسن في خمس منها، حتى أمر هارون الرشيد بجز رجل محمد بن الحسن، فأراد الشافعي أن يكافئه لما كان له عليه من اليد السابقة، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما رأيت يميناً هو أفقه منه وجعل يمدحه بين يدي أمير المؤمنين ويفضله، فعلم هارون الرشيد ما يريد الشافعي بذلك، فخلع عليهما، يريد بذلك مرضاة الشافعي، وخلع على

الشافعي خاصة، وأمر له بخمسين ألف درهم، فانصرف إلى البيت، وليس معه شيء منها، وقد تصدق بجميع ذلك ووصل به الناس، فقال له هارون الرشيد: أنا أمير المؤمنين، وأنت القدوة، فلا يدخل عليّ أحد من الفقهاء قبلك.

ثم جاءت أم بشر المريسي إلى الشافعي، فقالت له: يا أبا عبد الله إن ابني هذا يجبك، وإن ذكرتَ عنده أجلك، فلو نهيته عن هذا الرأي الذي هو فيه، فقد عاداه الناس عليه، فقال الشافعي: أفعُل، فشهدت الشافعي، وقد دخل عليه بشر، فقال الشافعي: أخبرني عما تدعو إليه؛ أفيه كتاب ناطق، وفرض مفترض، وسنة قائمة، ووجب على الناس البحث فيه والسؤال؟ فقال بشر: ليس فيه كتاب ناطق، ولا فرض مفترض، ولا سنة قائمة، ولا وجب على السلف البحث فيه إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال له الشافعي: قد أقررت على نفسك الخطأ، فأين أنت عن الكلام في الأخبار والفقهِ وتوافقك الناس عليه وتترك هذا، فقال: لنا فيه تهمّة، فلما خرج بشر، قال الشافعي: لا يفلح.

## حافظ زمانه

أول من دَوَّن الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومائتي حديث، نصفها مسند. قال عنه الذهبي: أحد الأعلام، وحافظ زمانه، ولد سنة خمسين، وطلب العلم في أواخر عصر الصحابة، وله نيف وعشرون سنة. إنه محمد بن شهاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش رضي الله عنه.

قال مكحول وعمر بن عبدالعزيز: لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية من الزهري. وروي عن الليث قال: ما رأيتُ عالماً قط أجمع من ابن شهاب. يحدث في الترغيب فتقول لا يُحسن إلا هذا، وإن حدث عن العرب والأنساب قلت لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة كان الحديث حديثه. وقد ذكروا ابن المسيب وعروة قالوا: أعلمهم عندنا الزهري، فإنه جمع علمهم إلى علمه. وقال الزهري يعيب على من يتقول على النبي ما لم يقل: يا أهل العراق، يخرج الحديث من عندنا شراً، ويصير عندكم ذراعاً.

وكانت غربته وفتنه التي نبهاه الله منها مع الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك؛ إذ كان الزهري عند الوليد يوماً فتلا قوله تعالى (وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ

عَدَابٌ عَظِيمٌ) فقال إن هذ الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب يريد بذلك القدح في عليّ وذمّه في حادثة الإفك التي تعرضت لها السيدة عائشة رضي الله عنها، فتصدى الزهري للوليد وقال: أصلح الله الأمير، ليس هكذا، لقد أخبرني عروة بن الزبير عن خالته عائشة، أنها قالت إن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبي المنافق. ولم يجامل الزهريّ الوليدَ وهو الخليفة ولم يخش بطشه به بل صدع بالحق وردّ عليه افتراءه مهما كانت النتيجة. فقال الوليد متوعداً الزهريّ: إن أمكنني الله منك يوماً، فستعلم. وكان الزهري بعدها إذا سئل عن هذا اليوم قال: إن الله أعدّ من أن يسلّط عليّ سفيهاً.

## إمام السنّة الثابت في الفتنة

نشأ في بيت كريم من بيوت بني شيبان في بغداد، وليس في العرب أعز داراً ولا أمنع جاراً ولا أكثر خلقاً من شيبان. وُلد في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ وشاء الله ألا يرى الوالدُ رضيَّه؛ فقد توفي قبل مولده، فتكفلت أمُّه برعايته وتنشئته، وحرصت على تربيته كأحسن ما تكون التربية، وعلى تعليمه فروع الثقافة التي كانت سائدة، فحفظ القرآن الكريم، وعندما تجاوز الخامسة عشرة من عمره بدأ في طلب الحديث. إنه الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني أحد الأئمة الأربعة المشهورين وإمام أهل السنة والجماعة بلا منازع، وإمام في الأثر والاتباع حتى قيل فيه: إذا رأيت الرجل يجب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة وجماعة، وإذا رأيت الرجل يجب أحمد بن حنبل فاعلم أنه على الطريق، وإذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع ضال.

وكانت غربته التي أودى فيها فصبر الفتنة العظيمة المعروفة بفتنة خلق القرآن التي لم يؤذ فيها أحد كما أودى أحمد ولم ير أحدٌ عذاباً مثل عذابه رضي الله عنه وذلك حين قالت فرقة المعتزلة: إن القرآن مخلوق، وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المأمون، الذي قرب إليه بعض أئمة المعتزلة، وقد بدأت المحنة في عام ٢١٨هـ، حيث أمر المأمون إسحق بن إبراهيم، قائد شرطة بغداد،

بأن يجمع كبار الفقهاء والعلماء والمحدثين، ويمتحنهم في القول بخلق القرآن، ويقرأ عليهم خطاب الخليفة المأمون الذي يفيض بالتهديد والوعيد لمن يرفض القول بخلق القرآن، وفي هذا المجلس، وهو الأول، رفض البعض وقبل البعض، وهو ما أغاظ المأمون الذي طلب من قائد الشرطة عقد مجلس آخر، وأن يشتد في التهديد والوعيد، وبالفعل أجاب كل العلماء ما عدا أربعة، وتحت التعذيب تراجع اثنان منهم، وثبت الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، فطلب المأمون حملهما مقيدَيْن بالأغلال إلى حيث يقيم آنذاك في مدينة طرسوس وأقسم أن يقتلهما، إن استمرا على موقفهما.

وقبل أن يصل الإمام أحمد إلى طرسوس مات الخليفة المأمون، وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت المحنة في عهد الخليفة المعتصم، وأصبح الإمام أحمد وحده بعد وفاة زميله في المحنة محمد بن نوح تحت وطأة التعذيب والسجن، وأمر المعتصم بحبس ابن حنبل في سجن ضيق مظلم والقيود في يديه، وفي السجن أجريت له مناظرات عدة مع أئمة المعتزلة في محاولة لإثباته عن رأيه، لكنهم فشلوا في ذلك، ثم أجريت معه مناظرة علنية في شهر رمضان بحضور الخليفة المعتصم وكبار رجال الدولة الذين حاولوا استمالته للرجوع عن رأيه، لكنهم فشلوا في ذلك، وهو ما دفع بأحد مناظره، وهو أحمد بن أبي دؤاد لأن يفتي



المعتصم بأن ابن حنبل ضال وكافر ومبتدع ويجب قتله، وبعد استمرار المناظرة لثلاثة أيام متوالية والفشل المتوالي في إقناع الإمام بالعدول عن رأيه، أُحضرت السياط وشد الإمام على العقابيين، وهما خشبتان يشد الرجل بينهما للجلد، وجلد الإمام أحمد جلدًا شديدًا، وغُذِب وأهين وهو ثابت على رأيه لا يغيره، وحين أغمي على الإمام من شدة التعذيب والضرب بالسياط، أطلق المعتصم سراحه خوفًا من موته تحت التعذيب.

خرج الإمام إلى بيته لتلقي العلاج، ومات الخليفة المعتصم، وولي مكانه ابنه الواثق، وكان من أشد الناس في القول بخلق القرآن، لدرجة أنه أمر بالتفريق بين الرجل الذي لا يقول بخلق القرآن وبين زوجته، وأرسل الواثق لابن حنبل يأمره بالخروج من بغداد: لا يجتمعن إليك أحد، ولا تساكني بأرض ولا مدينة أنا فيها. وظل الإمام هكذا بضعة أشهر لا يخرج لصلاة في المسجد، ولا يُلقى دروسه حتى مات الخليفة الواثق وجاء بعده الخليفة المتوكل الذي أبطل هذه الحنّة، ورفع الاختبار فيها، وحاول كثيرًا استمالة ابن حنبل للعمل معه وتعليم ولده، لكنه رفض بشدة.

قال البخاري: لما امتحن أحمد بن حنبل كنتُ بالبصرة، فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول: لو كان الذي نزل بأحمد في بني إسرائيل لكان أحدوثه.

وقال ابن مصعب: ما رأيت أحداً لم يداخل السلطان، ولا خالط الملوك أثبت قلباً من أحمد يومئذٍ، ما نحن في عينه إلا كأمثال الذباب، وكان عند دار الخليفة خلق من الناس لا يحصي عددهم إلا الله، بأيديهم الصحف والأقلام والمخابر في أذرتهم، يكتبون ما يقول في المناظرة، فخاف أحمد على هؤلاء كلهم أن يفتنوا وقال والله لأقتلن نفسي ولا أضل هؤلاء.

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: كنت كثيراً ما أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم! فقلت له: يا أبة، من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه؟ قلت: لا، قال: لما أُخرجتُ إلى السياط ومُدَّت يداي للعقابين، إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: أتعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا أبو الهيثم العيَّار اللصّ الطَّرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أيّ ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق، وأما صبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

## صاحب كتاب الحيدة

هذه قصة مشوّقة تحكي مناظرة أحد أئمة أهل السنة وهو الإمام عبدالعزيز الكناني المكي الشافعي مع أحد أكبر شيوخ المعتزلة بشر المريسي القائل بخلق القرآن. وقد وردت على لسان الإمام عبدالعزيز الكناني نفسه في كتابه الذي سماه الحيدة، وكانت في زمن الخليفة العباسي المأمون (١٩٨-٢١٨ هـ - ٨١٤-٨٣٣ م). وعندما وقعت هذه الفتنة بدأ امتحان العلماء فمن قائل بقولهم بخلق القرآن خوفاً من البطش والتنكيل، ومنهم من أوهم في جوابه بأن يفهم منه بالقول بخلق القرآن. ولكن ثبت الله في هذه المحنة أفراداً قلائل من أهل العلم في الوقوف في وجه هذه المقولة الكفرية، من هؤلاء الطود الشامخ وصاحب العلم الراسخ الورع التقي إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الشيباني الذي لم يستطع أن يقول غير الحق في أن القرآن كلام الله غير مخلوق وحصل له بعد تلك المقولة الشيء الكثير من الحبس والجلد والتنكيل.

يقول الإمام عبد العزيز المكي في كتاب الحيدة: سمعت بمكة ما حصل من امتحان الناس بهذه المقولة الكفرية وما حصل للمؤمنين من الرهبة والخوف من أن يردوا عليهم فأزعجني ذلك واغتممت وعزمت على الرحيل إلى بغداد ثم دعوت الله أسأله إرشادي وتسيدي، وأن يفتح لفهم كتابه قلبي، وأن يطلق

لشرح بيانه لساني، وأخلصت لله عز وجل نيتي ووهبت له نفسي لأجل مناظرة أصحاب هذه البدعة أمام خليفة المسلمين وإيضاح الحق له وللمسلمين عامة وإقامة الحجة على هؤلاء. وجعل الإمام عبد العزيز هذا الأمر سراً ولم ييده لأحد حتى أقرب الناس إليه خوفاً من افتضاح أمره قبل بلوغ مراده، ورأى أن يقول مقالته في القرآن ويُشهرها أمام ملاء من الناس حتى يصل أمره للخليفة وتقع المناظرة مع من يقول بخلق القرآن.

ورأى أن أفضل مكان هو في جامع كبير يصلي فيه أحد الوزراء ويكون يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد أخذ ابنه معه يعينه على هذا الأمر. يقول الإمام عبد العزيز الكناني: ولما كان في الجمعة التي اعتزمت فيها على إظهار نفسي، وإشهار قولي، واعتقالي فصليت الجمعة بالمسجد الجامع بالرصافة من الجانب الشرقي بجيال القبلة والمنبر بأول صف من صفوف العامة فلما سلم الإمام من صلاة الجمعة وثبت قائماً على رجلي ليراني الناس ويسمعوا كلامي، ولا تخفى عليهم مقالتي، وناديت بأعلى صوتي لابني وكنت قد أقمته بجيالي عند الأستوانة الأخرى، فقلت له بصوت مرتفع: يا بُنيَّ ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله غير مخلوق، فلما سمع الناس كلامي ومسألتي لابني وجوابه إياي هربوا على وجوههم خارجين من المسجد إلا يسيراً من الناس خوفاً على

أنفسهم. يقول: فلم يستتم ابني الجواب حتى أتاني أصحاب السلطان، واحتملوني وابني فأوقفوني بين يدي عمرو بن مُسعدة وهو أحد وزراء المأمون وكان قد جاء ليصلي الجمعة فقال لي: أجنون أنت؟ قلت: لا. قال: فموسوس أنت؟ قلت: لا. قال: أفعته أنت؟ قلت: لا. قال: فمظلوم أنت؟ قلت: لا. فقال لأصحابه: خذوهما إلى منزلي.

قال عبدالعزيز: فحُمِلنا على أيدي الرجال حتى أخرجنا من المسجد على حال عنيقة غليظة. فلما صرنا بين يديه، أقبل عليّ فقال: من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة فقال: ما حملك على ما فعلت بنفسك؟ قلت: طلب القرية إلى الله عز وجل وطلب الزلفى لديه. قال: فهلا فعلت ذلك سراً من غير نداء ولا إظهار لمخالفة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. فقلت: ما أردت إلا الوصول إلى أمير المؤمنين والمناظرة بين يديه لا غير ذلك. فقال: أوتفعل ذلك؟ قلت: نعم. قال إذا وصلت إلى أمير المؤمنين فقد حل دمك بمخالفتك أمير المؤمنين. فقلت له: إن تكلمتُ في شيء غير هذا، أو جعلت هذا ذريعة إلى غيره فدمي حلال لأمر المؤمنين.

ثم ذهب الوزير لقصر الخليفة لإخباره عن أمر المناظرة. قال: فأُخرجت، وركب الوزير من الجانب الغربي وأنا بين يديه حتى صار إلى أمير المؤمنين

فدخل وأنا في الدهليز قائم على رجلي فأطال عند أمير المؤمنين ثم خرج فقعد في حجرة له، وأمر بي فأدخلت عليه فقال لي: قد أخبرت أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بخبرك وما فعلت، وما قلت وما سألت من الجمع بينك وبين مخالفيك من المناظرة بين يديه، وقد أمر أطال الله بقاءه، بإجابتك إلى ما سألت وجمع المناظرين عن هذه المقالة إلى مجلسه أعلاه الله في يوم الإثنين الآتي وتحضر معهم ليناظروا بين يديه أيدى الله ويكون هو الحكم بينكم. فأكثرْتُ حمد الله على ذلك وشكرته وأظهرت الشكر والدعاء لأمر المؤمنين.

قال عبد العزيز: فلما كان يوم الإثنين، صليت الفجر في مسجدي الذي كان على باب منزلي فلما فرغت من الصلاة إذا بخليفة عمرو بن مسعدة قد جاء ومعه خلق كثير من الفرسان والرجال فحملوني حتى صاروا بي على باب أمير المؤمنين فأوقفوني حتى جاء عمرو بن مسعدة وكان قد تقدم إلى سائر بني هاشم ممن يحضر مجلس أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، أن يركبوا ووجهه إلى الفقهاء والقضاة والموافقين لهم على مذهبهم. وسائر المتكلمين، والمناظرين أن يحضروا دار أمير المؤمنين، فأمر القواد والأمراء أن يركبوا في السلاح كل ذلك ليرهبوني بهم. ومنع الناس من الانصراف إلى أن ينقضي المجلس، فلما اجتمع الناس وتأهبوا ولم يتخلف منهم أحد ممن يُعرفون بالكلام والجدال، أذن لي في

الدخول فلم أزل أنقل من دهليز إلى دهليز حتى صرت إلى الحاجب الذي على باب صحن المناظرة، فشال الستر، وأخذ الرجال بيدي وعضدي وجعل أقوام يتعادون بي، وأيديهم في ظهري وعلى عنقي فجعلت أسمع أمير المؤمنين وهو يقول: خلوا عنه خلوا عنه وكثر الضجيج من الحُجَاب والأولياء بمثل ذلك، فخلي عني وقد كاد عقلي أن يتغير من شدة الجزع وعظيم ما رأيت من ذلك الصحن من السلاح والرجال، وقد انبسطت الشمس عليهم، وملاً الصحن صفوفاً، وكنت قليل الخبرة بدار أمير المؤمنين، ما رأيتها قبل ذلك ولا دخلتها. فلما صرت على باب الإيوان وقفت هناك فسمعته يقول (أي الخليفة): قربه قربه فلما دخلت من باب الإيوان وقعت عيني عليه فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال : ادن مني، فدنوت منه خطوة خطوة حتى صرت في الموضع الذي يجلس فيه المناظرون، ويُسمع كلامهم، والحاجب معي يقدمني فلما انتهيت إلى الموضع قال لي المأمون: اجلس فجلست. فسمعت رجلاً من جلسائه يقول وقد دخلت من الإيوان: يا أمير المؤمنين يكفيك من كلام هذا قُبْح وجهه لا والله ما أريت خلق الله قط أقبح وجهها منه. وجعل الخليفة ينظر إليَّ وأنا أرتعد وأنتفض، فأحب أن يؤنسني وأن يسكن عني ما قد لحقني وأن ينشطني فجعل يكثر كلام جلسائه ويكلم خليفته عمرو بن مسعدة، ويتكلم بأشياء كثيرة مما لا يحتاج أن يتكلم

بها يريد بذلك كله إيناسي ثم أقبل عليّ المأمون وسألني عن أمور كثيرة من غير حاجة به إلى شيء من ذلك، وإنما يريد به إيناسي وبسطي للكلام وتسكين روعتي وجزعي فقويّ بها ظهري، واشتد بها قلبي، واجتمع بها فهمي، وعلا بها جدّي، وانشرح بها صدري، وانطلق بها لساني ورجوت بها النصر على عدوي.

فأقبل عليّ المأمون فقال: يا عبدالعزيز لقد وصلني ما كان منك في قيامك في المسجد الجامع، وقولك إن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومسألتك الجمع بينك وبين مناظريك على هذه المقالة بحضرتي وفي مجلسي، والاستماع منك ومنهم، وقد جمعك والمخالفين لك لتتناظروا بين يديّ وأكون أنا الحكم فيما بينكم فإن تكن لك الحجة والحق معك تبعنك، وإن تكن لهم الحجة عليك والحق معهم عاقبناك. ثم أقبل المأمون على بشر المريسي فقال: يا بشر قم إلى عبدالعزيز فناظره وأنصفه. فوثب إليّ بشر من موضعه الذي كان فيه كالأسد يشب إلى فريسته، فجاء فانحطّ عليّ، فوضع فحذه الأيسر على فخذي الأيمن، فكاد أن يحطمها، واعتمد عليّ بقوته كلها. فقلت له: مهلاً فإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه لم يأمرك بقتلي وإنما أمرك بمناظرتي.



وبدأت المناظرة التي لم يتكلم فيها عبدالعزيز إلا بالقرآن وأخذ يناظر المريسي ويناقشه ويرد على شبهاته شبهةً شبهةً حتى انقطع بشر عن الإجابة واضطرب وحاد عن الجواب واندهضت حجته فلم يجد ما يرد به على ما عند عبدالعزيز من الحق فحاد في كلامه عن الصواب، ولذلك سمى عبدالعزيز هذه المناظرة بالحيّدة، وعند ذلك حكم المأمون والحاضرون لعبدالعزيز بالنصر على بشر المريسي كما هو مبسوط في كتاب الحيّدة. ولكن العجب العجاب أن المأمون برغم هزيمته وهزيمة أعوانه في مسألة خلق القرآن وبرغم أنه في بداية المناظرة تعهد لعبدالعزيز (فإن تكن لك الحجة والحق معك تبعناك) ظل على قوله فيها واعتقاده، واستمر في فتنة العلماء بها لا لشيء إلا ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليميز الله الخبيث من الطيب ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة وكان أمر الله مفعولاً. وهلك المأمون وبقي المؤمنون الثابتون الصامدون.

وصية:

من المفيد اقتناء كتاب (الحيّدة) للإمام عبدالعزيز الكناني للاستمتاع بأسلوب مناظرتة وبيان كيف قام علماء الإسلام بنصرة الحق والقيام بأمر الله.

## الإمام الصادق بالحق

نشأ بالبقاع في لبنان يتيماً في حجر أمه، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه، فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه، ولا أورع ولا أعلم، ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً منه. إنه الإمام أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي. والأوزاع قرية بدمشق وقد وُلِدَ فِي بَعْلَبَكَّ سَنَةَ ٥٨٨هـ، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت.

كان أحد المُفَهِّمِ الأعلام الذين أثنوا في مَسِيرَةِ الفِئَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَأَثَرُهَا، خَاصَّةً فِي بِلَادِ الشَّامِ والأندلس. قال الحافظ ابن كثير: وقد بقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحوًا من مائتين وعشرين سنة. ثم انتقل مذهبه إلى الأندلس وانتشر هناك فترة، ثم ضعف أمره في الشام أمام مذهب الإمام الشافعي، وضعف في الأندلس أيضًا أمام مذهب الإمام مالك الذي وجد أنصارًا وتلاميذ في الأندلس، بينما لم يجد مذهب الأوزاعي الأنصار والتلاميذ.

حجَّ مرَّةً فدخل مكة وسفيان الثوري أخذ بزماء جملة، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: أفسحوا للشيخ. حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين

يديه يأخذان عنه. وقيل عنه: كان الأوزاعي كأنه أعمى من الخشوع. وكان يُحِبُّ الليل صلاةً وقرآنًا حتى قيل ما رأينا أحدًا أشدَّ اجتهادًا من الأوزاعيِّ في العبادة.

وكان الإمام الأوزاعي لا يخشى في الله لومة لائم؛ لذا فقد تعرض للغربة والفتنة، وذلك عندما سأله عبدالله بن علي عم السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام، وأزال الله سبحانه دولتهم على يده قاتلاً: يا أوزاعي، ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ أجهادًا ورباطًا هو؟ فقال الأوزاعي: أيها الأمير، سمعت يحيى بن سعيد الانصاري يقول، سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول، سمعت علقمة بن وقاص يقول، سمعت عمر بن الخطاب يقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه.

فغضب عبدالله بن علي، ثم قال: يا أوزاعي، ما تقول في دماء بني أمية؟ فقال الأوزاعي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يحل دم امرئ مسلم إلا

بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

فاستشاط الأمير غيظًا، ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقال الأوزاعي: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك أيضًا، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي. فأمره الأمير بالانصراف، ثم أمر له بعطيّة، فأخذها الأوزاعي ثم تصدق بها.

## الإمام المحسود

أحد كبار الحقاظ الفقهاء ومن أهم علماء الحديث وعلوم الرجال والجرح والتعديل والعلل عند أهل السنة والجماعة، له مصنّفات كثيرة أبرزها كتاب الجامع الصحيح المشهور باسم صحيح البخاري، الذي يعدّ أصحّ الكتب الستة الصحاح والذي أجمع علماء أهل السنة والجماعة أنه أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم. وقد أمضى في جمعه وتصنيفه ستة عشر عاماً. إنه أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه.

نشأ الإمام البخاري يتيماً وطلب العلم منذ صغره ورحل في أرجاء العالم الإسلامي رحلةً طويلة للقاء العلماء وطلب الحديث وسمع من قرابة ألف شيخ، وجمع حوالي ستمائة ألف حديث. اشتهر شهرة واسعة وأقرّ له أقرانه وشيوخه ومن جاء بعده من العلماء بالتقدّم والإمامة في الحديث وعلومه، حتّى لُقّب بأمر المؤمنين في الحديث. وتلمذ عليه كثير من كبار أئمة الحديث كمسلم بن الحجاج وابن خزيمة والترمذي وغيرهم، وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً مجرّداً للحديث الصحيح. ومن أوّل من ألّف في تاريخ الرجال. امتحن أواخر حياته وتُعصّب عليه حتى أُخرج من نيسابور وبخارى فنزل إحدى قرى سمرقند فمرض وتوفّي بها.

وقد امتحن الإمام البخاري مرتين، الأولى كانت مع شيخه محمد بن يحيى الذهلي على رأس جماعة من الفقهاء والمحدثين في عصره، حيث اتهم البخاري بمسألة القول باللفظ بالقرآن وهل هو مخلوق، وكانت هذه المحنة واحدة من أسباب محنته الثانية مع حاكم بخارى خالد بن أحمد الذهلي.

فقد نشأت مسألة القول بخلق القرآن في أواخر عهد الخليفة العباسي المأمون، واستمرت طيلة عهد المعتصم والواثق، وبقيت في أوائل عهد المتوكل، وسببت فتنة عظيمة بين أهل السنة والمعتزلة، واندلعت نازها وعم خطرهما؛ حيث تمكن المعتزلة الذين برزوا في عهد المأمون والتفوا حوله أمثال بشر المريسي وثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبي دؤاد تمكنوا من إقناع الخليفة باعتراف الاعتزال وحمله على القول برأيهم أن القرآن مخلوق، وتمكن القاضي أحمد بن أبي دؤاد أن يغري الخليفة بحمل الناس على هذا القول فكتب المأمون إلى أمراء الأمصار أن يمتحنوا علماء الأمة بهذه المسألة، فمن أجاب فقد سلّم من الأذى، ومن خالف كان جزاؤه الأذى والتنكيل.

وامتحن بذلك أئمة كبار كأحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وأبو خيثمة زهير بن حرب، والنضر بن شميل وأحمد بن نصر الخزاعي الذي قُتل ويوسف بن يحيى البويطي الذي مات في السجن وغيرهم، فصبر بعضهم ورفض أن يقول

بخلق القرآن فعُدّب بعضهم وحُبس بعضهم وقُتل البعض وأجابه بعضهم. وشَعَلت هذه الفتنة المسلمين نحو خمس عشرة سنة إلى أن انتهت في زمن المتوكل.

وقد أصاب البخاريّ طرفٌ من هذه الفتنة، فعندما دخل البخاري نيسابور استقبله الناس بالحفاوة والتكريم والتعظيم، واستقبله أربعة آلاف رجل ركبانا على الخيل، سوى من ركب بغلاً أو حمراً وسوى المشاة. والتفّ الناس وطّاب العلم والمحدّثون حوله حتى هجروا مجالس المحدّثين الآخرين فكان ذلك سبباً في إيغار صدور البعض عليه؛ فأرادوا صرف الناس عنه فشغبوا عليه بمسألة خلق القرآن، وقالوا إن محمد بن إسماعيل يقول اللفظ بالقرآن مخلوق فامتحنوه فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال يا أبا عبدالله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثاً ثم التفت إليه البخاري في الثالثة فقال القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة. فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه.

وكان محمد بن يحيى الذهلي أحد من دخله الحسد بسبب اجتماع الناس على البخاري، وكان الذهلي أحد كبار محدّثي نيسابور وأحد شيوخ البخاري. قال

الإمام مسلم: لما قدم محمد بن إسماعيل نيسابور ما رأيت والياً ولا عالماً فَعَلَّ به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه مرحلتين وثلاثة. فقال محمد بن يحيى الذهلي في مجلسه: من أراد أن يستقبل محمد بن إسماعيل غدا فليستقبله. فاستقبله محمد بن يحيى وعامة العلماء، فنزل دار البخاريين، فقال لنا الذهلي: لا تسألوه عن شيء من الكلام، فإنه إن أجاب بخلاف ما نحن فيه، وقع بيننا وبينه، ثم شمت بنا كل حروري، وكل رافضي، وكل جهمي، وكل مرجئي بخراسان. فازدحم الناس على محمد بن إسماعيل، حتى امتلأ السطح والدار، فلما كان اليوم الثاني أو الثالث، قام إليه رجل، فسأله عن اللفظ بالقرآن. فقال: أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا. فوقع بينهم اختلاف، فقال بعض الناس: قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وقال بعضهم: لم يقل، حتى تواتبوا، فاجتمع أهل الدار وأخرجوهم.

وقال محمد بن يحيى الذهلي لما ورد محمد بن إسماعيل البخاري نيسابور: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه. فذهب الناس إليه وأقبلوا على السماع منه، حتى ظهر الخلل في مجالس الذهلي فحسده بعد ذلك وتكلم فيه.



وعند ذلك وبعد ما صار بين البخاري والذهلي من الاختلاف فقد هجر الكثير من الطلاب مجالس البخاري وأطاعوا الذهلي لما كان له من قدر المكانة والمنزلة العظيمة في بلده نيسابور. وثبت مع البخاري تلميذه الإمام مسلم بن الحجاج وكان مسلم أيضاً يناضل عن الإمام البخاري حتى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي بسببه، فترك شيخه الذهلي ولازم البخاري ولم يتخلف عن زيارته، فوصل إلى الذهلي أن مسلم بن الحجاج على مذهبه قديماً وحديثاً وأنه عوتب على ذلك بالعراق والحجاز ولم يرجع عنه، فلما كان في يوم مجلس الذهلي قال في آخر مجلسه: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا. فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته وقام على رؤوس الناس، وخرج من مجلسه، وجمع كل ما كتب منه وبعث به على ظهر حمال إلى باب الذهلي، فاستحكمت تلك الوحشة وتخلف عن زيارته.

ثم غادر البخاري نيسابور بعد هذه الحادثة درءاً للمفاسد ووأداً للفتنة وإيثاراً للسلامة في دينه، وقال: (وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد) اللهم إنك تعلم أنني لم أرد المقام بنيسابور شراً ولا بطراً ولا طلباً للرياسة وإنما أبت عليّ نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين، وقد قصدني هذا الرجل حسداً لما أتاني الله لا غير. وإني خارج غداً لتتخلصوا من حديثه لأجلي.

وعندما أُخبر أصحابه بخروجه ما شيعة غير واحد فقط قال: كنت معه حين خرج من البلد وأقام على باب البلد ثلاثة أيام لإصلاح أمره.

ثم توجه الإمام البخاري عائداً إلى بلدته بخارى بعد خروجه من نيسابور، فاستقبله الناس هناك بحفاوة وإكرام بالغين. ونصبوا له القباب على فرسخ من البلد، واستقبله عامة أهل البلد ونشروا عليه الدنانير والدراهم والسكر الكثير. فمكث مدة يحدّث في مسجده، فسأله أمير بخارى خالد بن أحمد بن خالد أن يحضر إلى منزله ويقراً كتبه على أولاده فامتنع البخاري من ذلك لئلا يجابي ناساً دون آخرين، فراسله أن يعقد مجلساً لأولاده لا يحضره غيرهم فامتنع عن ذلك أيضاً وَقَالَ: لا يسعني أن أخص بالسماع قوماً دون قوم. وقال للأمير: أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضرنني في مسجدي أو في داري، فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامتنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة إني لا أكتم العلم لقول النبي صلى الله عليه وسلم: من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار.

فبقي في نفس الأمير من ذلك وكان هذا سبب الوحشة بينهما، فاستعان خالد بن أحمد بحريث بن أبي الوراق وغيره من أهل العلم ببخارى عليه، حتى

تكلّموا في مذهبه، واتفق بعد ذلك أن أرسل محمد بن يحيى الذهلي إلى خالد كتاباً يؤلّب فيه الأمير على الإمام البخاري، فقرأ الأمير كتاب الذهلي على الناس يحرّضهم على مفارقة البخاري فأبى الناس ذلك، فأمره الأمير بعد ذلك بالخروج من بخارى، فخرج منها رحمه الله غريباً طريداً غربة المؤمنين فطوبى للغرباء.

## الشهيد في قيوده من أجل الحق

مات شهيداً في محبسه وقيوده وأغلاله، وكانت وصيته أن يدفن في قيوده لا تفك عنه، ليخاصم أعداءه أمام الله تعالى يوم القيامة، مات في السجن ولكنه مات عزيزاً منتصراً لله ولدينه وللحق، وعاش خصومه في ذل وغضب من الله. إنه عالم الشافعية الأول وصاحب الشافعي الشهيد في قيوده لكلمة حق الإمام أبو يعقوب يوسف بن يحيى البُويطي.

كان البُويطي من صعيد مصر وتلقى العلم صغيراً على يد شيوخ قريته الصغيرة بُويط، ثم انتقل لمجلس شيخ المالكية وكبيرهم؛ الإمام ابن وهب، وحمل عنه علماً كثيراً، فلما دخل الشافعي مصر سنة ١٩٨هـ، في رحلته العلمية الشهيرة، جلس إليه البويطي، وانبهر بعلمه، ولزم مجلسه ولم يفارقه، وكان البويطي ذكياً وسريع البديهة، فصار أكبر وأنجب تلاميذ الشافعي، وأكثرهم علماً وإحاطة بدقائق مذهبه ومسائله. وكان الشافعي معجباً بذكاء تلميذه وحرصه على العلم ونبوغه، وكان البويطي من الشافعي بمكان، وربما يسأله أحد عن المسألة فيقول: سل البويطي، فإذا أجاب أخبره، فيقول: هو كما قال البويطي، وكأنه إعداد من الامام الشافعي ليكون البويطي خليفة له في حلقة العلم فقد قال الإمام الشافعي: ليس أحد أحق بمجلسي من البويطي.

ورزق الله البويطي فصاحة وحجة في البيان وكان جريئاً في الحق، قال عنه الشافعي: البويطي لساني، وكان يوجهه للذهاب مع صاحب الشرطة للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ مما يؤكد ثقة الشافعي في علمه وفهمه وقوته في الحق. ومن أشهر مؤلفات البويطي كتاب (المختصر) المشهور، الذي اختصره من كلام الشافعي رضي الله عنه.

وكانت غربته وفتنته التي رزقه الله الشهادة في سبيله عندما كبرت مكانة البويطي في مصر قبولاً وهيبة واتباعاً، فقد كانت حلقاته في المسجد أعظم الحلقات، وكان تلاميذه بعشرات الآلاف في مصر وخارجها. في هذه الفترة ظهرت بدعة القول بخلق القرآن بعاصمة الخلافة بغداد، على يد المعتزلة الذين وجدوا من الخليفة المأمون العباسي رعاية وتبنيًا لبدعتهم؛ وذلك بسبب انشغاله في الفلسفة والكلام والمنطق، دون بصيرة علم وفقه. وقد اقتنع المأمون ببدعتهم في القول بخلق القرآن، وعمل على دعوة الناس للقول بها. ولكن لم يكن الأمر سهلاً فالصالحون المخلصون من العلماء والفقهاء والمحدثين رفضوا هذه البدعة، مما دفع المأمون سنة ٢١٨ هـ إلى حمل الناس على القول بها ولكن لم يطل العمر بالمأمون فمات من عامه ذلك، وتولى الخلافة بعده المعتصم فعمل بوصية المأمون وهي إجبار الناس على القول بخلق القرآن،

ومعه حدثت محنة الإمام أحمد المشهورة، وهلك المعتصم وخلفه ابنه الواثق وكان أشد الخلفاء اعتناقاً لهذه البدعة ورغبة في نشرها، بسبب استيلاء راعي البدعة القاضي أحمد بن أبي دؤاد عليه فكانت محنة المسلمين عظيمة.

استغل أحمد بن أبي دؤاد علاقته بالواثق فعمل على نشر هذه البدعة بين المسلمين بكل الطرق، حتى أنه لا يتم تعيين أي عامل للدولة إلا بعد اختباره بهذه البدعة، ومطاردة كل من يقول بخلافها، وسجنه وحتى قتله. ونتيجة لهذه السياسة تم تولية القاضي المعتزلي أبي بكر الأصم في منصب قاضي مصر، فلما جاء مصر استوقفته مكانة الإمام البويطي والجموع الغفيرة التي تتبعه، وعلم الأصم أن الإمام البويطي يعارض تلك البدعة بل يناهضها ويدعو إلى التزام الحق بأن القرآن كلام الله، فأسرع بإبلاغ بن أبي دؤاد، فكتب بن أبي دؤاد إلى والي مصر وأمره بامتحان البويطي على خلق القرآن فإن أجاب وإلا وضعه في السجن.

وجاءت الرسالة للوالي الذي كان محباً للبويطي، معظماً لعلمه وورعه، ويكره أن يكون سبباً في سجنه، فأرسل إليه ولما مثل البويطي بين يديه، أمر الوالي بإخلاء المكان من الحاضرين جميعاً ثم أسرَّ للإمام البويطي بالأمر، وقال له: يا أبا يعقوب أبق على نفسك، وقل بالأمر سرّاً بيني وبينك، فأنا لا أملك

مخالفة ابن أبي دؤاد، وأنت تعلم مكانه من الواثق. فما كان من الإمام البويطي الذي لا يترخص أو يستخدم التقيّة إلا أن قال للوالي بصوت مسموع: إنني يقتدي بي مائة ألف أو يزيدون، لا يدرون أي أتظاهر فقط بالموافقة، وإن أجبتُ أجابوا هم أيضاً. فاحتار الوالي المحب للبويطي، ولكن الخبر وصل لطاغية بدعة خلق القرآن ابن أبي دؤاد فأمر على وجه السرعة بحمله إلى بغداد في الحديد الثقيل وسجنه عند وصوله.

جاء البويطي على بغل، في عنقه عُلٌّ وفي رجليه قَيْد، وبين العُلِّ والقَيْد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله الخلقَ بِكُنْ، فإذا كانت كن مخلوقة فكأنَّ مخلوقاً خلق مخلوقاً، فوالله لأموتن في حديدي حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ولئن أدخلت عليه لأصدقنّه يعني الواثق. فلما بلغ ابن أبي دؤاد ثباته وإصراره وما فعله وقاله حتى وصوله لبغداد وأنه لم يتراجع بحرف واحد اشتد غضبه فلم يمتحنه بسؤال بدعة خلق القرآن مثلما فعل مع غيره، ولم يُدخله على الخليفة كما حدث مع غيره من كبار العلماء خشيةً من قوته في الحق وثباته أن يقنع الواثق بالحق، فقد كان البويطي في هذا الوقت معلوماً للناس من أعلم أهل الأرض وأكثرهم فقهاً. فأمر ابن أبي دؤاد بإلقائه في

غياهب السجون مباشرة. وظل البويطي في ظلمة السجون لشهور عديدة، ولكنه لم يلبس ثيابه ومشى حتى يبلغ باب الحبس فيقول له السجنان: أين تريد؟ فيقول: حيث داعي الله. فيقول السجنان: ارجع عافاك الله. فيقول أبو يعقوب: اللهم إنك تعلم أي قد أجبت داعيك فمنعوني.

وكان الالفت في السجن أنهم كانوا يرسلون إليه من يناظره ليرجع عن الحق فكانوا يستسلمون أمامه فاشتد غضب ابن أبي دؤاد عليه، وحقده على البويطي، فأمر بتشديد الأغلال والقيود عليه، فلفوه كله بالحديد، حتى لم يعد قادراً على الحركة إلا بصعوبة كبيرة. وقد أثر ذلك التشديد في نفس الإمام بسبب منعه من الأنس بالصلاة وقيام الليل، ولكنه لم يتراجع حتى وهو يعاني صعوبة بالغة في الحركة ودخول الخلاء والتطهر للصلاة.

وظل البويطي ثابتاً مؤمناً راضياً بقضاء الله يدعو الله أن يخلصه من هذا الكرب العظيم، وسرعان ما جاء الفرج، من عند رب السموات والأرض، وأخرجه الله عز وجل من سجن الدنيا سعة الآخرة.



ومات البويطي شهيداً في محبسه وقيوده وأغلاله، وكانت وصيته أن يدفن في قيوده لا تفك عنه، ليخاصم أعداءه أمام الله تعالى يوم القيامة، مات البويطي في السجن ولكنه مات عزيزاً منتصراً لله ولدينه وللحق، وعاش خصومه في ذل وغضب من الله.

## أنا جنتي وبستاني في صدري

(ما يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحمت فهي معي لا تفارقي، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة) إنه تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام النميري الحراني المشهور بابن تيمية. الفقيه المحدث والمفسر المجتهد بين علماء أهل السنة والجماعة. وهو أحد أبرز العلماء المسلمين خلال النصف الثاني من القرن السابع والثالث الأول من القرن الثامن الهجري. نشأ ابن تيمية حنبلي المذهب فأخذ الفقه الحنبلي وأصوله عن أبيه وجده، كما كان من الأئمة المجتهدين في المذهب، فقد كان يفتي في العديد من المسائل على خلاف معتمد الحنابلة لما يراه موافقاً للدليل من الكتاب والسنة ثم على آراء الصحابة وآثار السلف.

وُلد ابن تيمية سنة ٦٦١ هـ في مدينة حران لأبيه الفقيه الحنبلي عبدالحليم ابن تيمية وأمه ست النعم بنت عبدالرحمن الحرّانية، ونشأ نشأته الأولى في مدينة حرّان. وبعد بلوغه السابعة هاجرت عائلته إلى مدينة دمشق بسبب إغارة التتار عليها. وحال وصول الأسرة إلى هناك بدأ والده عبدالحليم بن تيمية بالتدريس في الجامع الأموي وفي دار الحديث السكرية. وأثناء نشأة ابن تيمية في دمشق اتجه لطلب العلم، فأخذ عن أكثر من مائتي شيخ في مختلف العلوم

منها التفسير والحديث والفقه والعربية. وقد شرع في التأليف والتدريس في السابعة عشرة. بعد وفاة والده أخذ مكانه في التدريس في دار الحديث السكرية، بالإضافة إلى أنه كان لديه درس لتفسير القرآن الكريم في الجامع الأموي ودرس بالمدرسة الحنبلية في دمشق.

واجه ابن تيمية السجن والاعتقال عدة مرات، كان أولها سنة ٦٩٣ هـ بعد أن اعتقله نائب السلطنة في دمشق بتهمة تحريض العامة، وسبب ذلك أن ابن تيمية قام على أحد النصارى الذي بلغه عنه أنه شتم النبي محمد. وفي سنة ٧٠٥ هـ سُجن في القاهرة مع أخويه شرف الدين عبدالله وزين الدين عبدالرحمن بسبب مسألة العرش ومسألة الكلام ومسألة النزول.

وسجن أيضاً سنة ٧٠٧ هـ بسبب شكوى من الصوفية، لأنه تكلم في القائلين بوحدة الوجود وهم ابن عربي وابن سبعين والقونوي والحلاج. وتم سجنه سنة ٧٠٩ هـ في مدينة الإسكندرية، وخرج بعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون للحكم. وفي سنة ٧٢٠ هـ سُجن بسبب مسألة الحلف بالطلاق. وسجن في سنة ٧٢٦ هـ حتى وفاته سنة ٧٢٨ هـ بسبب مسألة زيارة القبور وشد الرحال لها.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد تعرض للمضايقات من الفقهاء المتكلمين والحكام بسبب عقيدته التي صرح بها في الفتوى الحموية في سنة ٦٩٨ هـ والعقيدة الواسطية في سنة ٧٠٥ هـ التي أثبت فيهما الصفات السمعية التي جاءت في الكتاب والسنة مثل اليد والوجه والعين والنزول والاستواء والفوقية، مع نفي الكيفية عنها.

وعندما عاد ابن تيمية إلى دمشق استمر في وظيفته القديمة، فرجع للتدريس والإفتاء والتأليف، وكان استقراره عاملاً له على الانصراف للبحث والتنقيب في مسائل العقيدة ودراسة الأحكام الفقهية وفروعها بشكل خاص، وكان من نتيجة ذلك ترجيحه في بعض مسائل الأحكام ما يخالف الفقهاء.

وكانت إحدى المسائل التي خالف فيها الأئمة الأربعة والمذهب المشهور، هي مسألة الحلف بالطلاق، وقد استنكر الفقهاء ذلك، وجأهروا باستنكارهم. وفي منتصف شهر ربيع الأول سنة ٧١٨ هـ اجتمع به قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم الحنبلي وأشار عليه في ترك الإفتاء بالمسألة فقبل ابن تيمية نصيحته. وفي شهر جمادى الأولى من سنة ٧١٨ هـ وصل كتاب من السلطان فيه منع ابن تيمية من الإفتاء في المسألة، ونودي بذلك في البلد. ثم عاد ابن تيمية إلى الإفتاء بذلك من جديد وقال: لا يسعني كتمان العلم. ولما

علم السلطان أن ابن تيمية عاد للإفتاء في المسألة، أرسل كتاباً آخر، فُرى في يوم ٢٩ رمضان سنة ٧١٩ هـ وفيه فصل خاص بابن تيمية يؤكد المنع، وقد أُحضر ابن تيمية وعوتب في ذلك، وكان ذلك في مجلس جمع الكثير من القضاة والفقهاء.

واستمر ابن تيمية في الإفتاء في مسائل الطلاق، فانعقد مجلس في يوم ٢٢ رجب سنة ٧٢٠ هـ بدار الحكم بحضرة نائب السلطنة، واجتمع فيه القضاة والمفتون من المذاهب، وحضر ابن تيمية، وعاتبوه على العود إلى الإفتاء بالمسألة، ثم حُبس في القلعة. واستمر محبوساً خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، وأُفرج عنه بأمر من السلطان في يوم ١٠ محرم سنة ٧٢١ هـ.

عكف ابن تيمية من عام ٧٢١ هـ إلى عام ٧٢٦ هـ، خمس سنين بالتدريس والإفتاء والتأليف والوعظ، في مدرسة الحنبلية وقام في هذه الفترة بإعادة النظر في مؤلفاته ورسائله القديمة. وفي سنة ٧٢٦ هـ وقع الكلام في مسألة شد الرحال وإعمال المطي إلى قبور الأنبياء والصالحين، بسبب العُثور على جواب لابن تيمية قد كتبه قبل سبع عشرة سنة، يتضمن الجواب عن القولين الواردين في المسألة وترجيحه لأحدهما. فكثر الانتقاد عليه، حتى اعتُقل في يوم ٦ شعبان سنة ٧٢٦ هـ بقلعة دمشق بأمر من السلطان، فأظهر ابن تيمية

الفرح والسرور بذلك، وقال: أنا كنتُ منتظراً لذلك، وهذا فيه خيرٌ كثير ومصلحة كبيرة. وفي ١٠ شعبان قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله ومنعه من الفتيا. وفي منتصف شهر شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي بجبس جماعة من أصحاب ابن تيمية في سجن الحكم، وعزر جماعة منهم على دواب، ونودي عليهم ثم أطلقوا، سوى ابن قيم الجوزية فإنه حُبس بالقلعة.

ودخل إليه القاضي جمال الدين بن جُملة وناصر الدين مشد الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلتُ الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خط ابن تيمية فصح... إلى أن قال: وإنما المحرّف جعله زيارة قبر النبي وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً. وهو تحريف على شيخ الإسلام، فإنّ جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع من زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شدّ الرحال والسفر إلى مجرد زيارة القبور، وزيارة القبور من غير شدّ رحل إليها مسألة، وشدّ الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شدّ رحل، بل يستحبها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هذه الزيارة في

هذه الوجه في الفتيا، ولا قال إنها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة. والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ولا تخفى عليه خافية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وبعدما اعتقل ابن تيمية في يوم ٦ شعبان سنة ٧٢٦ هـ، أظهر السرور بانتقاله إلى اللقعة. ولما انتقل إليها عكف على العبادة وكثرة قراءة القرآن، والمطالعة وتنقيح كتبه؛ وقد كتب خلال هذه الفترة كثيراً من تفسير القرآن، وعمل أيضاً على التأليف، والرد على بعض المسائل، وكانت تصل إليه من الخارج الأسئلة العلمية والفقهية. ومن بين ما كتبه في الحبس رسالة الأحنائية في الرد على أحد القضاة المالكيين في مصر القاضي عبدالله بن الأحنائي. فاشتكى القاضي للسلطان، فأصدر السلطان أمراً بمصادرة جميع ما عند ابن تيمية من أدوات الكتابة والكتب، حتى لا يستعين بها في التأليف والكتابة، فصودرت جميع أدوات الكتابة منه، ومُنِعَ منعاً باتاً من المطالعة، ومُحِلَّتْ مسوداته وأوراقه من الحبس إلى المكتبة العادلية الكبرى، وكانت نحو ستين مجلداً من الكتب، وأربع عشرة ربطة كراريس. وبعد مصادرة أدوات الكتابة

منه، بدأ يكتب بالفحم على أوراق متناثرة، وقد حفظ التاريخ بعض هذه الكتابات.

وقد توفي ابن تيمية في ٢٠ ذو القعدة سنة ٧٢٨ هـ في حبسه في قلعة دمشق وقد بلغ من العمر ٦٧ سنة، بعدما استمر به مرضه قرابة الثلاثة أسابيع. وما أن وصل الخبر إلى أهالي دمشق حتى اجتمع حشد كبير منهم حول القلعة، وفتُح باب القلعة لمن يدخل من الخاصة والعامة. وصلى عليه صلاة الجنازة بالقلعة الشيخ محمد بن تمام وأخرجت الجنازة بعد الصلاة، وامتألت الطرقات بين القلعة والمسجد بالناس، وحضرت الجنازة قبل الظهر للجامع، وصُلي عليه عقب صلاة الظهر في الجامع الأموي، وقد صلى عليه الشيخ علاء الدين الخراط. ووضعت الجنازة وهي في طريقها إلى المقبرة بسوق الخيل بسبب كثرة الناس فضُلي عليه هناك، وتقدم للصلاة عليه أخوه زين الدين عبدالرحمن، ثم حُمِلت الجنازة إلى مقبرة الصوفية ودُفن بجانب أخيه شرف الدين عبدالله، وكان دفنه قبل العصر بقليل بسبب كثرة من يأتي ويصلي عليه. ويُقدر عدد من حضر إلى جنازة ابن تيمية من الرجال بين ستين ألفاً إلى مائة ألف وإلى أكثر من ذلك إلى مائتي ألف، وقُدرت أعداد النساء بخمسة عشر ألف امرأة عدا من كن على الأسطح. ويذكر أبو الحسن الندوي أنه قد زار القبر في سنة



١٩٥٦م وأن آثار مقبرة الصوفية قد زالت وقامت عليها الجامعة السورية، إلا أن قبر ابن تيمية لا يزال باقياً أمام قاعة الجامعة السورية وعمارة مستشفى الولادة.

## التلميذ على نهج أستاذه

الإمام العالم العامل المجاهد، صاحب ابن تيمية وتلميذه ورفيقه في سجنه ومحتته، درة فقهاء المسلمين وواسطة عقدهم محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، الحنبلي، المشهور بابن قَيِّم الجوزية، شمس الدين، أبو عبدالله. وسبب هذه الشهرة أن والده كان قَيِّماً على المدرسة الجوزية التي كان ابن القَيِّم إمامها. ومع أن وظيفة القِوامة في المدرسة الجوزية لم تكن حكراً على والد ابن القَيِّم وحده إلا أن والد ابن القَيِّم كان أشهر من تولى هذا المنصب، فصار هو المراد عندما يقال قَيِّم الجوزية، وغلبت هذه الشهرة على ابنه، حتى صار لا يُعرف إلا بها. وكان مولده سنة (٦٩١هـ)، في دمشق.

وقد دَرَسَ (بالصدريّة) عقب وفاة أبيه، فأفاد وأجاد، وسرد طرقاً صالحاً في فضل العلم وأهله. كما اشتغل بالخطابة؛ في مسجد المزار. وتوفي رحمه الله بعدما ترك لنا الكثير من المؤلفات العظيمة المفيدة المشهورة. وكانت جنازته حافلة ودفن عند أبيه بالباب الصغير، فرحمه الله رحمة واسعة.

هذا وكل من عَرَفَ ابن القَيِّم، وعاش مع تراثه الممتع النافع يعلم أنه إمام عالم عامل وداعية مخلص صادق، ومربِّ فاضل، أفنى عمره في محاربة كل شر

ورذيلة، والدعوة إلى التحلق بكل خير وفضيلة، فلم يكن ابن القيم ممن يتكسبون بدعوتهم، أو يطلبون بها عرضاً زائلاً وإنما كان صاحب رسالة سامية، عاش حياته مبعلاً لها ومنافعاً عنها. وجراته رحمه الله وصلابته في دين الله وصدعه بالحق معروفة؛ فلم يكن يحابي أحداً فيما يعتقد أنه الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، مع ما سببه ذلك له من محن وإيذاء.

مع صبره رحمه الله على الأذى والمحن والابتلاء في ذات الله سبحانه، دون جزع أو ضجر، فكم عانى من ألم السجن ومرارة الحبس، فكان يقابل كل ذلك صابراً محتسباً، بل كان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبير والتفكير، ففتح عليه من ذلك خيرٌ كثير فانقلبت بذلك محنته إلى منحة، وسجنه إلى خلوة للتعبد والمناجاة.

وإن من يقرأ مؤلفات ابن القيم وبخاصة مدارج السالكين يعلم أن ابن القيم كان لديه من عمارة قلبه باليقين بالله والافتقار والعبودية، والاضطرار، والإنابة إلى الله، الثروة الطائلة، والقُدح المُعلَى في جَوِّ العلماء العاملين، الذين هم أهلُ الله وخاصته، وأن لديه من الأشواق والمحبة التي أخذت بمجامع قلبه ليس على منهج المتصوفة الغلاة، بل على طريق السلف الصالح، وهو ما عمر قلبه

بالتعلق بالله في السر والعلن، ودوام ذكره، وأن العبادة حلت منه محل الدواء والمعالجة، وترويض النفس.

وقد عاش ابن القيم رحمه الله في بيئة يسودها كثير من الفساد الديني والأخلاقي، وتنتشر فيها عادات اجتماعية متردية، وتروج فيها أفكار ونحل منحرقة مع انتسابها زوراً للإسلام، وشاء الله سبحانه وتعالى وله الحمد أن يشرح صدر ابن القيم للمنهج الحق، وأن يريه الطريق المستقيم، وأن يُجَبِّب إلى قلبه التمسك بالكتاب والسنة دون سواهما، فكان من توفيق الله عز وجل أن هياً له أستاذاً فاضلاً، وعلماً شامخاً، وعالمًا نحريرًا مجاهدًا هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فكان له خير القدوة، ونعم المرشد؛ فقد لازمه ابن القيم رحمه الله منذ عودته من الديار المصرية إلى دمشق إلى أن توفي الشيخ حتى صار من أصحاب الناس له، وألصقهم به ومن أحصى تلاميذه والمُقرِّين إليه، ولقد تمكَّنت محبةُ الشيخ من قلب تلميذه ابن القيم رحمه الله، فكان لا يفارقه أبدًا، حتى إنه كان محبوبًا معه في القلعة إلى أن مات الشيخ رحمه الله.

وقد كانت غريته ومحتته التي نبجاه الله منها على غرار ما حدث لشيخه ابن تيمية، فقد كان من بين البدع التي سادت المجتمع وقتئذ، وتقرَّب الناس بها إلى الله بدعةُ شدِّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، فقام ابن القيم

في وجه هذه البدعة منكرًا لها، ومبينًا مخالفتها لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديته، فما كان من أعدائه وشائتيه إلا أن قاموا ضده، وأذوه، ثم حُجِس بسبب ذلك، مع شيخه ابن تَيْمِيَّة رحمه الله؛ وذلك أنه في سنة ٧٢٦هـ اعتُقِل ابن تَيْمِيَّة في قلعة دمشق، بسبب ما أفتى به من المنع من شد الرحال إلى قبور الأنبياء، وبعد ذلك بأيام أمر قاضي القضاة الشافعي بحبس جماعة من أصحاب الشيخ في سجن الحكم، وعزَّر جماعة منهم على دواب ونودي عليهم، ثم أُطلقوا، ماعدا ابن قيم الجوزية؛ فإنه حُجِس بالقلعة، مع شيخه وشاطره محتته هذه، فسُجن معه في القلعة، ولأجل التهمة نفسها، ولكنه كان منفردًا عنه.

وقد ضُرب ابن القَيْم رحمه الله في هذه المرة قبل أن يُحبس، وشُهرَ به على جِمار بدمشق، وسبب ذلك: أن ابن قَيْم الجوزية تكلم في القدس عن مسألة الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وأنكر مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي، فأنكر المقداسة عليه مسألة الزيارة، وكتبوا فيه إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني وغيره من قضاة دمشق. وقد ظل ابن القَيْم محبوسًا مدة، ولم يُفرج عنه إلا بعد وفاة شيخه بشهر.

وقد امتحن ابن القَيِّم مرة أخرى بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة، وهو اختيار شيخه ابن تَيْمِيَّة أيضاً. وجرت له بسببها فُصُولٌ مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره لكن الظاهر أنه لم يُجْبَسْ إلا في المرة التي كان فيها مع شيخه ابن تَيْمِيَّة، وذلك بسبب فتوى شد الرحل، وأما مسألة الطلاق، وكذا مسألة المحلل، فيظهر أنه جرت له بسببهما فتن ومحن مع القضاة فحسب، وأنه لم يُسَجَنْ بسبب ذلك، ومما يؤكد أن فتواه في مسألة الطلاق قد سببت له مشكلات مع القضاة، أنه قبل موت ابن القَيِّم بعام واحد حصل الصلح بين قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وبين الشيخ شمس الدين بن قَيِّم الحوزية، على يدي الأمير سيف الدين بن فضل ملك العرب، في بستان قاضي القضاة، وكان قد نقم عليه إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق.

وبعد هذه الحياة الحافلة بالجهاد المتصل لنشر منهج التابعين، ومحاربة كثير من الانحرافات التي ابتدعتها الخلف، وما لقيه من محن في سبيل ذلك، وبعد أن كَمُلَ له من العمر ستون سنة، توفي هذا الإمام العالم العلامة، وذلك في ليلة الخميس، ثالث عشر من شهر رجب، من سنة (٧٥١هـ) وقت أذان العشاء. وقد صُلِّيَ عليه رحمه الله من الغد عقب صلاة الظهر بالجامع الأموي، ثم

بجامع جَرَّاح، ولأن ابن القَيِّم رحمه الله كان قائماً لله بالحق، صادقاً في النصيح  
للخلق فقد كانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان  
والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه. فَرَحِمَ اللهُ  
ابن القَيِّم وشيخه ابن تيمية رحمة واسعة، وجزاهما عن الإسلام وأهله خيراً،  
وأسكنهما فسيح جناته إذ كان التلميذ على نهج أستاذه.

## السجين بسبب فتوى

عاش في بلاط الخاقان، لكن ما لبث أن أُلقي به في السجن لأنه أفتى بأن زواج الخاقان بعتيقته قبل أن تُمضي عِدَّتُها حرام ففضى نظيرَ ذلك في السجن ١٥ سنة من أجل فتوى أفتاها، فلما سُجن أَملى كتابه المبسوط في الفقه الحنفي حوالي ١٥ مجلداً رحمه الله رحمةً واسعة. إنه الإمام السرخسي من أكابر علماء الإسلام والمذهب الحنفي وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرْخَسِي، نسبةً إلى سَرْخَسَ بلد عظيم بخراسان.

وهو فقيه أصولي حنفي، أخذ الفقه والأصول عن عبدالعزيز الحلواني والسغددي، حتى صار من المجتهدين. وكان عالماً عاملاً ناصحاً للحكام. وكتب كتاب المبسوط وهو سجين، وهو أكبر كتاب في الفقه الحنفي مطبوع في ثلاثين جزءاً، كما كتب شرح السِّير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، وله شرح مختصر الطحاوي، وله في أصول الفقه كتاب من أكبر كتب الأصول عند الحنفية، ويعرف بأصول السرخسي، وما زال ضريحه شاخصاً في مدينة أوزجند بقرغيزستان.



كانت غربته ومحنته بسبب كلمة كان فيها من الناصحين سالكاً فيها طريق الراسخين صادعاً بالحق لتكون له ذخراً إلى يوم الدين فألقي به في السجن سنة ٤٦٦هـ، لأنه أفتى بأن زواج الخاقان بعتيقته قبل أن تُمضي عدتها حرام ففضى في السجن ١٥ عاماً. قال في المبسوط عند فراغه من شرح العبادات: هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات إملأء المحبوس عن الجمعة والجماعات. وقال في آخر كتاب الطلاق: هذا آخر كتاب الطلاق المؤثر من المعاني الدقاق، أملاه المحبوس عن الانطلاق المبتلى بوحشة الفراق، مصلياً على صاحب البراق، صلى الله عليه وآله وصحبه أهل الخير والساق، صلاة تتضاعف وتدوم إلى يوم التلاق. وقال في آخر كتاب العتاق انتهى شرح العتاق من مسائل الخلاف والوفاق، أملاه المستقبِل للمخن بالاعتناق المحصور في طرق من الآفاق حامداً للمهيمن الرزاق، ومصلياً على حبيب الخلاق، ومرتجٍ إلى لقائه بالأشواق وعلى آله وصحبه خير الصحب والرفاق. وقال في آخر شرح الإقرار: انتهى شرح كتاب الإقرار المشتمل من المعاني ما هو سر الأسرار، وأملاه المحبوس في موضع الأشرار مصلياً على النبي المختار. وقد أفرج عنه عام ٤٨٠ هجرية وتوفي عام ٤٩٠ هجرية رحمه الله رحمة واسعة.

## شهاد الثبات على السنة

كان جده أحد نقباء الدولة العباسية، وكان هو قوالباً للحق أماراً بالمعروف. إنه الإمام الكبير الشهيد أبو عبدالله أحمد بن نصر المروزي البغدادي. كان يحيى بن معين يترحم عليه ويقول: ختم الله له بالشهادة بعد اغتياله من قبل المعتزلة، فقد رافق الإمام أحمد بن حنبل وعاش معه محنة خلق القرآن ووصول المعتزلة للحكم. سمع من الإمام مالك، وحماد بن زيد، وابن عيينة، وهشيم وغيرهم.

وكانت غربته ومحنته التي رزقه الله الشهادة فيها أن خصومه وشوا به إلى إسحاق بن إبراهيم، فأخذه فقيده، ثم حمله إسحاق إلى مدينة سُرَّ مَنْ رَأَى، فجلس له الخليفة الواثق وقال له: دع عنك ما أخذت بسببه، وسأله في عقيدته فقال: ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله. قال: أفضخلق هو؟ قال: هو كلام الله. قال: أفتري ربك في القيامة؟ قال: كذا جاءت الرواية، فقال: ويحك يُرى كما يُرى المحدود المتحسم؟ يحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برّب هذه صفته.

ثم توجه الواثق إلى من عنده من العلماء فقال ما تقولون فيه؟ فقال عبدالرحمن بن إسحاق: هو حلال الدم، وأظهر ابن أبي دؤاد أنه كاره لقتله وقال للواثق: يا أمير المؤمنين شيخ محتل لعل به عاهة أو تغير عقل، أرى أن يؤخّر أمره. فقال الواثق: ما أراه إلا مؤدياً لكفره، قائماً بما يعتقد منه. ودعا الواثق بالسيف وقال: إذا قمتُ إليه فلا يقوم أحدٌ معي، فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد ربّاً لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التي وصفه بها. ثم أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيد، وأمر بشد رأسه بحبل، وأمرهم أن يمدوه ومشى إليه حتى ضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد، فنصب بالجانب الشرقي أياماً، وفي الجانب الغربي أياماً، وتبع أصحابه فوضعوا في الحبوس. وقال بعض الذين حضروه: رأيت أحمد بن نصر حين قُتل قال رأسه: لا إله إلا الله. وقال عنه أستاذه أحمد بن حنبل حين جاءه نعيه: رحمه الله لقد جاد بنفسه.

وعلقوا في أذنه رحمه الله ورقة فيها: هذا رأس أحمد بن نصر دعاه الإمام الواثق إلى القول بخلق القرآن، ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة، فجعله الله إلى ناره. وبقي رأسه منصوباً ببغداد، وبدنه مصلوباً بسامراء نحو ست سنين إلى أن أنزل، وجمع ثم دفن رحمة الله عليه.

## صلاة في السنة وسخاوة نفس

زار الإمام العجلي صاحب كتاب الثقات الإمام أحمد في سجنه أيام المحنة وكان مع الإمام أحمد تلميذه محمد بن نوح وهو شاب عالم صلب في السنة ثبت أيام فتنه القول بخلق القرآن حتى مات في قيده رحمه الله. إنه محمد بن نوح العجلي ناصر السنة، الذي حُمل مقيداً مع الإمام أحمد بن حنبل متزاملين، فمرض ومات بغابة في الطريق، فوليه الإمام أحمد ودفنه، وكان في الطريق يثبّت أحمد ويشجعه. وقد بلغ من فضله وجلالته أن قال عنه الإمام أحمد: ما رأيت أحداً على حداثة سنّه، وقدر علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد حُتم له بخير، قال لي ذات يوم: يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يُقتدى بك، قد مد الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله، واثبت لأمر الله، فمات، وصليت عليه، ودفنته.

ولما دخل العجلي على محمد بن نوح في سجنه كانت ثياب العجلي رثة فرآه ابن نوح فرق له وأخرج له دنائير كثيرة وقال له: خذ منها حاجتك؛ أراك رث الهيئة! فاعتذر منه العجلي وقال له متعجباً: لو كنتُ أحوج الخلق أحياء إلى أسير آخذ منه؟! قال عنه الخطيب: كان أحد المشهورين بالسنة. وقال

الصفدي: كان محمد عالماً زاهداً ورعاً مشهوراً بالسُّنة والدين والثقة، امتحن بالقول بخلق القرآن فثبت على السنة.

وكانت غربته ومحنته التي اختاره الله فيها شهيداً حينما كتب المأمون وهو بالرقعة إلى إسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة ببغداد بحمّل أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح إليه بسبب المحنة، فأخرجوا من بغداد على بعير متزاملين، ثم إن محمد بن نوح أدركه المرض في طريقه فمات فصلّى عليه أحمد ودفنه وترخّم عليه.

فقد وقعت فتنة خلق القرآن في العصر العباسي، وأدّت إلى إيذاء كثير من العلماء أشهرهم أحمد بن حنبل وتلاميذه، فأحضر إسحاق بن إبراهيم القضاة والمحدثين وكل من تصدى للفتوى والتعليم والإرشاد، فاخترهم وامتحنهم، وأرسل إجاباتهم عن مسألته في خلق القرآن إلى المأمون، فأرسل المأمون كتاباً يبين سخف هذه الإجابات في نظره، ويجرح المجيبين، ثم ذكر في هذا الكتاب عقوبات لمن لم يقل مقالته، إذ أمر بحمّل من لم يقل ذلك إليه مؤثماً. وقد سارع إسحاق بن إبراهيم إلى تنفيذ رغبته، فأحضر المحدثين والفقهاء والمفتين، وفيهم أحمد بن حنبل، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة والعذاب العتيد إن لم يُقرّوا بما طُلب منهم، ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم وأعلنوا اعتناق ذلك

المذهب إلا أربعة منهم أصروا على موقفهم إصراراً جريئاً، وهم: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والقواريري، وسجادة، فشُدوا في الوثاق، وكبلوا بالحديد، وباتوا ليلتهم مصفّدين في الأغلال، فلما كان الغد أجاب سجادة إسحاقَ فيما يدعو إليه، فخلّوا عنه وفكّوا قيوده، واستمر الباكون على حالهم، وفي اليوم التالي، أعيد السؤال عليهم، وطُلب الجواب إليهم، فنخرت نفس القواريري وأجابهم إلى ما طلبوا ففكوا قيوده، وبقي اثنان، فسيقا في الحديد ليلتقيا بالمأمون في طرسوس، وقد توفي محمد بن نوح في الطريق. وأما الذين أجابوا فقد طُلب منهم أن يواجهوا المأمون أحراراً، فقدموا كفلاءً بأنفسهم ليؤافوه بطرسوس ولا حول ولا قوة إلا بالله.

## المدفون في قيوده

محدّث وُلد في مَرو، وأقام مدة في العراق والحجاز يطلب الحديث، ثم سكن مصر، ولم يزل فيها إلى أن حُمِل إلى العراق في خلافة المعتصم، وامْتَحَن في مسألة خلق القرآن، فلم يُجِب وَقَيَّد، ومات في الحبس. له تصانيف وهو شيخ البخاري. إنه نعيم بن حماد بن سلمة (ت ٢٢٨ هـ).

روى له البخاري ومسلم وقال عنه الإمام الذهبي: وأما نعيم فهو ثقة في نفسه. وكان صاحب سُنّة. وقد صنّف كتاب الفتن وطلب الحديث طلبًا كثيرًا بالعراق والحجاز. ومات سنة ثمان وعشرين ومائتين.

وكانت غربته وفتنته التي اختاره الله فيها شهيداً أنه نزل مصر فلم يزل بها حتى أشخص منها في خلافة أبي إسحاق بن هارون، فسئل عن القرآن، فأبى أن يجيب فيه بشيء مما أرادوه عليه، فحُبِس بسامراء، فلم يزل محبوسًا بها حتى مات في السجن وكان مقيدًا محبوسًا؛ لامتناعه من القول بخلق القرآن، فحُجِرَ بأقياده، وألقي في حفرة، ولم يُكفَّن، ولم يُصلَّ عليه ودُفن في قيوده كما أوصى. وكان من فعل به ذلك المعتصم وابن أبي دؤاد.

## ضحية التعصب المذهبي

مفسّر ومؤرّخ وفقهه، ولُقّبَ بإمام المفسّرين، ولد بأمل عاصمة إقليم طبرستان، ارتحل إلى الري وبغداد والكوفة والبصرة، وذهب إلى مصر فسار إلى القسطنطينية في سنة ٢٥٣ هـ وأخذ على علمائها علومَ مالك والشافعي وابن وهب، ورجع واستوطن بغداد. إنه محمد بن جرير الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري.

وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنن وطُرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وعُرِضَ عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى، له العديد من التصانيف، يقول ياقوت الحموي: وجدنا في ميراثه من كتبه أكثر من ثمانين جزءاً بخطه الدقيق، ومنها: اختلاف علماء الأمصار، وهو أول كتاب ألفه الطبري، وكان يقول عنه: لي كتابان لا يستغني عنهما فقيه: الاختلاف واللطيف، وألف جامع البيان في تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري وتاريخ الأمم والملوك، المعروف بتاريخ الطبري، وتهذيب الآثار، وذيل المذيل، ولطيف القول في أحكام شرائع الإسلام،



وبسيط القول في أحكام شرائع الإسلام، وكتاب القراءات، وصريح السنة،  
والتبصير في معالم الدين، وتوفي في شهر شوال سنة ٣١٠ هـ، ودفن ببغداد.

وكانت غربته وفتنته التي مات فيها أنه تعرض لمحنة شديدة في أواخر حياته  
بسبب التعصب المذهبي، فلقد وقعت ضغائن ومشاحنات بين ابن جرير  
الطبري ورأس الحنابلة في بغداد أبي بكر بن أبي دؤاد أفضت إلى اضطهاد  
الحنابلة لابن جرير، وتعصّب العوام على ابن جرير ورموه بالتشيع وغالوا في  
ذلك. حتى منعوا الناس من الاجتماع به، وظل ابن جرير محاصرًا في بيته حتى  
تُوفي رحمه الله.

## شهيد العلم

محدّث وقاضٍ، وأحد أئمة الحديث النبوي الشريف، صاحب السنن الصغرى والكبرى، المعروف بسنن النسائي، ولد سنة ٢١٥ هـ في بلدة نسا من بلاد خراسان قديماً وتقع في تركمانستان حالياً. إنه أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي.

طلب العلم والحديث وهو صغير، فرحل إلى خراسان والحجاز والعراق والشام والجزيرة العربية ثم استوطن مصر، ورحل الحفظ إليه، خرج إلى دمشق فوجد المنحرفين بها عن الرأي الصحيح في عليّ بن أبي طالب كثيرين، فألف كتاباً في خصائص عليّ فأوذى بسبب ذلك، وتوفي في سنة ثلاث وثلاثمائة، له العديد من المصنفات أشهرها السنن، وصنف أيضاً في الضعفاء والمتروكين، وفضائل الصحابة، له كتاب في التفسير.

وأقوال العلماء في فضله كثيرة ومنها:

أبو عبدالرحمن إمام أئمة المسلمين.

هو إمام أو يستحق أن يكون إماماً.

النسائي إمام في الحديث بلا مدافعة.

وكان من أشهر شيوخه محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج وأبو عيسى محمد الترمذي وأبو داود.

وكانت غربته وفتنته التي اختاره الله فيها شهيداً حين خرج من مصر في طريقه إلى دمشق في شهر ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثمائة، فقتل شهيداً بمدينة القدس على يد جماعة من الشباب الذين تنازعوها معه على كتابة كتاب باسم معاوية. فقد خرج من مصر إلى دمشق والمنحرفون بها عن علي كثيرين، فصنف كتاب تهذيب خصائص الإمام عليّ رجاءً أن يهديهم الله عز وجل، فسئل عن فضائل معاوية فقال: أي شيء أقول؟! ما أعرف له من فضيلة إلا حديث: اللهم لا تُشعب بطنه! فضربوه في الجامع الأموي على خصيئته وداسوه حتى أُخرج من الجامع الأموي، ثم حمل إلى الرملة فمات شهيداً رحمه الله.

## ضحية الظن السيئ

الإمام العالم العَلَّامة، الحافظ المَجُود، شيخ خُرَّاسان، أحد أوعية العلم الكبار، ورجل من كبار رجالات الحديث أبو حاتم محمد بن حَبَّان البُسْتِي، صاحب الكتب الشهيرة، والمصنفات الفائقة، ولد في مدينة بُست من أعمال سجستان في خُرَّاسان بإيران سنة ٢٧٣هـ، وأخذ في طلب الحديث منذ بواكيره، وخرج على عادة طلاب الحديث لرحلة علمية كبيرة وواسعة لسماع الحديث من شيوخه وأعلامه في شتى أرجاء الدولة الإسلامية؛ فطاف أولاً أقاليم خُرَّاسان كلها، ثم العراق، ودخل مصر والشام، والسواحل والحجاز واليمن، حتى إنه قد حمل العلم والحديث عن أكثر من ألفي شيخ، فبها لها من همّة عالية رفعته إلى مصافِّ علماء الأمة الكبار، وحفاظها المعروفين.

لابن حَبَّان مصنفات كثيرة وشهيرة لم يبق منها للأسف الشديد سوى النَّدْر اليسير، أشهرها على الإطلاق كتاب الأنواع والتقسيم، الذي أطلق عليه أهل العلم اسم (المسند الصحيح) وهو كتاب لا يقدر على الإفادة منه إلا من حفظه تماماً. وقد التزم ابن حَبَّان فيه بنظام دقيق، قال هو عنه في مقدمته: شرطنا في نقله ما أودعناه في كتابنا ألا نحتج إلا بأن يكون في كل شيخ فيه خمسة أشياء: الأول: العدالة في الدين بالستر الجميل، الثاني:

الصدق في الحديث بالشهرة فيه، الثالث: العقل بما يحدث من الحديث، الرابع: العلم بما يجيل المعنى من معاني ما روى، الخامس: تعري خبره من التدليس.

كما كانت له كتب أخرى مشهورة مثل: التاريخ، الضعفاء، العلل، مناقب الشافعي، موقوف ما رُفِعَ، الهداية، وكتب كثيرة ضاعت بسبب فساد الأحوال؛ ذلك لأنه قد أوقفَ كُتُبَهُ كُلَّهَا لطلبة العلم في داره، فلما انتشرت الفتن والاضطرابات، وضعف أمر الخلافة والسلطان، استولى المفسدون على داره، وضاعت كتبه العلمية.

وكان لابن حبان مكانة كبيرة، ومنزلة عالية في سماء علم الحديث، بحيث كان ممن يُشَدُّ إليه الرحال لسماع كتبه وأسانيده، وقد اعترف له معاصروه، ومن جاء بعده بالعلم والفضل والتقدم؛ فهذا تلميذه أبو عبدالله الحاكم، وهو من كبار علماء الحديث، وصاحب كتاب المستدرک، يقول عنه: كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة، والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال، وقد أقام عندنا في نيسابور، وبنى مدرسة، وقرئ عليه جملة من مصنفاته، ثم خرج إلى وطنه سجستان عام ٣٤٠هـ، وكانت الرحلة إليه لسماع كتبه.

ومُفاد غريته ومحنته التي نجح الله منها أن الإمام ابن حبان أثناء إلقاءه لأحد الدروس في نيسابور سئل عن النبوة فقال: النبوة العلم والعمل، وكان يحضر مجلسه بعض الوعاظ؛ فقام إليه واتهمه بالزندقة، والقول بأن النبوة مكتسبة، وارتفعت الأصوات في المجلس، وهاج الناس بين مؤيد للتهمة، ونافٍ لها، وخاضوا في هذا الخبر على كل وجه، حتى كتب خصوم ابن حبان محضراً بالواقعة، وحكموا عليه بالزندقة، ومنعوا الناس من الجلوس إليه، وهُجر الرجل بشدة، وبالغوا في أذية ابن حبان، وتمادوا في ذلك حتى كتبوا في أمر قتله وهدر دمه إلى الخليفة العباسي وقتها، فكتب بالتحري عن الأمر، وقتله إن ثبتت عليه التهمة، وبعد أخذ ورد اتضحت براءة ابن حبان، ولكنهم أجبروه على الخروج من نيسابور إلى سجستان، وهناك وجد أن الشائعات تطارده، والتهمة مازالت تلاحقه، وتصدى له أحد الوعاظ هناك، واسمه يحيى بن عمار، وظل يؤلب عليه حتى خرج من سجستان، وعاد إلى بلده بُست، وظل بها حتى مات رحمه الله مهموماً محزوناً من الأباطيل، وتهم الزندقة والإلحاد.

ولكن هل مجرد كلمة واحدة تجلب على هذا العالم الفذ كل هذه المتاعب؟ إن هذه الكلمة وأمثالها قد تفعل مثل ذلك وزيادة إذا ألقيت على أسماع من

لا يفهم اللغة ومدلولاتها، وأيضًا إذا أقيمت على أسماع الحاسدين والموتورين، الذين يتربصون بأمثال هذا العالم العلامة الدوائر، وينتظرون أية مناسبة وفرصة، ولو بشطر كلمة للنيل منه.

فإن مقولة النبوة العلم والعمل يقولها المسلم، ويقولها الزنديق، يقولها المسلم ويقصد بها مهمة النبوة، إذ من أكمل صفات النبي العلم والعمل، فما من نبي قط إلا وهو على أكمل حال من العلم والعمل، وليس كل من برز فيهما نبيًا، لأن النبوة محض اصطفاء من الله عز وجل، لا حيلة للعبد في نيلها، ولا اكتسابها، وابن حبان لم يرد حصر المبتدأ في الخبر، وذلك نظير قوله صلى الله عليه وسلم: الحُجُّ عَرَفَةُ، ومعلوم أن عرفة هو ركن الحج الأعظم، ولكن لا يكفي وحده حتى يصير العبد حاجًا، بل هناك أركان وفروض أخرى لشعيرة الحج، ولكن عرفة ركن الحج الأعظم، كما أن العلم والعمل مهم للنبوة، وهذا ما قصده وأراد ابن حبان، وهذا ما يجب أن يُحمل كلامه عليه، وهذا اللائق بمكانته وعلمه، وأيضًا اللائق بخلق المسلم الصادق الذي يُحسن الظن بإخوانه المسلمين، وأيضًا هذه الكلمة يقولها الفيلسوف الزنديق وهو يقصد بها أن النبوة مكتسبة، يُتجها العلم والعمل، وكثرة الرياضات والمجاهدات، وهذا كفر مخالف للقرآن ولل سنة، وإجماع المسلمين، وهذا ما لا يريده ابن حبان ولا

يقصده أبدأ، وحاشاه، فهو من كبار علماء الأمة وأئمتها، ولكن الجهل والحقد والحسد أعمى قلوب معارضيه حتى خاضوا فيه، وأجبروه على الرحيل من مكان لآخر حتى استقر في بلده وبها مات، وما أشبه هذه الحادثة بما جرى للبخاري؛ فرحم الله الرجلين، وأجزل لهما المثوبة، وجعل من أبناء الأمة من يذُبُون عن أعراضهم، ويدفعون عنهم الأباطيل والأكاذيب، ويكشفون بطلان تهم خصومهم، ويعرّفون أبناء المسلمين حقيقة علماء هذا الدين.



## شهيد المهدي المنتظر!

قاضي مالكي وعالمة وفقهه ومؤرخ كان من بين الناس العارفين بعلوم عصره. وكان أجداده قد نزلوا مدينة بسطة الأندلسية من نواحي غرناطة واستقروا بها، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس المغربية، ثم غادرها جده إلى مدينة سبتة حوالي سنة ٣٧٣ هـ. واشتهرت أسرته بسببته؛ لما عُرف عنها من تقوى وصلاح. إنه القاضي أبو الفضل عياض بن موسى السبتي. وشهدت هذه المدينة مولد عياض في ١٥ شعبان ٤٧٦ ونشأ بها وتعلم، وتلمذ على شيوخها. وجلس للمناظرة وله نحو ثمان وعشرين سنة. وولي القضاء وله خمس وثلاثون، حتى وصل إلى قضاء سبتة ثم غرناطة، فذاع صيته وحمد الناس سيرته.

وكانت غربته وفتنته التي اختاره الله فيها شهيداً رفضه الاعتراف بابن تومرت الذي ادعى أنه هو الإمام المهدي المنتظر. وقد أمر أن يؤلف كتاباً يُقر فيه أن ابن تومرت المهدي المنتظر. وعند قتله انغرزت الرماح في جسده وقطع أشلاءً. وجمع ودفن بدون جنازة ولا غسل كأنه واحد من غير المسلمين، ثم أعطوا تلك المنطقة للنصارى فبنوا بجوار قبره كنيسة وبعض الدور. وعثر على قبر القاضي عياض سنة ٧١٢ هـ في عهد الدولة المرينية والتي أسقطت دولة الموحدين، وفرح الناس والعلماء بذلك الأمر بشدة، وأمر القاضي أبو إسحاق

بن الصباغ بتسوية ما حول القبر وإشهاره وإظهاره، واجتمع الناس عنده  
وصلّوا عليه مرات كثيرة. قتل القاضي عياض في مراكش ودفن بها سنة ٥٤٤ هـ.  
و. ودفن في حي هيلانة مع مولاي علي الشريف في نفس المكان.

## ناصر الولاية

ولد في مدينة طرطوشة الأندلسية وحفظ فيها القرآن وتعلم القراءة والكتابة. وانتقل إلى سرقسطة وتلمذ على يد أبي الوليد الباجي. وذهب في عام ٤٧٦ هـ في رحلة للمشرق الإسلامي، فاتجه إلى مكة ليؤدي الحج ثم قصد بغداد والبصرة ومكث فيهما مدة من الزمن يتفقه على علماء العراق. إنه أبو بكر محمد المعروف بأبي بكر الطرطوشي الفقيه المالكي، صاحب كتاب سراج الملوك في سلوك الملوك.

ثم توجه بعدها إلى الشام، فزار حلب وإنطاكية ونزل بمدينة بيت المقدس. وقصد بعد الشام الإسكندرية ومكث فيها معلماً للفقهاء والحديث. وتزوج بسيدة من الإسكندرية أهدته بيتهما فجعل من الطابق العلوي داراً له ومن الطابق الأسفل مكاناً لتلقين العلم.

ثم اتجه الطرطوشي إلى القاهرة لينصح حاكم البلاد الفاطمية الوزير الأفضل بن بدر الجمالي إذ كان الجمالي ظالماً مستبداً بشعبه. وكان مما قاله للوزير: واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يديك مثل ما صار إليك؛ فاتق الله فيما حولك من هذه

الأمة، فإن الله سائلك عن النكير والقطمير والفتيل، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

ثم حطَّ الطرطوشي مع صاحبه الزاهد أبي محمد السايح في مدينة رشيد في حدود عام ٤٩٠ هـ وحاكم مصر الحقيقي آنذاك الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الوزير الطاغية الشهير، تحت خلافة ابن أخته الخليفة الضعيف المستعلي بالله الفاطمي، وقد عاشا معاً على بيع الحطب والملح، متقشقين قانعين بهذا الرزق، حتى عُرف الطرطوشي بين أهل البلدة بعلمه وزهده.

وفي تلك الأثناء كان طغيان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي قد بلغ ذروته حتى قتل جموعاً من فقهاء الإسكندرية من المالكية ممن أيدوا حق الابن الأكبر نزار بن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في استعادة الخلافة من أخيه الأصغر المستعلي، لكن الوزير الطاغية قتلهم وقتل ابن الخليفة الأكبر، وختل المدينة من كبار العلماء الذين يُرشدون الناس ويهدونهم سواء السبيل، فحمل قاضي المدينة ابن حديد وجماعة من أصحابه أنفسهم إلى مدينة رشيد حين سمعوا بوجود العلامة الطرطوشي بها، ودعوه للمجيء إلى الإسكندرية لبيت علمه بها.

ولكن الطرطوشي رفض القدوم إلى الإسكندرية إلا بموافقة صاحبه الزاهد أبي محمد السايح الذي رفض هو الآخر هذا الأمر، لكنه وافق على المجيء معهم بعد ضغط، وفي مقابل توفير رغيف من الشعير من مال حلال كل يوم، وهو ما ضمنه له قاضي الإسكندرية، وفي هذه المدينة الساحلية التي كانت ثغراً ورباطاً لمواجهة الأعداء بدأ أبو بكر الطرطوشي الأندلسي حياة جديدة، فقد انكبَّ على تعليم العلم، ورأى فيه طلبة المدينة رجلاً زاهداً عالماً تقياً ورعاً فالتفتوا حوله، حتى بلغ صيته آفاق المدينة، وسعى إلى تجديد معالم الدين الذي رآه مندرساً بها، وعن ذلك القدوم إلى الإسكندرية يقول الطرطوشي: إن سألتني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لَمَّا كانت عليه في أيام الشيعة العبديّة (الفاطميون) مِنْ تَرْكِ إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم، أقول له: وجدتُ قوماً ضلّالاً فكنتُ سبب هدايتهم.

وفي المدينة تحسّنت حالته المادية كثيراً، إذ تزوج امرأة موسرة، فأطلقت يده في أموالها، ووهبته داراً من أملاكها، وجعل سكنه معها في الطابق الأعلى، واتخذ من الطابق الأسفل مدرسة يُلقِي فيها دروسه، ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين على الإسكندرية، وكانت هذه السيدة من كبريات عائلات المدينة آنذاك، علماً ودينياً وتقوى، وكانت خالة تلميذ الطرطوشي

الأشهر العالم السكندري الطاهر بن عوف، فارتاحت نفسه معها، وأنجب منها أبناءه، وتفرغ للتدريس ونشر العلوم.

وكان الطرطوشي رجل علم بارعاً، ذا فطنة ونباهة عالية، فقد أثر استخدام أساليب جديدة في التعليم والتربية، على غرار التربية الحديثة التي يأخذ فيها الأستاذ طلبته إلى الطبيعة لتكون دروسهم وعلومهم فيها، فيروي تلميذه أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن التُّجيجي الإسكندري أن شيخه الطرطوشي كان صاحب نُهمة مع طلبته في أكثر الأوقات، يخرج معهم إلى البُستان فيقيمون الأيام المتوالية في فرحة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدر في حق الطلبة، بل يدلُّ على فضلهم وسلامة صدرهم، وخرجنا معه في بعض المنزهة فكنا ثلاثمائة وستين رجلاً؛ لكثرة الآخذين عنه، المحبين صُحبته وخدمته.

ثم كانت غربته وفتنته التي نجاه الله منها فقد أثارت هذه الضجة التي صارت ملازمة للعلامة الطرطوشي نفسَ قاضي المدينة مكين الدولة أبي طالب أحمد بن عبدالمجيد بن أحمد بن حديد، وكان هذا الرجل صاحب جاه وعزٍّ وثروة هائلة، وقصور ورياض، كما كانت أسرته تتعاقب على منصب القضاء في المدينة منذ أجيال، وهو منصب كان يلي منصب أمير المدينة وحاكمها في السلطات المخوّلة له، قضائياً ومالياً وإدارياً، فكان يُشرف على الأوقاف

والجزية التي كانت تُجمع من أهل الذمة، وعلى دار ضرب النقود، وعلى الضرائب كل ذلك جعله صاحب يد باطشة، وأموال وحشم وثروة.

وقد أغضبه ما تمتع به الطروشني من الشهرة والمكانة، فضلاً عن انتقاداته اللاذعة لكل ما رآه يُغضب الله ويُسخطه مثل فرض الضرائب بغير حق، واستيراد بعض الأطعمة من بلاد الروم، بل ربما تعدى ذلك إلى انتقاد القاضي نفسه وحياته الباذخة المترفة فضلاً عن أسرته، وكان الطروشني يذكر بني حديد ذكراً قبيحاً؛ لما كانوا عليه من أخذ الضرائب، والمعونة على المظالم.

شكا القاضي ابن حديد وعائلته في الطروشني وقد لاقت شكواهم مسامعها عند حاكم مصر المطلق، الأفضل بن بدر الجمالي، وكان هذا القاضي ممن يقدمون خدمات جليلة للدولة الفاطمية مالياً واقتصادياً وأمنياً حتى لو بفرض المظالم كما رأينا، فأمر الوزير الأفضل على الفور بإحضار الطروشني إلى القاهرة.

وفي القاهرة أصدر الأفضل قراره بوضعه في الإقامة الجبرية بمسجد الرصد جنوب مدينة الفسطاط دون أن يمكّنه من التواصل مع أحد من الناس، وسمح له ببقاء خادمه معه، وبنفقة شهرية عدة دنانير، وطالت إقامة الطروشني الجبرية لأشهر في ذلك المكان المنعزل عن أهله وتلامذته، وعن حرّيته التي

افتقدها في قول الحق، وفي التأليف والكتابة والتدريس، واشتدت نغمته وكرهيته لهذا الطاغية الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي.

ولما طال المقام به في معتقله قال لخادمه: إلى متى نصبر؟! ثم أخذ يدعو ثلاثة أيام على الطاغية، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه: لقد أصبته الساعة. فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل. أي أنه اعتكف يصلي ويدعو الله على هذا الظالم الطاغية الذي لاقى مصرعه على يد مساعده الأمير المأمون البطائحي بدعم من الخليفة المغلوب على أمره الأمر بالله في اليوم الثالث من تضرع الطرطوشي، وذلك في سنة ٥١٥ هـ.

وكان ارتقاء المأمون البطائحي لمنصب الوزارة الفاطمية بمساعدة ومباركة الخليفة الأمر بالله بداية جديدة للطرطوشي؛ إذ كان البطائحي ممن يُجِلُّ هذا العالم الزاهد، وقد رأى منه موقفاً صلباً أمام تجرُّب الأفضل، وتحذيره ونصيحته وتخويفه من عقاب الله، وقد أدرك الطرطوشي من ناحيته صدق نية البطائحي، فعاد إلى الإسكندرية وعكف لأكثر من عام كامل على تأليف كتابه الأشهر سراج الملوك الذي قرر إهداءه للبطائحي ليكون عوناً له على الحكم، ونصيحة له من الشطط، وإبرازاً لقضايا الشرع الشريف، وبالفعل رجع



إلى القاهرة عام ٥١٦ هـ فأهداه الكتاب، وطالبه بتغيير منكرات تتعارض  
والمذاهب السُّنية، واستطاع البطائحي تحقيق رغبات الطرطوشي.

## اثنان من علماء المغرب والأندلس

لم ينبُج بعض علماء بلاد المغرب والأندلس من تجربة السجن بسبب الآراء الفقهية المخالفة؛ فقد سُجن عدد من فقهاء المالكية في عهد الدولة الموحدية لأنهم خالفوا المذهب الظاهري السائد وقتئذ. ويروى أنه لما أمر السلطان الموحدى يوسف بن يعقوب بعدم قراءة كتب الفروع عامة والمالكية خاصة، استمر الفقيه المالكي محمد بن زرقون (١١٠٩ - ١١٩٠) في تدريس الفقه المالكي متحدياً أمر السلطان، فسُجن وأُحرقت كتبه.

وجاء سجن الفقيه الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب (١٣١٣ - ١٣٧٤) محصلة لصراعات سياسية محلية وخلافات حول أفكار الرجل التي لم ترق لبعض معاصريه.

كما أن قاضيين هما أبو الحسن البناهي قاضى غرناطة وابن زمرك الغرناطى وجها تهماً لابن الخطيب وعملا على إذكائها لدى السلطان المريني أبو العباس بن أبي سالم (١٣٥٥ - ١٣٩٩). وإذا كانت بعض هذه التهم تعلق بتجاوزاته مثل الإكثار من شراء الدور والتلذذ المفرط بمفاتيح الدنيا واستغلال منصبه للعبث بالبشر وهتك الأعراض وهروبه من بلاده الأندلس إلى المغرب، فإن منها أيضاً ما ارتبط بفكر الرجل الذي اتهم بالزندقة إذ زعم القاضيان وغيرهما أن ابن الخطيب، وهو شاعر وفقه مالكي، يوظف آيات قرآنية وأحاديث نبوية بطريقة غير صحيحة وغير لائقة تدخل في قالب

الاستهزاء والازدراء. وأُثم ابن الخطيب أيضاً بإنكار نفع الرقية ووصف مستعمليها بالحمقى، وجاءت هذه التهمة في فترة شهدت اجتياح الطاعون للبلاد، وثار على خلفيتها سجل فقهي، أسفر عن إدخال ابن الخطيب إلى السجن حيث قُتل فيه خنقاً ودفن بمقبرة في باب المحروق، وفي اليوم التالي أخرجت جثته وأضُرمت فيها النيران قبل أن يُعاد دفنه.

## اثنان من المتصوفة

دخل بعض حكام المغرب خاصةً في الدولة المرابطية في صدام عنيف مع الصوفية نتيجة تحركهم في المجتمع بموازاة السلطة السياسية وتجاوز خطوطها أحياناً. وظهرت معارضة الصوفية جلية عقب إحراق كتاب الإحياء لأبي حامد محمد الغزالي في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، وتحديدًا عام ١١٠٩ بعدما أنكر فقهاء بعض ما جاء فيه؛ لذا وظفت السلطة آليات مختلفة في مواجهة الصوفية، فأغدقت الأموال على من يسهل استقطابُه، وسجنت عدداً منهم خاصةً في عهد الأمير ابن تاشفين لأسباب متعددة، وإن كانت كلها تلتقي حول عدم انسجامهم مع سياسة هذا الأمير.

في هذا السياق، لم تكن أفكار المتصوف أحمد بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف منسجمة مع الخط المذهبي الذي سطره فقهاء الدولة المرابطية، إذ تشبّع بأراء الغزالي، وكان ذلك كفيلاً بأن يشي قاضي المرية أبو بكر الغساني ابن الأسود به لدى الأمير الذي أمر بدوره بنقل المتصوف من المرية إلى مراكش مكبلاً، إلا أن ابن تاشفين أحس بالندم تجاه تصرفه حيال الرجل فأمر بتسريحه عندما وصل سبتة. غير أن ابن العريف لم يُقم طويلاً بمراكش إذ توفي بها سنة ١١٤٢، وقيل إنه قتل بسُمّ أرسله إليه ابن الأسود.

وكان السجن مآل المتصوف أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن حرزهم (توفي سنة ١١٦٤) والذي أودع بسجن فاس بعدما أصبح المتصوف

مصدر إزعاج للسلطة بفعل تزايد إقبال الناس عليه. وقبل أن يحمل إلى سجن  
فاس أودع بسجن مراكش.

## شهيد من حلب

طالب شامي من مواليد حلب كان يدرس بالأزهر الشريف، وكان عمره ٢٤ عاماً حين قرر اغتيال قائد الحملة الفرنسية على مصر الجنرال كليبر أو ساري عسكر كما أطلق عليه الجبرتي. إنه سليمان ونس الحلبي (١٧٧٧-١٨٠١م).

سافر سليمان الحلبي من حلب إلى القدس وبعد أيام سافر من غزة في قافلة صابون ودخان، ووصل القاهرة بعد ٦ أيام. ذهب إلى الأزهر وسكن هناك وعرف بعض الساكنين معه وهم من مدينة حلب أنه حضر لمقاومة الاحتلال الفرنسي.

كان والده المتدين محمد أمين يعمل في مهنة بيع السمن وزيت الزيتون. وأورد المؤرخون السوريون ومؤرخو مدينة حلب أن سليمان الحلبي عربي من حلب وهذا هو الأرجح كون عفرين لم تكن جزءاً من حلب في تلك الفترة وهو كما ورد من عائلة ونس وهي عائلة حلبية من مدينة حلب حي البيضاة ولقبه الحلبي نسبة إلى مدينة حلب.

كان عمر سليمان ٢٤ عاماً حين اغتال قائد الحملة الفرنسية على مصر كليبر، الذي كان معه كبير المهندسين في بستان داره بحي الأزبكية (وهو مقر القيادة العامة بالقاهرة)، فتنكر سليمان الحلبي في هيئة شحاذ ودخل عليه في حديقة قصره يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠م، وتسلسل سليمان الحلبي إليه وشده بعنف وطعنه ٤ طعنات متوالية أردته قتيلاً، وحين حاول كبير المهندسين الدفاع عن كليبر طعنه أيضاً ولكنه لم يمت، فاندفع جنود الحراسة الذين استنفروهم الصراخ ليجدوا قائدهم قتيلاً، وامتألت الشوارع بالجنود الفرنسيين وخشي الأهالي من مذبحه شاملة انتقاماً من الاغتيال، بينما تصور الفرنسيون أن عملية الاغتيال هي إشارة لبدء انتفاضة جديدة، أما سليمان فقد اختبأ في حديقة مجاورة. إلى أن أمسكوا به ومعه الخنجر الذي ارتكب به الحادث (والذي يحتفظ به الفرنسيون إلى يومنا هذا في متحف الإنسان بقصر شايو في باريس مع جمجمة سليمان الحلبي في علبة من البلور مكتوباً تحتها: جمجمة مجرم).

لم تستغرق المحاكمة أكثر من أربعة أيام، حققوا معه ومع من عرف أمره من مشايخ من الأزهر الذين حاولوا ثنيه عن الأمر دون إبلاغ السلطة الفرنسية، وأصدر القائد الجديد مينو في اليوم نفسه أمراً بتكليف محكمة عسكرية بتاريخ

١٥ و١٦ يونيو ١٨٠٠ لمحاكمة قاتل كليبر، وكانت هذه المحاكمة مؤلفة من ٩ أعضاء من كبار رجال الجيش، وكانت برئاسة الجنرال رينيه، وحكموا عليهم حكماً مشدداً بالإعدام. كما حكموا عليه بحرق يده اليمنى وبعدها يتخوزق ويبقى على الخازوق لحين تأكل جثته الطيور، ونفذوا ذلك في مكان علني يسمى تل العقارب بمصر القديمة، على أن يقطعوا رؤوس الأزهرين أولاً ويشهد سليمان إعدام رفاقه ممن عرفوا أمره ولم يبلغوا الفرنسيين بالمؤامرة، ومن ثم يحرق بارتيليمي يد سليمان الحلبي ثم يرسله إلى خوزقته، وعلى الخازوق راح الحلبي يردد الشهادتين وآيات من القرآن، وقد ظل على تلك الحال أربع ساعات، حتى جاءه جندي فرنسي مشفقاً لحاله فأعطاه بعد خروج الجميع كأساً ليشرّب منه معجلاً بذلك بموته في الحال رحمه الله.



## من علماء الإيجور في الصين

أثارت وفاة داعية إسلامي بارز من أقلية الإيجور في سجون الصين، موجة استنكار واسعة في العالم العربي، حيث نعاه الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، مشيداً بمكانته العلمية والدينية البارزة، فيما طالب البعض بالكشف عن الجرائم التي ترتكبتها السلطات الصينية بحق أقلية الإيجور المسلمة.

وأعلن اتحاد علماء تركستان الشرقية استشهاد الشيخ محمد أمين جان دامولام في زنانه الانفرادية في أحد السجون الصينية، مشيراً إلى أنه كان من العلماء القلائل الذين كرسوا حياتهم للتعليم والتربية وكان مدرساً في العلوم الإسلامية في بلادنا الحبيبة تركستان الشرقية، وكان له مكانة خاصة في قلوب المسلمين الإيجور.

وأدان الاتحاد بشدة جريمة قتل الشهيد محمد أمين جان دامولام في السجن، والجرائم التي ارتكبتها المعتدون الصينيون بحق شعب الإيجور. ودوّن مرصد الأقليات المسلمة، وهو مختص بنقل أخبار أقلية الإيجور استشهاد محمد أمين في سجون الصين الشيوعية الإرهابية عن عمر ٥٦ سنة، وكان من كبار علماء تركستان الشرقية المحتلة، كان ورعاً مجتهداً فقيهاً حاملاً للكتب الستة،

وهو آخر عالم من سلسلة من العلماء والحفاظ والأئمة قتلتهم الصين بهدف  
محو الإسلام من ذاكرة شعب الإيغور وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كما نعى الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، الشيخ محمد أمين جان دامولام،  
معتبراً أنه كان رجلاً ذا موهبة علمية وأخلاق عالية، وذا اطلاع واسع لما  
يجري في العالم، وكان دائماً يجتمع مع العلماء الآخرين ويطلعهم على الفتاوى  
والقضايا الجديدة بالعالم الإسلامي. ومن فضائله أنه كان يتجنب دائماً  
الخلافات والمشاجرات بين المسلمين، ويعمل بجد في تطوير مناهج تدريس  
العلوم الإسلامية وابتكر طرقاً جديدة وسريّة لاستمرار التدريس، وكان يجتهد  
لخلق بيئة صحية وملائمة في أوساط المسلمين.

وقد وُلد الشيخ محمد أمين جان دامولام عام ١٩٦٤ في محافظة غوما، التابعة  
لإقليم تركستان الشرقية (شينجيانغ)، وكان شغوفاً بالتعلم والتدريس منذ سن  
مبكرة، وبعد إكمال تعليمه الابتدائي لدى شيوخ قريته في غوما، انتقل إلى  
مدرسة العالم الجليل عبدالحكيم مخدوم في مدينة قارغاليق التابعة لكاشغر  
وهي مدرسة سرية بطبيعة الحال، وأكمل دراسته هناك، وكان من الطلاب  
المميزين باجتهاده وبتفانيه في الدراسة. وبعد أن أنهى دراسته في العلوم  
الإسلامية تفرغ للتدريس في مختلف مدن ومقاطعات تركستان. كما أن

الدروس الدينية لم تتوقف بتركستان الشرقية في الظروف الصعبة والعواصف الشديدة بسبب القبضة الحديدية للصين الشيوعية.

وكان الشيخ محمد أمين معلماً مباشراً للغالبية العظمى من علماء الجيل الثاني في تركستان الشرقية، وفي نفس الوقت كان مرجعية موثوقة لعلماء الدين. تم اعتقال الشيخ محمد أمين جان دامولام في نوفمبر ٢٠١٤ من مدينة غولجا، وأُفرج عنه في ٢٦ أكتوبر ٢٠١٥، واعتقل للمرة الثانية في ٣ فبراير ٢٠١٦ من منزله في غوما. وأبلغت السلطات الصينية عائلته بخبر وفاته، لكنها لم تسلمها جثمانه حتى الآن، كما لم تقدم معلومات حول تاريخ الوفاة وأسبابها.

## مؤسس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية الإيجورية

ولد عام ١٨٨٣ في قرية آزاق بمدينة آرتوش. وحصل على تعليمه الديني على يد الشيخ أعلم آخونوم. ودرس العلوم الإسلامية في مدرسة خانليق في كاشغر المعروفة ببخارى الصغرى. إنه الشيخ ثابت بن عبد الباقي دامولام مؤسس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية.

ذهب إلى بخارى لمواصلة تعليمه العالي في عام ١٩١٠، بطلب من الشيخ عبدالقادر دامولام، ومحمود آخون دامولام، وفي طريق عودته بعد تخرجه في عام ١٩١٤، ذهب إلى مدينة إيلي (شمال تركستان الشرقية) وتزوج من السيدة رابية، ابنة إسماعيل حاجي من أعيان مدينة سويدونغ. وبعد بضع سنوات، عاد إلى كاشغر بسبب الأحداث التاريخية، وأصبح مدرساً في مدرسة خانليق بكاشغر التي درس فيها، وهي المدرسة التي أسسها الشيخ عبدالقادر دامولام وزميله شمس الدين دامولام، وعملوا معاً لتوعية الناس ومحاربة الجهل والبدع المتفشية آنذاك في البلاد.

وبعد اغتيال الشيخ الشهيد بإذن الله عبدالقادر دامولام عام ١٩٢٤، كان الهدف الثاني للمتآمرين ثابت دامولام. وإدراكاً لذلك عاد الشيخ ثابت دامولام إلى مدينة إيلي في عام ١٩٢٥ بحجة الذهاب إلى الحج، وبمساعدة من المستنيرين والمتعلمين في إيلي، نشر كتابه الأول في السيرة النبوية (شيرين كلام)، ثم نشر الطبعة الثانية له بعد عدة سنوات في الهند.

ومنذ أن درس ثابت دامولام العلوم الدينية وكذلك الآداب التركية والعربية والفارسية، كان يلقي دروساً ويؤلف كتباً ويكتب الشعر أحياناً بعدة لغات. وابتداءً من عام ١٩٢٧، شرح تفسر القرآن الكريم في مسجد دنغ لجماعة المسجد في مدينة إيلي، واستمر فيه لمدة ثلاث سنوات. وفي نفس الوقت ألف كتباً كثيرة منها (الشريعة الإسلامية) و(شرح ألفية بن مالك) و(العقائد الجوهريّة) و(بيان السنة).

وفي عام ١٩٣٠ التقى بالزعيم ومؤلف كتاب تاريخ تركستان الشرقية محمد أمين بوغرا، وهو من محافظة قاراقاش في خوتان عندما جاء إلى غولجا لمراقبة الوضع، لكنه سافر من خوتان تحت ذريعة التعلم من السيد مراد في تورفان. وفي خريف ذلك العام بدأ الشيخ ثابت دامولام رحلة الحج برفقة مئات

الأشخاص الذين جاءوا من آرتوش وكاشغر، وأخذ ابنه عبدالله البالغ من العمر اثني عشر عاماً وانطلقوا إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج.

وفي ربيع عام ١٩٣١، وبعد أداء فريضة الحج، ودع الشيخ ثابت الجميع إلى تركستان الشرقية وبقي بمكة المكرمة للتوسع في العلوم الإسلامية وأجرى أبحاثاً ومحادثات علمية في المملكة العربية السعودية وتركيا وأماكن أخرى. وبينما كان في زيارة إلى تركيا، سافر إلى القاهرة بعد تلقيه معلومات عن مؤتمر دولي لعلماء المسلمين سيعقد في القاهرة وسافر إلى مصر وشارك في المؤتمر.

ثم خرج مسافراً للعودة إلى وطنه، وفي طريقه سافر إلى الهند في عام ١٩٣٢، وبقي في دلهي لفترة من الزمن، وطبع كتبه (العقائد الجهورية)، و(بيان السنة)، و(شرح ألفية بن مالك) و (شبرين كلام). ثم وصل ثابت بن عبد الباقي دامولام في ديسمبر ١٩٣٢ إلى مدينة قارغاليق ثم توجه مباشرة إلى خوتان.

وفي الأول من يناير ١٩٣٣ عقد اجتماعاً في مدرسة أويباغ بمحافظة قاراقاش بمشاركة مائة وثلاثين شخصاً ناقشوا فيه منظمة سرية أسسها الزعيم محمد

أمين بوغرا. وفي يونيو ١٩٣٣ عقدوا اجتماعاً ثانياً وانضم ثابت بن عبد الباقي دامولام ومحمد نياز أعلم آخون لتلك المنظمة وناقشوا فيه موضوع انتخاب قادة الثورة. وتحدث الشيخ ثابت دامولام حول تجربته في الخارج، ونبه الحضور إلى عدة أمور منها:

أولاً: في ظروف العالم اليوم، من المستحيل أن نتوقع المساعدة من جيراننا والدول الأجنبية الأخرى لثورتنا. لقد تحدثت مع الكثير من الناس حول هذا الموضوع.

ثانياً: يجب أن تكون نقطة انطلاق الثورة من خوتان، لذلك جئت مباشرة إليكم.

وفي شهر رمضان، ألقى الشيخ ثابت دامولام دروساً من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة في جميع أنحاء خوتان، وكان يركز على تعاليم الجهاد ويحث الناس عليه، وهياً أرضية مشتركة بين الناس من أجل الانتفاضة وتعبئة الناس من الناحية المادية والمعنوية.

وفي ٢٤ فبراير ١٩٣٣، اندلعت ثورة الاستقلال من الاحتلال الصيني في قاراقاش بقيادة الزعيم محمد أمين بوغرا. وبحلول أبريل ١٩٣٣ كانت منطقة

خوتان قد وقعت في أيدي الثوار. وفي ٥ أبريل تم إعلان حكومة خوتان الإسلامية. وخلال الانتفاضة، نجح الشيخ ثابت دامولام في التوسط لصراع بين ثوار ياركند وثور خوتان.

وفي ١٧ يوليو ١٩٣٣، قاد الأمير عبدالله (شاه منصور)، شقيق الزعيم محمد أمين بوغرا، جيشًا من ألفي رجل من ياركند إلى كاشغر. وبينما كان ثابت دامولام في ياركند وصل أربعة ممثلين عن تيمور سيجانغ بقيادة عبدالغفور الملقب بـ (شابتول دامولا) من كاشغر إلى ياركند. وعقدوا محادثات مع الشيخ ثابت دامولام لثني الثوار عن الزحف إلى كاشغار. واختلف الثوار بقيادة ثابت دامولام بشدة.

وعندما وصل الثوار المسلحون من ألفي رجل بقيادة ثابت دامولام والأمير عبدالله إلى مدينة ينغيسار، جاء تيمور سيجانغ من كاشغر إلى ينغيسار وتوسل للشيخ ثابت دامولام ألا يذهبوا إلى كاشغر. وبرغم ذلك أصر الشيخ ثابت والأمير عبدالله على الذهاب إلى كاشغر ووصلوا إليها في ٢٠ يوليو. وبالفعل دخلوا مدينة كاشغر وكان في استقبالهم عشرات الآلاف من سكان كاشغر على جانبي الطريق.



وبعد بعض الاضطرابات، في ١٥ أغسطس ١٩٣٣، فتح الشيخ ثابت دامولام مكتباً لحكومة خوتان في كاشغر. وفي ١٠ سبتمبر تم إلغاء المكتب وحل محله جمعية استقلال تركستان الشرقية.

وبعد شهرين من العمل التحضيري القوي، تم إعلان جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية في كاشغر بتاريخ ١٢ نوفمبر ١٩٣٣، ورفع علم الجمهورية في ساحة حي كونتشي. وكان العلم باللون الأزرق وبه الهلال ونجوم. وتم رفع العلم وإعلان تأسيس الجمهورية والحكومة، والدستور، والنشيد الوطني. وعين الشيخ ثابت دامولام رئيساً للوزراء.

وفي ١٥ نوفمبر ١٩٣٣، أنشأ الشيخ ثابت دامولام جريدة أسبوعية في كاشغر تحت إشراف قوتلوق حاجي. وبعد أسبوعين، نُشرت مجلة الاستقلال الشهرية، التي نشرت وثائق مهمة لجمهورية تركستان الشرقية الإسلامية وجمعت مجموعة واسعة من الرأي العام.

وقد أثارت جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية حفيظة الروس الستالينية وحكومة شنغ شيتساي الصينية. وتعهدا بتدمير هذه الجمهورية التي تم إنشاؤها حديثاً عبر تهديد رئيسها المنتخب خوجا نياز حاجي. وقد وعد

خوجا، الذي اعتاد على تنفيذ مطالب الحكومة الستالينية، باعتقال أشخاص مثل الشيخ ثابت دامولام وتسليمه إلى شنغ شيتساي.

وفي أبريل ١٩٣٤، احتجز خوجا نياز: ظريف قاري حاجي، وشمس الدين دامولا وعبدالله خان سلطان بيك. في ١٣ أبريل، أرسل محمود سيجانغ مرؤوسه غفور توانجانغ إلى قارغليق واعتقل ثابت دامولام. وتم إحضار خوجا نياز حاجي وثابت دامولام وظريف قاري حاجي إلى آقسو وتم تسليمهم إلى قوات شنغ شيتساي في آقسو.

سجن الشيخ ثابت داملام في عام ١٩٣٤ في سجن شنغ شيتساي في أورومتشي. وفي عام ١٩٤٠، التقى ثابت دامولام برجل يدعى لو بيندي وهو من عرقية هوي الصينية وبناء على طلب ثابت دامولام أحضر له لو بيندي ورقة وقلماً وسمح بإدخال القرآن وتم تحسين ظروفه زنزانتة. ومنذ ذلك اليوم، بدأ ثابت دامولام في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإيغورية، وفي أقل من عشرة أشهر أنهى ترجمته.

وبعد وقت قصير من انتهاء ثابت دامولام أعمال الترجمة الخاصة به، في عام ١٩٤١، وافته المنية وهو في السجن عن عمر ناهز ٥٨ عامًا. رحمه الله

وأسكنه فسيح جناته؛ فقد بدأ الإسلام غريباً وعاد غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء.

## السياسي الشهيد

سياسي ورجل دولة وحقوقي كان رئيساً لوزراء تركيا في الفترة ما بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠. وهو من مؤسسي حزب الديمقراطية رابع حزب معارض يُنشأ بصفة قانونية في تركيا في عام ١٩٤٦. وأول زعيم سياسي منتخب ديمقراطياً في تاريخ تركيا. أُزيح عن السلطة بانقلاب عسكري عام ١٩٦٠ نفذّه الجيش التركي وأُلقي القبض عليه وأُعدِم شنقاً مع اثنين من أعضاء مجلس وزرائه في ١٧ سبتمبر ١٩٦١. وهو أوّل رئيس وزراء يُعدم في تركيا. إنه علي عدنان إرتكين مندريس المعروف باسم عدنان مندريس المولود في أيدين في عام ١٨٩٩م.

وقد أعاد البرلمان التركي الاعتبار لعدنان مندريس مع الذين أعدموا معه بقانون صدر في عام ١٩٩٠. وهو واحد من ثلاثة سياسيين أتراك يقام له ضريح تكريماً لذكراه. (السياسيان الآخران هما أتاتورك وتورغوت أوزال).

وهناك ادعاءات تقول إن نعش عدنان مندريس أُلقي في البحر بعد إعدامه، وأن الذي في قبره هو جسد أحد الحراس، بينما لم تقم الحكومة بأي تعليق على هذا الادعاء أو باختبار الحمض النووي.

كان مندريس عضواً ونائباً برلمانياً عن حزب الشعب الجمهوري الذي أسسه أتاتورك، لكنه انفصل عام ١٩٤٥ إلى جانب نواب آخرين هم جلال بايار ومحمد فؤاد كوبريلي ليشكّلوا حزباً جديداً هو الحزب الديمقراطي، مُتحدِّين إجراءات منع الأحزاب آنذاك. فشارك الحزب الجديد عام ١٩٤٦ في الانتخابات العامة، وحصل على ٦٢ مقعداً فقط، ثم عاد وشارك في انتخابات عام ١٩٥٠ ليفوز بأغلبية ساحقة شكّل على إثرها مندريس حكومة جديدة وضعت حداً لهيمنة حزب أتاتورك. وكان مندريس قد خاض حملته الانتخابية على أساس عدم تدخل الحكومة في شؤون القطاعات الخاصة كما كان يحدث في السابق، ووعود بتخفيف الإجراءات العلمانية الصارمة، وإعطاء المزيد من حرية الاعتقاد والديمقراطية، وبعد الفوز قام مندريس بإدخال التكنولوجيا الزراعية إلى الأرياف، فأرسل الجرارات والحاصدات إلى الفلاحين كما وزّع عليهم الأسمدة الكيماوية، وأرسل إليهم مرشدين زراعيين. كما أنشأ مندريس العديد من السدود الكبيرة بمعدل سد في كل منطقة تقريباً، حتى أخذت تركيا تتصدر الدول الأوروبية والشرق الأوسط في إنتاج القمح والبنديق والتين المجفف والعنب والقطن والشاي ومختلف أنواع الفاكهة والخضار، وأنشأ العديد من مخازن الحبوب، كما ربط جميع القرى بشبكات طرق، وأنشأ معامل النسيج ومعامل عصير الفواكه

ومعامل الإسمنت ولوازم البناء ومصانع الأحذية ودباغة الجلود ومعامل الصابون والأدوية.

استمر مندريس في رئاسة الحكومة بعد فوزه بأغلبية ساحقة في انتخابات عام ١٩٥٤. فانضمت تركيا في عهده إلى حلف الناتو، وأقام علاقات قوية مع الولايات المتحدة وساند إجراءاتها كإرسال قوات تركية إلى كوريا.

ثم كانت غربته ومحنته التي اختاره الله فيها شهيداً عندما وجه المعارضون العلمانيون من أنصار أتاتورك إلى مندريس تهماً عديدة منها اهتمامه بإرضاء مشاعر الفلاحين الدينية ما أدى إلى ظهور تيار ديني مطالب بخلط الدين بالسياسة وعودة الخلافة وتطبيق الشريعة الإسلامية وكاد أن يطيح بالأتاتوركية، وبالرغم من تصريحات مندريس المتكررة بالالتزام بالنظام العلماني وعدم قبول إلغاءه أو استبداله، أيضاً اعتماد مندريس النظام الليبرالي في القطاعين الزراعي والصناعي أدى إلى فوضى اقتصادية ومالية، فقد كان أول المستفيدين من الإصلاح الزراعي هم كبار ملاك الأراضي والفلاحين من أصحاب الملكيات الزراعية المتوسطة، أما الفلاحون الفقراء فقد ظلوا كما هم لعجزهم عن شراء الأسمدة ودفع أجور الجرارات الزراعية، كما أن إعطاء الحرية الكاملة للقطاع الصناعي أوقع تركيا في حالة تضخم نقدي، ففي عام

١٩٥٥ أصبحت الخزينة التركية خالية من النقد الأجنبي النادر، ولم تتمكن الدولة الوفاء بديونها الخارجية التي بلغت عام ١٩٦٠ حوالي ملياري دولار، تبعه ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية إلى حد كبير، وكانت لإجراءات مندريس بالتضييق على الحريات السياسية مغبتها ووجهت العديد من الانتقاد لحكومته، فقام عصمت إينونو زعيم حزب الشعب الجمهوري المعارض بحشد أنصاره في الجامعات والجيش، ف وقعت أحداث شغب ومظاهرات في شوارع المدن الكبرى.

وفي صباح ٢٧ مايو ١٩٦٠ تحرك الجيش التركي ليقوم بأول انقلاب عسكري خلال العهد الجمهوري، حيث سيطر على الحكم ٣٨ ضابطاً برئاسة الجنرال جمال جورسيل الذي تولى رئاسة الجمهورية بعد الانقلاب، وأحال الانقلابيون ٢٣٥ جنرالاً وخمسة آلاف ضابط بينهم رئيس هيئة الأركان إلى التقاعد، وأوقفوا نشاط الحزب الديمقراطي واعتقلوا رئيس الوزراء عدنان مندريس ورئيس الجمهورية محمود جلال بايار مع عدد من الوزراء وأرسلوهم إلى سجن جزيرة يصي أضه. وبعد محاكمة شكلية سُجن رئيس الجمهورية مدى الحياة فيما حُكم بالإعدام على مندريس ووزير الخارجية فطين رشدي زورلو ووزير المالية حسن بولاتكان، بتهمة اعتزام قلب النظام العلماني وتأسيس دولة دينية. وفي

اليوم التالي لصدور الحكم في أواسط سبتمبر ١٩٦١ تم تنفيذ حكم الإعدام بمندريس. وبعد أيام نفذ حكم الإعدام بوزيريه، ودفنوا في الجزيرة ذاتها.

كان إحساس الكثير من الأتراك أن مندريس ورفيقه قد قُتِلوا ظُلماً، واستمر هذا الإحساس يتصاعد شهراً بعد شهر وعماماً بعد عام حتى عام ١٩٩٠ عندما التقط الرئيس تورغوت أوزال نبض شعبه فالتَّخذ قراراً جريئاً بإعادة الاعتبار لمندريس ورفيقه بولتكان وزورلو، وأوعز إلى نواب حزبه (الوطن الأم) الذين كانوا يمثلون الأغلبية في المجلس الوطني الكبير (مجلس النواب) بإصدار قانون يردُّ الاعتبار لمندريس ورفيقه وهذا ما قام به البرلمان التركي الذي أصدر في ١١ أبريل ١٩٩٠ القانون رقم ٣٦٢٣ الذي قضى بإعادة الاعتبار لعدنان مندريس وزملائه الذين أعدموا في نفس القضية، وسارع إلى إصدار مرسوم جمهوري بالقانون.

ثمَّ أصدر أمراً بنقل رفاتهم من جزيرة ياصي أضه، حيث دفنوا بعد إعدامهم، إلى مقبرة خاصة أقامتها بلدية إسطنبول على تلة مطلة على أحد أوسع شوارع منطقة طوب قابي، وفي ١٧ سبتمبر ١٩٩٠ في الذكرى ٢٩ لإعدامه شارك أوزال بنفسه مع أركان الدولة وقادة الجيش ورؤساء الأحزاب وجماهير غفيرة من الشعب في استقبال الرفات، وواكب بنفسه مراسيم إعادة دفن



رفاتهم في القبور الجديدة، وقرأ الفاتحة على أرواحهم ووصفهم في كلمة تأبينية خلال الحفل بشهداء الوطن، وخرجت الصحف في اليوم التالي لتصف عدنان مندريس وفطين زورلو وحسن بولتكان بشهداء الوطن والديمقراطية. وتم تسمية مطار مدينة إزمير باسمه والعديد من الشوارع والجامعات والمدارس مثل جامعة عدنان مندريس، امتناناً لدوره في الحياة المدنية التركية وإدانة ودفناً لإرث العسكر وانقلاباتهم.

وفي عام ٢٠١٠ جاءت نتيجة الاستفتاء على التعديلات الدستورية التي تُجرّم الانقلابات العسكرية ليعاقب عليها القانون بأثر رجعي، بمثابة إعادة اعتبار شعبي له بعد خمسين عاماً من الانقلاب العسكري الذي أطاح به.

## لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها

كانت جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر كارثية حيث عمل على توطين الفرنسيين والأوروبيين في أملاك الجزائريين بعد طردهم منها أو قتلهم، حتى وصل عدد المستوطنين إلى مليون مستوطن. وأرهب الجزائريين بالضرائب، رغم فقرهم، وصادر الأوقاف، وحاصر القضاء الشرعي. ومنع استخدام اللغة العربية أو تدريسها حتى في البيوت. ومكن اليهود من الاستيطان في الجزائر ومنحهم الجنسية الفرنسية، حتى وصل عددهم إلى ٣٠ ألف يهودي. وحارب التعليم ودعم الطرق الصوفية.

في هذه الأجواء ولد المصلح الجزائري عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس سنة (١٨٨٩م) في مدينة قسنطينة لأسرة عريقة بالعلماء والأمراء والسلاطين. ومن أشهر رجالات هذه الأسرة المعز لدين الله بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية الذي قاوم البدعة ونصر السنة وأعلن مذهب أهل السنة والجماعة مذهباً للدولة.

وكانت أسرته من الأسر التي تشارك في الحكم، فجدُّه لأبيه: الشيخ المكّي بن باديس كان قاضياً مشهوراً بمدينة قسنطينة وعضواً في المجلس العام وفي المجلس البلدي، وعمه أحمدية بن باديس كان نائباً عن مدينة قسنطينة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ورفع عريضة مع ثلاثة من النواب عام ١٨٩١م بأنواع المظالم والاضطهادات التي أصبح يعانيها الشعب الجزائري على يد الإدارة الاستعمارية الفرنسية ومن المستوطنين المهاجرين.

كما أن من عائلة ابن باديس من كانوا قادة كباراً في ثورة الأمير عبدالقادر الجزائري وتم أسرهم وسجنهم في باريس، وأفرج عنهم مع الأمير عبدالقادر الجزائري في عام ١٨٥٢م وتم نفيهم إلى الشام.

لقي ابن باديس كل عناية ورعاية من والده الذي توسم فيه النباهة، حتى قال له: يا عبد الحميد، أنا أكفيك أمر الدنيا، أنفق عليك وأقوم بكل أمورك، ما طلبت شيئاً إلا ليبت طلبك كلمح البصر، فاكفني أمر الآخرة، وكن الولد الصالح الذي ألقى به وجه الله.

أتم عبد الحميد بن باديس حفظ القرآن في الثالثة عشرة، ثم تتلمذ على الشيخ حمدان الونيسي، الذي نصحه بنصيحة سار عليها ابن باديس طيلة عمره،

حين قال له: اقرأ العلم للعلم لا للوظيفة، بل أخذ عليه عهداً ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا.

ثم تآقت نفسه للاستزادة من العلم فسافر لتونس في سنة (١٩٠٨م) والتحق بجامع الزيتونة وبقي هناك أربع سنوات، فدرس على العلماء وخاصة العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، واستفاد من الشيخ الخضر حسين وقد كان جاداً في التحصيل حتى أنه اختصر دراسة الزيتونة من سبع سنوات إلى ثلاث سنوات فقط، ومكث بعدها سنة يدرّس تطوعاً على عادة جامع الزيتونة، وبذلك حصل على شهادة التطويع.

ولم يكتف بدروس الزيتونة بل ذهب للجمعية الخلدونية التي كانت تدرّس العلوم العصرية مثل الحساب والمساحة والجغرافيا والكيمياء والطبيعات، فتعلم العلم الشرعي وأصبح على دراية بما يحيط بالأمة من أحوال وتحديات.

ثم في عام ١٩١٣ عاد لدياره ولم يتجاوز عمره ٢٣ سنة، ليباشر التدريس بالجامع الكبير، بسبب نفوذ والده وعلاقاته بالإدارة الفرنسية، لكن المغرضين من أصحاب الأهواء سرعان ما عارضوه وناصره العدا، حتى أنهم أطفأوا الإضاءة عليه وهو يدرّس بالمسجد، فقرر السفر لبيت الله الحرام في نفس العام.

وكان أبرز ما حدث مع ابن باديس في المدينة تعرفه على رفيق دربه ونضاله فيما بعد الشيخ البشير الإبراهيمي، والذي سبق ابن باديس في سكن المدينة والاستقرار فيها مع والده قبل أكثر من سنة على لقاءهما، وبقي هناك حتى ١٩٢٠، حيث جاء للجزائر ليكمل مع ابن باديس طريق الدعوة التي بدأها.

ومكث ابن باديس والإبراهيمي ثلاثة أشهر يلتقيان يوماً بعد العشاء وحتى الفجر يتدارسان أحوال الجزائر وكيفية إصلاحه وبث النهضة الدينية والعلمية والسياسية فيه. وقد بين لنا البشير الإبراهيمي محتوى هذه اللقاءات حين قال: وأشهد الله على أن تلك الليالي من عام ١٩١٣ هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين والتي لم تبرز للوجود إلا عام ١٩٣١.

وفي عودته للجزائر زار ابن باديس بلاد الشام ومصر حيث اجتمع برجال العلم والأدب وأعلام الدعوة السلفية، وزار الأزهر واتصل بالشيخ بحيث المطيعي حاملاً له رسالة من الشيخ الونيسي، فرحب به وأجازه ومنحه العالمية الأزهرية، وقد منحته هذه الرحلة معرفة واقع البلاد الإسلامية مما وسع مداركه وأكسبه خبرة غنية بتجارب سابقة، كما مكنته من التعرف بقيادة الإصلاح فيها.

وحين وصل ابن باديس للجزائر، قام بعدة جولات بالقطار لأرجاء الجزائر ليتعرف عليها ويتعمق في فهم مشكلاتها. ومنذ عودته بدأ بإلقاء الدروس في المسجد الكبير ثم تحول للمسجد الأخضر وهو المركز الرئيس لنشاطه وغيره من المساجد حيث استحصل له أبوه على تصريح بذلك، ولم تقتصر دروسه على الكبار، بل خصص دروساً للصغار أيضاً بعد خروجهم من درس الكتاتيب القرآنية، وهذا أمر لم يكن معهوداً قبله.

وهذا تطلب منه التفكير في إنشاء مدرسة ابتدائية قرب مسجد بو معزة، كما جعل تعليم الفتيات مجانياً بخلاف الطلاب الذين يدفع المقتدر منهم رسوماً رمزية، وذلك لتشجيع التعليم بين الفتيات.

وبعد أن انتشرت الدروس في المساجد وأنشأ المدرسة، فكر ابن باديس بالتوسع في نشر فكره ومشروعه فدخل عالم الصحافة، فقام بتأسيس صحيفة المنتقد الأسبوعية في عام ١٩٢٥ وبعدها أنشأ جريدة الشهاب الأسبوعية تحت شعار (تستطيع الظروف أن تخيفنا، ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا)، وفي عام ١٩٢٩ تحولت إلى مجلة شهرية بسبب المضايقات من قبل الإدارة الفرنسية، وكان شعارها: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

ومن أجل ضمان استمرار صدور المجلتين أنشأ ابن باديس المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة سنة ١٩٢٥، ليتجنب عواقب صدورهما إذا كانتا تطبعان في مطبعة مستأجرة.

وفي هذه المرحلة يعود زميله الشيخ البشير الإبراهيمي سنة ١٩٢٠ ليتعاونوا في الإصلاح، ويكون لهما لقاء كل أسبوعين أو شهر على الأكثر. وكان ابن باديس يحاول أن يتجاوز أخطاء وعثرات تجارب المصلحين الجزائريين السابقين، فهو يتجنب أن تكون دعوته ضيقة النطاق سواء على صعيد الجغرافيا أو الشريحة المستفيدة، كما أنه يتجنب أن تكون دعوته فردية مرتبطة بشخصه. وقد تكلم هذا الجهد كله بتأسيس جمعية العلماء المسلمين في اجتماع عقد في نادي الترقى بالعاصمة الجزائرية، حضره ٧٠ عالماً من مختلف مناطق الجزائر، ومن شتى الاتجاهات الدينية والمذهبية: مالكيين وإباضيين، مصلحين وطرفيين، موظفين حكوميين وغير موظفين، وكان رئيس الاجتماع الشيخ أبو يعلى الزواوي.

وفي نهاية سنتها الأولى حاول العلماء الموالون لفرنسا وأرباب الطرق والزوايا الاستيلاء على الجمعية وحرفها عن مسارها، لكنهم فشلوا في ذلك فانشقوا عن الجمعية وأسسوا (جمعية علماء السنة) برئاسة الشيخ مولود الحافظي الذي

كان من المؤسسين لجمعية العلماء، لكن هذه الجمعية سرعان ما فشلت واندثرت.

وعندما استقرت أمور الجمعية وانطلقت في نشاطاتها تكاثرت فروعها حتى بلغت بعد ٥ سنوات ٣٣ شعبة وذلك في سنة ١٩٣٦، وفي سنة ١٩٣٨ زاد العدد إلى ٥٨ شعبة، فقد أقبل الشعب الجزائري على التعلم وحضور الندوات والمحاضرات في شُعب الجمعية وذلك برغم الاضطهادات والعراقيل التي كانت توضع في طريقها.

وحرص ابن باديس على تأجيل اصطدامه بفرنسا حتى يتمكن من بناء قاعدة صلبة يستطيع الاعتماد عليها، ولذلك تنوعت سياسته مع فرنسا بحسب ظروف كل مرحلة. ومع ذلك شهدت الجمعية الكثير من مظاهر التضييق على عملها. كما صدر قرار باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر سنة ١٩٣٣ ما عرّض أنشطة وعلماء الجمعية لمتاعب كبيرة من قِبل السلطات الفرنسية.

ومنذ سنة ١٩٣٦ تغيرت سياسة ابن باديس وذلك عقب محاولة فرنسا إلغاء الهوية الجزائرية تماماً وإلحاقها بفرنسا بالكلية واعتبار الجزائر مقاطعة من فرنسا،



فأعلن ابن باديس رفضه لهذا المسعى وأنه يرفض التحنس بالجنسية الفرنسية وأنه يتبرأ من بعض قادة الجزائر الذين قبلوا ذلك.

ودعا ابن باديس إلى عقد مؤتمر عام لدراسة الأوضاع وأصبح نشاط العلماء ضد سياسة الفرنسة ظاهراً ومكشوفاً، ولذلك لجأت الإدارة الفرنسية لضرب جهود ابن باديس والجمعية باتهامهم بقتل مفتي العاصمة ابن مكحول. وبعد كثير من المضايقات والصدمات بدأ ابن باديس يفكر بالثورة على فرنسا.

وفي خضم هذا الصراع المتصاعد مع فرنسا والذي أصبح صريحاً ومكشوفاً، لم يتوقف ابن باديس عن التفكير في المستقبل وما بعد الاستعمار الفرنسي، فقدم ابن باديس رؤيته لأسس الدستور المرتقب للجزائر المستقلة بعنوان أصول الولاية في الإسلام.

ومع تعاظم دور الجمعية في الجزائر، ورفض الجمعية وابن باديس الانصياع لرغبات فرنسا في ابتلاع الجزائر، وعدم استسلام ابن باديس والجمعية لليأس والقنوط، أصدرت السلطات الفرنسية قراراً بحل الجمعية في سنة ١٩٤٠، وفرض الإقامة الجبرية على ابن باديس ونفي البشير الإبراهيمي إلى جنوب الجزائر.

وفي مساء يوم الثلاثاء ١٦ أبريل ١٩٤٠م، وبعد أشهر معدودة من حلّ الجمعية توفي ابن باديس وهو تحت الإقامة الجبرية، وكان قد بلغ الخمسين من عمره، وكان يعاني رحمه الله من عدة أمراض مستعصية مما جعل هناك ظنوناً بأنه لم يمّت ميتة طبيعية، وقد شيع جنازته خمسون ألفاً من الجزائريين أو يزيد، جاؤوا من كافة مناطق الجزائر، وقد دُفن رحمه الله في مقبرة آل باديس بمدينة قسنطينة.

## إكمال المسيرة حتى التحرير

من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، ومن العلماء العاملين في الجزائر. ورفيق النضال للشيخ عبد الحميد ابن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية، ونائبه، ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين، وكاتب تبني أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار، وتحرير العقول من الجهل والخرافات. إنه محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩-١٩٦٥م).

ولد في أولاد إبراهيم (بلدية تابعة لولاية برج بوعرييج). تلقى تعليمه الأول على يد والده وعمه؛ فحفظ القرآن، ودرس بعض المتون في الفقه واللغة برأس الوادي.

غادر الجزائر ١٩١١م ملتحقاً بوالده الذي كان قد سبقه إلى الحجاز، وتابع تعليمه في المدينة، وتعرف على الشيخ العربي التبسي عندما زار المدينة عام ١٩١٣م وغادر الحجاز عام ١٩١٦م قاصداً دمشق، حيث اشتغل بالتدريس، وشارك في تأسيس الجمع العلمي الذي كان من غاياته تعريب الإدارات الحكومية، وهناك التقى بعلماء دمشق وأدبائها الذين ذكروهم بعد ثلاثين سنة من عودته إلى الجزائر.

في عام ١٩٢٠م غادر الإبراهيمي دمشق إلى الجزائر، وبدأ بدعوته إلى الإصلاح ونشر التعليم الديني في مدينة سطيف، حيث دعا إلى إقامة مسجد غير تابع للإدارة الحكومية. وفي عام ١٩٢٤ زاره ابن باديس، وعرض عليه فكرة إقامة جمعية العلماء، وبعد تأسيس الجمعية أختير الإبراهيمي نائباً لرئيسها، وانتُخب من قِبل الجمعية لمهمة قيل إنها صعبة آنذاك، وهي نشر الإصلاح في غرب الجزائر، وفي مدينة وهران.

وفي عام ١٩٣٩ كتب مقالاً في جريدة الإصلاح، فنفته فرنسا إلى بلدة آفلو الصحراوية، وبعد وفاة ابن باديس انتُخب رئيساً لجمعية العلماء وهو في المنفى، ولم يُفرج عنه إلا عام ١٩٤٣، ثم اعتُقل مرة ثانية عام ١٩٤٥، وأُفرج عنه بعد سنة. وفي عام ١٩٤٧ عادت مجلة البصائر للصدور، وكانت مقالات الإبراهيمي فيها على قدر من البلاغة ومن الصراحة والنقد القاسي لفرنسا ومن يسميهم عملاء فرنسا.

عاش الإبراهيمي حتى استقلت الجزائر، وأمّ المصلين في مسجد كتشاوة الذي كان قد حُوّل إلى كنيسة، ولكنه لم يكن راضياً عن الاتجاه الذي بدأت تتجه إليه الدولة بعد الاستقلال؛ فأصدر عام ١٩٦٤ بياناً ذكر فيه: إن الأسس

النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية.

وكان قوي الذاكرة حيث ذكر الشيخ علي الطنطاوي أنه ركب معه السيارة من دمشق متوجهين إلى القدس لحضور مؤتمر حول فلسطين، ويقول الطنطاوي إني ما ذكرت له بيتاً إلا ذكر لي القصيدة وقائلها، حتى إنه بدأ يسمعه مقالات الشيخ التي كان يكتبها في مجلة الرسالة، وعندما تعجب الشيخ الطنطاوي من حفظه للنثر أيضاً، أجابه أنه لم يحفظها متعمداً، وإنما هو يحفظ كل ما يقع تحت بصره.

تابع الإبراهيمي مراكز الجمعية وفروعها بفرنسا، وكانت أول مراكز إسلامية في أوروبا، والتي تعطلت بسبب الحرب العالمية، فأوفدت الجمعية سنة ١٩٤٧ مراقبها العام الشيخ سعيد صالح إلى فرنسا ليدرس الأحوال ويمهد الأمور، وسرعان ما عاد النشاط وتوسع، ولم يقتصر على العمال الجزائريين، بل شمل حتى طلبة الكليات بفرنسا من أبناء الجزائر.

ثم توفي الشيخ وهو رهن الإقامة الجبرية في منزله، يوم الخميس ٢٠ مايو ١٩٦٥، وقد قام نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي بجمع وتقديم جميع

آثاره في خمسة أجزاء تحت عنوان: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. رحمه  
الله وجعل ما قدم للجزائر وللمسلمين في ميزان حسناته.

## الأمير الأسير

كاتب وشاعر وفيلسوف وسياسي وفارس، اشتهر بمناهضته للاحتلال الفرنسي للجزائر. ولد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم الثلاثاء ٦ سبتمبر ١٨٠٨م رائد سياسي وعسكري مقاوم قاد مقاومة شعبية خمسة عشر عاماً أثناء غزو فرنسا للجزائر وهو أيضاً مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي وبعدها نُفي إلى دمشق وتوفي فيها يوم ٢٦ مايو ١٨٨٣م. إنه الأمير عبدالقادر ابن محيي الدين المعروف بـ عبدالقادر الجزائري.

نشأ الأمير عبدالقادر في عائلة من سلالة الحسيني القرشي سليل قبيلة لها سلطة روحية تتمتع بنفوذ واسع. وقد جرت الأسرة على تقديم الضيافة لعابري السبيل ومساعدة المعوزين، فاشتهرت بالكرم إلى جانب شهرتها بالعلم والتقوى في قبيلة بني هاشم وخارج حدود هذه القرية، وكذلك كان سكان المنطقة يقصدون كبار الأسرة لفض نزاعاتهم وللتحكيم في خصوصياتهم.

وكان تعليمه الديني صوفياً سنياً، أجاد القراءة والكتابة وهو في الخامسة، كما نال الإجازة في تفسير القرآن والحديث النبوي وهو في الثانية عشرة من عمره

ليحمل بعد ذلك بسنتين لقب حافظ وبدأ بإلقاء الدروس في الجامع التابع لأسرته في مختلف المواد الفقهية. وقد شجعه والده على الفروسية وركوب الخيل ومقارعة الأنداد والمشاركة في المسابقات التي تقام آنذاك فأظهر تفوقاً مدهشاً.

بعثه والده إلى وهران لطلب العلم من علمائها، وحضر دروس الشيخ أحمد بن الخوجة فازداد تعمقاً في الفقه كما طالع كتب الفلاسفة وتعلم الحساب والجغرافيا، على يد الشيخ أحمد بن الطاهر البيطوي قاضي أرزيو. وقد دامت هذه الرحلة العملية ما يقرب من السنتين. وبعد عودته إلى بلدة القيطنة كان قد بلغ الخامسة عشرة فبادر والده إلى تزويجه واختار ابنة عمه لالة خيرة زوجة له فهي تجمع بين محاسن الخلق والنسب الشريف.

وكان محيي الدين (والد الأمير عبدالقادر) بالإضافة لكونه شيخ الطريقة القادرية ذا مكانة رفيعة بين عامة الناس ومن كبار أعيانهم وقد دفعت آراؤه بالحاكم العثماني لوهران إلى تحديد إقامته ببيته وهو ما دفعه للتفكير بالخروج لأداء فريضة الحج والابتعاد عن هذا الجو المشحون. فخرج واصطحب ابنه عبدالقادر معه وهو في الثامنة عشرة، فكانت رحلة عبدالقادر إلى تونس ثم مصر ثم الحجاز ثم البلاد الشامية ثم بغداد، ثم العودة إلى الحجاز، ثم العودة



إلى الجزائر مارًا بمصر وبرقة وطرابلس ثم تونس، وأخيرًا إلى الجزائر من جديد عام ١٨٢٨ م، فكانت رحلة تعلم ومشاهدة ومعايشة للوطن العربي في هذه الفترة من تاريخه، وما لبث الوالد وابنه أن استقرا في قريتهم قيطنة، ولم يمض وقت طويل حتى تعرضت الجزائر لحملة عسكرية فرنسية شرسة، وتمكنت فرنسا من احتلال العاصمة فعلاً في ٥ يوليو ١٨٣٠م، واستسلم الحاكم العثماني ألدادي حسين، ولكن الشعب الجزائري كان له رأي آخر.

فرّق الشقاق بين الزعماء كلمة الشعب، وبحث أهالي وعلماء غريس عن زعيم يأخذ اللواء ويباعونه على الجهاد تحت قيادته، واستقر الرأي على محيي الدين الحسيني وعرضوا عليه الأمر، ولكن الرجل اعتذر عن الإمارة وقبل قيادة الجهاد، فأرسلوا إلى صاحب المغرب الأقصى عبدالرحمن بن هشام ليكونوا تحت إمرته فقبل سلطان المغرب وأرسل ابن عمه علي بن سليمان ليكون أميرًا على المنطقة، وقبل أن تستقر الأمور تدخلت فرنسا مهددة السلطان بالحرب، فانسحب السلطان واستدعى ابن عمه ليعود الوضع إلى نقطة الصفر من جديد.

وبعد أن تمت مبايعة محمد بن زعموم مع علي ولد سي سعدي في ضواحي متيجة، انتقلت المقاومة إلى الغرب الجزائري حيث كان محيي الدين الجزائري

قد رضي بمسؤولية القيادة العسكرية، فالتفت حوله الجموع من جديد، وخاصة أنه حقق عدة انتصارات على العدو، وقد كان ابنه عبدالقادر على رأس الجيش في كثير من هذه الانتصارات. واقترح محيي الدين ابنه عبدالقادر لهذا المنصب وجمع الناس لبيعته تحت شجرة الدردار فقبل الحاضرون من علماء وكبراء ووجهاء القوم، وقبل الشاب تحمّل هذه المسؤولية، وتمت البيعة، ولقّب به والده بناصر الدين واقترحوا عليه أن يكون سلطاناً ولكنه اختار لقب الأمير وكان ذلك وهو في الرابعة والعشرين.

توجه الأمير بعد البيعة إلى مدينة معسكر ووقف خطيباً في مسجدها أمام الجموع الكبيرة فحث الناس على الانضباط والالتزام ودعاهم إلى الجهاد والعمل وبعد الانصراف أرسل الأمير الرسل والرسائل إلى بقية القبائل والأعيان الذين لم يحضروا البيعة لإبلاغهم بذلك، ودعوتهم إلى مبايعته أسوة بمن أدى واجب الطاعة. ولما ذاع خبر البيعة بادر أعيان ووجهاء ورؤساء القبائل التي لم تباع إلى المبايعة فتمت في مسجد بمعسكر يسمى حالياً مسجد سيدي الحسان حيث حررت وثيقة أخرى للبيعة وقرئت على الشعب وتولى كتابتها محمود بن حوا المجاهدي أحد علماء المنطقة.

وعندما تولى عبدالقادر الإمارة كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي صعباً، ولم يكن له المال الكافي لإقامة دعائم الدولة إضافة إلى وجود معارضين لإمارته، ولكنه لم يفقد الأمل إذ كان يدعو باستمرار إلى وحدة الصفوف وترك الخلافات الداخلية ونبذ الأغراض الشخصية. وقام الأمير بإصلاحات اجتماعية كثيرة، فقد حارب الفساد الأخلاقي بشدة، ومنع الخمر والميسر منعاً باتاً ومنع التدخين ليبعد المجتمع عن التبذير، كما منع استعمال الذهب والفضة للرجال لأنه كان يكره حياة البذخ والميوعة. كما عمل على تكوين جيش منظم وتأسيس دولة موحدة، وكان مساعده في هذه المهمة مخلصين. وبذل الأمير وأعوانه جهداً كبيراً لاستتباب الأمن، فمن خلال نظام الشرطة الذي أنشأه قُضي على قُطاع الطرق الذين كانوا يهجمون على المسافرين ويتعدون على الحرمات، فأصبح الناس يتنقلون في أمان وانعدمت السرقات. ونظم إدارة الدولة فقسّم التراب الوطني إلى ٨ وحدات أو مقاطعات. كما أنشأ مصانع للأسلحة وبنى الحصون والقلاع وشكّل وزارته التي كانت من ٥ وزارات وجعل مدينة معسكر مقراً لها، ونظّم ميزانية الدولة وفق مبدأ الزكاة لتغطية نفقات الجهاد، كما اختار رموز العَلَم الوطني وشعار للدولة (نصر من الله وفتح قريب).

وأمام بطولة الأمير اضطرت فرنسا إلى عقد اتفاقية هدنة معه وهي اتفاقية دي ميشيل في عام ١٨٣٤. وبمقتضى هذه الاتفاقية اعترفت فرنسا بدولة الأمير عبدالقادر، وبدأ الأمير يتجه إلى أحوال البلاد ينظم شؤونها ويعمرها ويطورها. وقبل أن يمر عام على الاتفاقية نقض القائد الفرنسي الهدنة، وناصره في هذه المرة بعض القبائل في مواجهة الأمير عبدالقادر؛ فنادى الأمير في قومه بالجهاد ونظم الجميع صفوف القتال، وكانت المعارك الأولى رسالة قوية لفرنسا وخاصة موقعة المقطع حيث نزلت بالقوات الفرنسية هزائم قضت على قوتها الضاربة تحت قيادة تريزيل الحاكم الفرنسي.

ولكن فرنسا أرادت الانتقام فأرسلت قوات جديدة وقيادة جديدة. واستطاعت القوات الفرنسية دخول عاصمة الأمير وأحرقتها، ولولا مطر غزير أرسله الله في هذا اليوم ما بقى فيها حجر على حجر، ولكن الأمير استطاع تحقيق مجموعة من الانتصارات دفعت فرنسا لتغيير القيادة من جديد ليأتي القائد الفرنسي الماكر الجنرال بيجو. ولكن الأمير نجح في إحراز نصر على القائد الجديد أجبرت القائد الفرنسي على عقد هدنة جديدة عُرفت باسم معاهدة تافنة في عام ١٨٣٧م. وعملت فرنسا على تحييد المغرب وإخراجه من حلبة الصراع، فأجبرت المولى عبدالرحمن سلطان المغرب على توقيع اتفاقية

تعهد فيها بعدم مساعدة الجزائريين، والقبض على الأمير عبدالقادر وتسليمه للسلطات الفرنسية، حال التجائه للأراضي المغربية.

وكان لتحييد المغرب ووقف مساعداته للمجاهدين الجزائريين دور كبير في إضعاف قوات الأمير عبدالقادر، الأمر الذي حدّ من حركة قواته، ورجّح كِيفَة القوات الفرنسية، فلما نفذ ما لدى الأمير من إمكانيات لم يبق أمامه سوى الاستسلام حقناً لدماء من تبقى من المجاهدين والأهالي، وتجنبياً لهم من بطش الفرنسيين، وفي ديسمبر ١٨٤٧ م اقتيد الأمير عبدالقادر إلى أحد السجون بفرنسا، وفي بداية الخمسينات أفرج عنه شريطة ألا يعود إلى الجزائر، فسافر إلى تركيا ومنها إلى دمشق عام ١٨٥٥ م، وعندما وصل الأمير وعائلته وأعوانه إلى دمشق، أسس ما عرف برياط المغاربة في حي السوقة، وهو حي مازال موجوداً إلي اليوم، وسرعان ما أصبح ذا مكانة بين علماء ووجهاء الشام، وقام بالتدريس في المدرسة الأشرفية، ثم الجامع الأموي، الذي كان أكبر مدرسة دينية في دمشق آنذاك، وسافر الأمير للحج ثم عاد ليتفرغ للعبادة والعلم والأعمال الخيرية، وفي مايو ١٨٨٣ م توفي الأمير عبدالقادر الجزائري ودفن في سوريا بدمشق. وبعد استقلال الجزائر نقل جثمانه إلى

الجزائر عام ١٩٦٥ ودفن في مقبرة العالية في مربع الشهداء الذي لا يدفن فيه  
إلا الشخصيات الوطنية الكبيرة والرؤساء.

## مفتي القدس

كان المفتي العام للقدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، ورئيس اللجنة العربية العليا، وأحد أبرز الشخصيات الفلسطينية في القرن العشرين، ولد في مدينة القدس عام ١٨٩٥ وتلقى تعليمه الأساسي فيها، وانتقل بعدها لمصر ليدرس في دار الدعوة والإرشاد، وأدى فريضة الحج في السادسة عشرة من عمره، والتحق بعدها بالكلية الحربية باسطنبول، ليلتحق بعدها بالجيش العثماني، والتحق بعد ذلك في صفوف الثورة العربية الكبرى. إنه الحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله (١٨٩٥ - ١٩٧٤م).

وُلد محمد أمين الحسيني في القدس عام ١٨٩٥ م، لعائلة ميسورة كان من أفرادها ثلاثة عشر شخصاً تولوا مناصب إدارية وسياسية في القدس. وتلقى علوم القرآن واللغة العربية والعلوم الدينية في فترة مبكرة من عمره، وأدخله والده مدرسة الثُمرير لمدة عامين لتعلم الفرنسية، ثم أُرسِل إلى جامعة الأزهر بالقاهرة ليستكمل دراسته، كما التحق بكلية الآداب في الجامعة المصرية، وكذلك في مدرسة محمد رشيد رضا ثم نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، فلم يستطع العودة لاستكمال دراسته، فذهب إلى اسطنبول ليلتحق بالكلية العسكرية، وتخرج برتبة ضابط صف في الجيش العثماني، وقد ترك

الخدمة لاعتلال صحته بعد ثلاثة أشهر فقط من تخرجه، وعاد إلى القدس،  
فما لبثت القوات العربية والبريطانية أن سيطرت على القدس سنة ١٩١٧  
فالتحق بقوات الثورة العربية وجنّد لها المتطوعين، وكان قد أدّى فريضة الحج  
مع والدته في عام ١٩١٣ م، فاكسب لقب الحاجّ من حينها.

شارك الحاجّ أمين الحسيني في العمل الوطني الفلسطيني منذ نهاية الحرب  
العالمية الأولى في عام ١٩١٨ م، وشارك في عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول  
والمظاهرات الفلسطينية في عام ١٩٢٠ م، وقد أهتمته السلطات البريطانية بأنه  
وراء هذه المظاهرات، وهاجم شباب القدس القافلة البريطانية المشرفة على  
ترحيله للسجن، وهرب إلى سوريا، وحكم عليه غيائياً بالسجن ١٥ سنة،  
وتحت ضغط الغضب الفلسطيني صدر العفو عنه، وبعد عودته بأشهر يُتَوَقَّى  
شقيقه مفتي القدس، ويرشّحه رجال فلسطين لخلافة شقيقه وهو ابن خمسة  
وعشرين عاماً، ويفوز الشاب بالمنصب، ولكنه لا يكتفي بهذا، فيطالب  
بتشكيل هيئة إسلامية تشرف على كافة الشؤون الإسلامية في فلسطين،  
وينجح في إرغام السلطة البريطانية على الموافقة، ويفوز في انتخابات رئاسة  
هذه الهيئة، ويعمد من خلال هذه الهيئة إلى تنظيم الشعب الفلسطيني، فينظم  
الجمعيات الكشفية، وفرق الجواله، وإعدادها إعداداً جهادياً، ويتصل بكافة



المخلصين والمناضلين في العالمين العربي والإسلامي من أمثال عز الدين القسام  
وعبدالقادر الحسيني.

وأحسَّ القوم أن الرجل له علم ونظرة أعمق من مجرد حرب عدو ظاهر، وأن  
الأمر أخطر من مجرد السيطرة الإنجليزية، وأن هذه السيطرة ستار لمؤامرة  
استيطانية، وتتوحد الجهود، ويكون عبدالقادر الحسيني قائداً للأعمال  
العسكرية، والمفتي أمين الحسيني هو الواجهة السياسية، والمنسق (من خلال  
منصبه واتصالاته) للجهود العسكرية، وتوفير التمويل اللازم لكافة الجهود  
لنصرة القضية الفلسطينية، وتتحرك الثورة عام ١٩٢٩م، ثم في عام ١٩٣٣م،  
ثم تكون الثورة الكبرى عام ٣٦ - ١٩٣٩م، ويتولى أمين الحسيني مسئولية  
اللجنة العربية العليا لفلسطين، وهي لجنة سرية لتنسيق الجهود على مستوى  
الدول العربية لنصرة القضية الفلسطينية، وتتعبق بريطانيا المفتي في كل  
مكان، ويلجأ الرجل للمسجد الأقصى يدير الثورة من داخله، وتُصدر  
السلطة الإنجليزية قراراً بإقالة المفتي من جميع مناصبه.

ويضطر المفتي إلى الخروج من فلسطين إلى لبنان، وقد وقع في قبضة السلطة  
الفرنسية بها، وترفض فرنسا تسليمه للسلطة البريطانية، وتسمح له بالعمل في  
الفترة من ٣٧ إلى ١٩٣٩م، ومع بشائر الحرب العالمية الثانية، تقرر السلطة

الفرنسية القبض عليه ونقله للسجن، فيهرب إلى العراق، وهناك يشجع الضباط العراقيين على الثورة، وتقوم ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١م، ويناصر المفتي الثورة، ويشارك معه مجموعات فلسطينية على رأسها عبدالقادر الحسيني الذي يشارك في مقاومة التقدم الإنجليزي في العراق، ومع بداية الفشل للثورة ينتقل إلى طهران، ثم تنقل سرًا بين عدة عواصم أوروبية حتى انتهى به الأمر إلى برلين، وقد التقى في هذه المرحلة مع قادة دول المحور سواء في إيطاليا أو ألمانيا، ولم يكن الأمر مفاجئاً، فقد أجرى المفتي اتصالات سابقة مع القيادة الألمانية في بداية الحرب، وهذا أمر طبيعي، فالدول العربية كلها تقريباً ليس بينها وبين ألمانيا عداوة، ثانياً ألمانيا صارت العدو القوي المواجه لكل من إنجلترا وفرنسا وهما الدولتان اللتان تحتلان أغلب الدول العربية.

وفي لقاء مع هتلر في عام ١٩٤١م، عرض مطالب الثورة فرد هتلر أن هذه المطالب سابقة لأوانها، وأنه عند هزيمته لقوات الحلفاء في هذه المناطق سيأتي وقت مثل هذا الإعلان، ثم كانت المفاجأة عندما عرض أمين الحسيني في لقائه الثاني تكوين جيش عربي إسلامي من المتطوعين في الشمال الأفريقي وشرق المتوسط لمقاومة الحلفاء، فكان رد هتلر إنني لا أخشى الشيوعية الدولية، ولا أخشى الإمبريالية الأمريكية البريطانية الصهيونية، ولكن أخشى

أكثر من ذلك كله هذا الإسلام السياسي الدولي. ومن ثم بدأ الرجل يضع قواعد للاستفادة من الوضع الراهن.

وفي الحرب العالمية الثانية استطاع المفتي الهروب من ألمانيا في اللحظات الأخيرة قبل سقوط برلين، وتم القبض عليه في فرنسا، وقضى يومين في زنزانة مظلمة، ولكنه تقدم للضابط المسئول وعرفه بنفسه ومكانته، وطالب أن يعامل بالشكل اللائق، وبالفعل انتقل لمنزل جنوب باريس، وعندما أعلن عن وجوده في فرنسا، بدأت المطاردة له من السلطات البريطانية والأمريكية، والصهيونية داخل فرنسا، ورفضت فرنسا أن تسلّمه بسبب خلافها مع المصالح البريطانية والأمريكية وحرصًا على عدم استثارة المشاعر الإسلامية، وتدخّل ملك المغرب ورئيس تونس أثناء وجودهما في باريس، وطالبنا باصطحاب المفتي معهما، وتدخلت الجامعة العربية، ورئيس باكستان محمد علي جناح، من أجل سلامة المفتي، ورفضت فرنسا، وبدأت المقايضة الأمريكية مع مشروعات إعادة إعمار فرنسا بتمويل أمريكي، وقبل أن تقرر فرنسا تسليمه لأمريكا استطاع أن يهرب المفتي من فرنسا عن طريق استخدام جواز سفر لأحد أنصاره في أوروبا، وهو الدكتور معروف الدواليبي بعد استبدال الصورة. ونجح المفتي في الوصول إلى القاهرة عام ١٩٤٧م، وظل

متخفيًا بها عدة أسابيع حتى استطاع أن يحصل على ضيافة رسمية من القصر الملكي تحميه من المطاردة الدولية لشخصه.

وبدأ الحاج أمين الحسيني في تنظيم صفوف المجاهدين من القاهرة، ودخلت القضية الفلسطينية طورها الحرج، وتعلن الأمم المتحدة مشروع تقسيم فلسطين، وتعلن قيام دولة إسرائيل، ويرأس المفتي الهيئة العليا لفلسطين، وتبدأ الحرب، وتبدأ المؤامرات والخيانات، وتقوم بعض الدول العربية بمنع المجاهدين من الاستمرار في مقاومة العصابات الصهيونية، وذلك بحجة أن جيوشهم سوف تقوم بهذه المهمة، ثم يبدأ مسلسل الخيانات لاستكمال المؤامرة، وتنتهي الحرب بهزيمة جيوش الدول العربية، ويتم حمل المفتي من خلال موقعه كرئيس للهيئة العربية العليا على أن يُصدر أمرًا للمجاهدين الفلسطينيين بوضع السلاح، وما أن يتخلص المفتي من بعض القيود حتى يسرع لعقد المؤتمر الفلسطيني في القدس ليعلن استقلال فلسطين وقيام حكومتها، ولكن مصر تعتقل المفتي وحكومة عموم فلسطين وتحدد إقامتهم في القاهرة، ومع قيام الثورة، يبدأ المفتي في تنظيم الأعمال الفدائية على كافة الجبهات، وتستمر العمليات حتى عام ١٩٥٧م. وفي نفس الوقت ينشط في الجانب السياسي على مستوى الدول العربية والإسلامية، وبعض من الدول

الآسيوية؛ وذلك لتأييد الحق الفلسطيني في وطنه، ودعم الجهاد المسلح في مواجهة العدو الإسرائيلي، ويمثل فلسطين في تأسيس حركة عدم الانحياز عام ١٩٥٥م في مؤتمر باندونج، ولكن تدريجيًا يتم تقييد حركته السياسية ووقف العمل الفدائي من عام ١٩٥٧م على معظم الجبهات، وتظهر علامات مؤامرة جديدة، ومحاولة لإنهاء القضية في خطوات سلمية، وتظهر خطة التسوية مع أعوام ١٩٥٩م، ١٩٦٠م والمعروفة بخطة همر شولد، وهي الخطة التي وافقت عليها دول المواجهة العربية مقابل ثلاثة مليارات من الدولارات، وينتقل الحاج أمين الحسيني إلى بيروت عام ١٩٦١م، وينقل إليها مقر الهيئة العربية العليا، ويفضح الرجل خطوط المؤامرة، وتفشل الخطة.

وتبدأ خطة عربية بإنشاء كيان بديل للهيئة العربية العليا، وتبدأ بإصدار قرار من جامعة الدول العربية بإنشاء كيان فلسطيني عام ١٩٦٣م، وينشأ الكيان تحت رعاية مصر باسم منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤م، ويعين رئيساً لها أحمد الشقيري الذي يخضع للتوجهات العربية، وبعد نكسة عام ١٩٦٧م، يبدأ الحسيني من جديد نشاطه من أجل القضية، موضحاً موقفه الثابت أن القضية لن يتم حلها إلا بالجهاد المسلح، ويستمر الرجل في نضاله حتى

تُفضي روحه إلى بارئها عام ١٩٧٤م. وقد توفي الحسيني عام ١٩٧٤  
ببيروت، وشيع بجنائزة رسمية حضرها ياسر عرفات، ودفن في مقبرة الشهداء.

## شيخ المقاومة

عالم مسلم وداعية ومجاهد وقائد، ولد في بلدة جبلة من أعمال اللاذقية سنة ١٨٨٣م، وترى في أسرة متديّنة ومعروفة باهتمامها بالعلوم الشرعية، ثم ارتحل إلى الجامع الأزهر بالقاهرة سنة ١٨٩٦م عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره، وتخرّج فيه سنة ١٩٠٦م، وعاد إلى بلده جبلة، حيث عمل مدرساً وخطيباً في جامع إبراهيم بن أدهم. إنه محمد عز الدين بن عبدالقادر القسّام (١٨٨٣-١٩٣٥م) الشهير باسم عز الدين القسّام.

احتل الفرنسيون الساحل السوري في ختام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م، فثار القسّام في جماعة من تلاميذه ومريديه، وطارده الفرنسيون، فقصد دمشق إبان الحكم الفيصلي، ثم غادرها بعد استيلاء الفرنسيين عليها سنة ١٩٢٠م، فأقام في حيفا بفلسطين، وتولى فيها إمامة جامع الاستقلال وخطابته، ورياسة جمعية الشبان المسلمين. واستطاع القسّام في حيفا تكوين جماعة سرية عُرفت باسم العُصبة القسّامية، وفي عام ١٩٣٥م شددت السلطات البريطانية الرقابة على تحركات القسّام في حيفا، فقرر الانتقال إلى الريف حيث يعرفه أهله منذ أن كان مأذوناً شرعياً وخطيباً محبوب القرى

ويحرض ضد الانتداب البريطاني، فأقام في قضاء جنين ليبدأ عملياته المسلحة من هناك.

إلا أن القوات البريطانية كشفت أمر القسام، فتحصن هو وبعض أتباعه بقرية الشيخ زيد، فلحقت القوات البريطانية بهم وطوتهم وقطعت الاتصال بينهم وبين القرى المجاورة، وطالبتهم بالاستسلام، لكنه رفض واشتبك مع تلك القوات، وقتل منها خمسة عشر جندياً، ودارت معركة غير متكافئة بين الطرفين لمدة ست ساعات، وانتهت المعركة بمقتل القسام وثلاثة من رفاقه، وجرح وأسر آخرون. وكان لمقتل القسام الأثر الأكبر في اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦م، والتي كانت نقطة تحول كبيرة في مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية بعد ذلك.

استشهد القسام في معركة يعبد، فوجدوا في ثيابه مصحفاً وأربعة عشر جندياً فقط، وقد زعم بعض المؤلفين أن القسام باع بيته في حيفا قبل خروجه، ورؤي أن القسام لم يكن يمتلك بيتاً، وإنما كان يسكن بيتاً مستأجراً، وكذلك رفيقه محمد الحنفي، مع أن القسام والحنفي قد وصلت لأيديهم آلاف الجنيهات، فكانوا ينفقونها في شراء السلاح.



نُقلت جثامين القتلى من ساحة المعركة إلى جنين، ثم أرسلت إلى حيفا لتُسَلَّم إلى ذويها، واشترطت السلطات البريطانية شرطين: أولاهما: أن يكون الدفن في الساعة العاشرة من صباح الغد الخميس وثانيهما: أن تسير الجنازة من بيت عز الدين القسام الواقع خارج البلدة إلى المقبرة في بلد الشيخ، فلا يُستطاع السير بالجثامين داخل المدينة.

وصدرت الصحافة المحلية تحمل نبأ وفاة القسام في صفحاتها الأولى، وعندما وصل النبأ إلى الناس أقفلت حيفا محالها، وتدفقت إلى بيت القسام، وجاءت الوفود من جميع أنحاء فلسطين لتشارك في تشييع الجنازة، وأخذت المآذن تزفّ الخبر في جميع أنحاء البلاد. وحمل الناس نعوش القتلى الثلاثة، واتجهوا إلى جامع الجرينة في وسط حيفا، مخالفين شرط السلطات البريطانية، وبعد صلاة الجنازة أثنى الشيخ يونس الخطيب قاضي مكة الأسبق القتلى بكلمة مؤثرة، بيّن فيها أجر الشهداء عند ربهم.

## شيخ المجاهدين

داعية ومجاهد من أعلام الدعوة الإسلامية في فلسطين والمؤسس ورئيس لأكبر جامعة إسلامية بها المجمع الإسلامي في غزة، ومؤسس حركة المقاومة الإسلامية حماس وزعيمها حتى وفاته. ولد في قرية الجورة التابعة لقضاء المجدل جنوبي قطاع غزة. لجأ مع أسرته إلى قطاع غزة بعد حرب ١٩٤٨. أصابه حادث في شبابه أثناء ممارسته للرياضة نتج عنه شلل تام لجميع أطرافه. عمل مدرساً للغة العربية والتربية الإسلامية ثم عمل خطيباً ومدرساً في مساجد غزة. وأصبح في ظل حكم إسرائيل أشهر خطيب عرفه قطاع غزة لقوة حجته وجسارته في الحق. إنه الشيخ أحمد ياسين (١٩٣٦-٢٠٠٤).

شارك وهو في العشرين من عمره في المظاهرات التي اندلعت في غزة احتجاجاً على العدوان الثلاثي الذي استهدف مصر عام ١٩٥٦ وأظهر قدراتٍ خطابية وتنظيمية ملموسة. بعد هزيمة ١٩٦٧م التي احتلت فيها إسرائيل كل الأراضي الفلسطينية بما فيها قطاع غزة استمر أحمد ياسين في إلهاب مشاعر المصلين من فوق منبر مسجد العباسي الذي كان يخطب فيه لمقاومة المحتل، ويجمع التبرعات والمعونات لأسر الشهداء والمعتقلين، ثم عمل رئيساً للمجمع الإسلامي بغزة. واعتقل الشيخ أحمد ياسين عام ١٩٨٣ بتهمة حيازة أسلحة

وتشكيل تنظيمٍ عسكريٍ والتحريض على إزالة الدولة اليهودية من الوجود، وأصدرت عليه إحدى المحاكم الإسرائيلية حكماً بالسجن ١٣ عاماً. أفرج عنه عام ١٩٨٥ في عملية تبادل للأسرى بين سلطات إسرائيل والجهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وأسس أحمد ياسين مع مجموعةٍ من رفاقه حركة المقاومة الإسلامية حماس بعد خروجه من السجن ومع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧ ضد إسرائيل ومع تصاعد الانتفاضة بدأت السلطات الإسرائيلية التفكير في وسيلةٍ لإيقاف نشاط أحمد ياسين فقامت في عام ١٩٨٨ م بمداهمة منزله وتفتيشه، وهددته بالنفي إلى لبنان، ثم ألقت القبض عليه مع المئات من أبناء الشعب الفلسطيني عام ١٩٨٩ م في محاولة لوقف المقاومة المسلحة التي أخذت آنذاك طابع الهجمات بالأسلحة الأبيض على الجنود والمستوطنين واغتيال العملاء. وفي عام ١٩٩١ م أصدرت إحدى المحاكم الإسرائيلية حكماً بسجنه مدى الحياة إضافة إلى ١٥ عاماً أخرى بتهمة التحريض على اختطاف وقتل جنودٍ إسرائيليين وتأسيس حركة حماس وجهازها العسكري والأمني. وفي عام ١٩٩٧ م تم الإفراج عنه بموجب اتفاقٍ تم التوصل إليه بين

الأردن وإسرائيل على إثر العملية الفاشلة التي قام بها الموساد في الأردن، والتي استهدفت حياة خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس.

وقُتل الشيخ أحمد ياسين في هجوم صاروخي شنته الطائرات الإسرائيلية عليه وعلى من معه من مساعدين. حيث قصفت الطائرات الشيخ أحمد ياسين أثناء عودته على كرسيه المتحرك بعد أداء صلاة الفجر بمسجد المجمع الإسلامي القريب من منزله. تمتع الشيخ أحمد ياسين بموقع روحي وسياسي متميز في صفوف المقاومة الفلسطينية، مما جعل منه واحداً من أهم رموز العمل الوطني الفلسطيني طوال القرن العشرين.

## القائد الصائم القائم

قائد عسكري سوري استشهد في مواجهة الجيش الفرنسي الذي قدم لاحتلال سوريا ولبنان حيث كان وزير الحربية للحكومة العربية في سوريا بقيادة الملك فيصل الأول، أتقن العربية والتركية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإنجليزية، وفي كل عام في ذكرى استشهاده يقام احتفال في مقبرة الشهداء في ميسلون حيث تُحمل إليه الأكاليل من مختلف الديار العربية. إنه يوسف بن إبراهيم بن إسماعيل باشا آل العظمة الشهير بيوسف العظمة (١٨٨٤ - ١٩٢٠).

ولد يوسف في حي الشاغور الصمادية بدمشق في منتصف شهر رجب عام ١٣٠١ هـ الموافق ٩ نيسان ١٨٨٤ لعائلة دمشقية، توفي والده الذي كان موظفاً في مالية دمشق عندما كان يوسف في السادسة من عمره. فقام شقيقه الأكبر عبدالعزيز بتولي شؤون تربيته والإنفاق عليه.

دخل يوسف المدرسة الابتدائية في الياغوشية ثم انتقل بعدها إلى المدرسة الرشدية العسكرية في جامع يلبغا ضمن حي البحصنة عام ١٨٩٣ ليتابع بعدها انتظامه العسكري في دمشق في المدرسة الإعدادية العسكرية عام

١٨٩٧ وكان مقرها في جامع تنكز. انتقل بعد ذلك في عام ١٩٠٠ إلى مدرسة قله لي الإعدادية العسكرية الواقعة على شاطئ البوسفور المضيق بالآستانة - إسطنبول - فأحرز الشهادة الإعدادية في ذلك العام منتقلاً عام ١٩٠١ إلى مدرسة حربية شاهانه في الآستانة وتخرج فيها عام ١٩٠٣ برتبة ملازم ثان، وفي عام ١٩٠٥ أصبح ملازماً أول. ومن ثم انتقل لمدرسة الأركان حرب حيث أتم فيها العلوم والفنون الحربية العالية وحصل على رتبة يوزباشي أركان حرب عام ١٩٠٧ واستلم وسام المعارف الذهبي. قال عنه المؤرخ محمود شاكر في التاريخ الإسلامي: كان يتكلم العربية والتركية والفرنسية والألمانية، وكان متديناً متمسكاً بإسلامه، مؤدياً لصلاته، وصائماً أيام الصوم، ومحافظاً على شعائر الإسلام.

تنقل يوسف في الأعمال العسكرية بين دمشق والآستانة ففي عام ١٩٠٨ أرسل إلى الآستانة وعيّن مدرباً مساعداً لمادة التعبئة في مدرسة الأركان حرب التي تقع في قصر يلدز السلطاني، ثم نقل عام ١٩٠٩ كرئيس متفوق ضمن صفوف الجيش العثماني في منطقة الروملي على البر الأوروبي. وبعدها تم إرساله في بعثة إلى ألمانيا ليلتحق بمدرسة أركان الحرب العليا من عام ١٩٠٩ ولمدة سنتين. لكنه أصيب بمرض حاد بسبب طبيعة الجو البارد فعاد إلى

الآستانة ليعين ملحقاً عسكرياً في المفوضية العثمانية العليا في القاهرة ومعاوناً للمفوض السامي العثماني.

وفي عام ١٩١٢ كان يعمل ضمن الشعبة الأولى المتفوقة - الأركان حرب - في الآستانة، لكنه اضطر بعدها إلى التنقل بين قطاعات الجيش العسكرية إبان حرب البلقان ١٩١٣. وما لبثت أن اندلعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ فأرسل رئيساً لأركان حرب الفرقة الخامسة والعشرين العاملة في بلغاريا، وعين رئيساً لأركان حرب الفرقة العشرين ثم الخامسة والعشرين. وكان مقر هذه الفرقة في بلغاريا ثم في النمسا ثم في رومانيا، حيث عمل على مقربة من قائد الجبهات المارشال ماكرون قائد القوى الألمانية الحاربة والذي ضمه إلى هيئة أركان الحرب الألمانية ممثلاً عن الجيش العثماني.

عاد يوسف بعدها إلى الآستانة ليصبح مرافق وزير الحربية العثمانية أنور باشا وليبدأ في التنقل وتفقد الجيوش العثمانية في كل من الأناضول وسورية والعراق، وما لبث أن عيّن رئيساً لأركان حرب القوات المرابطة في القفقاس بسبب تأزم الأحداث هناك، ثم أصبح رئيساً لأركان حرب الجيش الأول بإسطنبول. في نهاية تشرين الأول عام ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية وعاد يوسف العظمة ومنها سافر إلى دمشق عقب دخول الأمير فيصل بن الحسين

إليها، فاختاره الأمير فيصل، قبل أن يصبح ملكاً، مرافقاً له، ثم عينه معتمداً عربياً في بيروت فرئيساً لأركان الحرب العامة برتبة قائم مقام في سوريا. ثم ولي وزارة الحربية سنة ١٩٢٠ وأصبح وزيراً للحربية السورية بدمشق، فنظم جيشاً وطنياً سورياً يناهز ١٠ آلاف مقاتل.

وفي يونيو عام ١٩٢٠ أوفد فيصل مستشاره نوري السعيد للقاء الجنرال الفرنسي غورو في بيروت، فعاد السعيد إلى دمشق مزوداً بإنذار عرف باسم إنذار غورو وحددت مدة أربعة أيام لقبوله.

جمع الملك فيصل وزراره لمداولة الأمر بينهم فكان رأي الكثيرين منهم النزول عند مطالب غورو ومهادنته وقبول الإنذار وهنا برز الموقف الرجولي لوزير الحربية يوسف العظمة الذي عارض قبول الإنذار بشدة وحاول بكل الوسائل ثني الملك فيصل عن الاستجابة لتهديد الفرنسيين بحل الجيش العربي السوري.

وبالرغم من قبول الحكومة السورية للإنذار والعدول عن فكرة المقاومة وقبول مطالب الجنرال غورو والأمر بتسريح الجيش السوري وسحب الجنود من روابي قرية مجدل عنجر مخالفة بذلك قرار المؤتمر السوري العام ورأي الشعب المتمثل بالمظاهرات الصاخبة المنددة بالإنذار وبمن يقبل به، وإرسال الملك فيصل خطاباً إلى الجنرال غورو بالموافقة على الشروط وحل الجيش، بدأت القوات



الفرنسية بالزحف بإمرة الجنرال غوايه (بأمر من الجنرال غورو) باتجاه دمشق في ٢٤ يوليو عام ١٩٢٠ بينما كان الجيش السوري المرابط على الحدود يتراجع منفصلاً، ولما سُئل الجنرال غورو عن هذا الأمر أجاب بأن برقية فيصل بالموافقة على بنود الإنذار وصلت إليه بعد انتهاء المدة.

لم يكن أمام أصحاب الغيرة والوطنية إلا المقاومة حتى الموت وكان على رأس هذا الرأي وزير الحربية يوسف العظمة، الذي عمل على جمع ما تبقى من الجيش مع مئات المتطوعين والمتطوعات الذين اختاروا هذا القرار واتجهوا لمقاومة القوات الغازية الفرنسية الزاحفة باتجاه دمشق، وقد أراد العظمة بخروجه أن يحفظ لتاريخ سورية العسكري هيئته ووقاره، فقد كان يخشى أن يسجل في كتب التاريخ أن الجيش السوري قعد عن القتال ودخل المحتل عاصمته دون مقاومة، كما أراد أن يسجل موقفاً أمام الشعب السوري نفسه بأن جيشه حمل لواء المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي منذ اللحظة الأولى، وأن ذلك سيكون نبراساً للشعب السوري في مقاومته للمحتل، فقد كان يدرك أن من يهّن يسهل الهوان عليه، وهوان الجيش قد تكون له عواقب وخيمة على البلاد ومستقبل المقاومة.

وقد بلغ مجموع القوى الفرنسية تسعة آلاف جندي، يظاهرها طائرات ودبابات ورشاشات عديدة، بينما لم يتجاوز الجيش السوري ثلاثة آلاف جندي غالبيتهم من المتطوعين.

وفي الساعة التاسعة من يوم ٢٤ يوليو عام ١٩٢٠ بدأت المعركة عندما بدأت المدفعية الفرنسية في التغلب على المدفعية العربية، وبدأت الدبابات الفرنسية بالتقدم باتجاه الخط الأمامي العربي، ثم أخذ جنود السنغال الفرنسيين يحملون على ميسرة الجيش السوري المؤلف في معظمه من المتطوعة، وهاجم عدد من الخونة ميسرة الجيش السوري من الخلف وقضى على الكثير من الجنود وسلب منهم أسلحتهم، ولم يعبأ العظمة بهذه المصائب، وبقي بجمته وثباته وعزيمته، وكان قد بث الألغام على رؤوس وادي القرن وهو ممر الجيش الفرنسي آملاً بأنه عند صعود الدبابات تنفجر الألغام، إلا أن الخونة قد سبقوا وقطعوا أسلاك الألغام، وقد قبض على بعضهم وهم ينفذون خيانتهم، ولكن سبق السيف العذل، فلما اقتربت الدبابات أمر يوسف العظمة بإشعال الألغام فلم تشتعل وتقدم ففحصها بنفسه فرأى أكثرها معطلة تماماً وأسلاكها مقطوعة، ثم سمع ضجة من خلفه فالتفت فرأى أن الكثيرين من الجيش والمتطوعة قد ولوا الأدبار على أثر قبلة سقطت من إحدى الطائرات فلم يسعه إلا أن

عمد إلى بندقيته وهي آخر ما لديه من قوة فلم يزل يطلق نيرانه على العدو حتى مقتله يوم الأربعاء ٢٤ يوليو عام ١٩٢٠.

استشهد يوسف العظمة في معركة ميسلون ليكون بذلك أول وزير دفاع عربي يُقتل في معركة، وقد دفن في مقبرة الشهداء في ميسلون التي تبعد ٢٨ كيلو متراً شمال غرب دمشق.

## أسد الصحراء

شيخ الشهداء وشيخ المجاهدين وأسد الصحراء وقائد أدوار السنوسية في ليبيا، وأحد أشهر المقاومين العرب والمسلمين. ينتمي إلى بيت فرحات من قبيلة منفة الهلالية التي تنتقل في بادية برقة. إنه السيد عُمر بن مُحْتار بن عُمر المنفي الهلالي (١٨٥٨ - ١٩٣١) الشهير بعُمر المختار.

حارب عُمر المختار الإيطاليين مذ كان عمره ٥٣ عامًا لأكثر من عشرين عامًا في عدد كبير من المعارك، إلى أن قُبض عليه من قبل الجنود الطليان، وأُجريت له محاكمة صوريّة انتهت بإصدار حكم بإعدامه شنقًا، فنفذت فيه العقوبة على الرغم من أنه كان كبير السن ومريضًا، فقد بلغ في حينها ٧٣ عامًا وعانى من الحمى. وكان الهدف من إعدام عمر المختار إضعاف الروح المعنويّة للمقاومين الليبيين والقضاء على الحركات المناهضة للحكم الإيطالي، لكن النتيجة جاءت عكسيّة، فقد ارتفعت حدّة الثورات، وانتهى الأمر بأن طُردت القوات الإيطالية من البلاد.

وقد حصد عُمر المختار إعجاب وتعاطف الكثير من الناس أثناء حياته، وأشخاص أكثر بعد إعدامه، فأخبار الشيخ الطاعن في السن الذي يُقاتل في

سبيل بلاده ودينه استقطبت انتباه الكثير من المسلمين والعرب الذين كانوا يعانون من نير الاحتلال الأوروبي في حينها، وحثّت المقاومين على التحرك، وبعد وفاته حصدت صورته وهو مُعلّق على حبل المشنقة تعاطف أشخاص أكثر، من العالمين الشرقي والغربي على حد سواء، فكَبُرَ المختار في أذهان الناس وأصبح بطلاً شهيداً. ورثا عدد من الشعراء المختار بعد إعدامه، وظهرت شخصيته في فيلم من إخراج مصطفى العقّاد من عام ١٩٨١ حمل عنوان أسد الصحراء، وفيه جسّد الممثل المكسيكي - الأمريكي أنطوني كوين دور عُمر المختار.

وعندما وقع الشهيد في الأسر لم يصدّق وزير المستعمرات الخبر في البداية. وغراتسياني الذي كان متوجّهاً إلى باريس نزل من قطاره ليعود مسرعاً إلى بنغازي. ثم انقلبت دهشتهم إلى فرح هستيري، وإصرار على محاكمة فوريّة والإعدام بصورة صاخبة ومثيرة. لكن ما فاجأ الطليان كان هدوء الأسير وصراحته المذهلة في الرد على أسئلة المحققين، بثبات تام ودون مراوغة، فقد وصل غراتسياني إلى بنغازي يوم ١٤ سبتمبر، وأعلن عن انعقاد المحكمة الخاصة يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣١، وفي صبيحة ذلك اليوم وقبل المحاكمة رغب غراتسياني في الحديث مع عمر المختار. يذكّر غراتسياني في مذكراته: وعندما

حضر أمام مكثي تهيأ لي أنني أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية. يدها مكبلتان بالسلاسل، رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة، وكان وجهه مضغوطاً لأنه كان مُغطياً رأسه بالجرد ويجرّ نفسه بصعوبة نظراً لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال يُخيل لي أنّ الذي يقف أمامي رجلٌ ليس كالرجال: له منظره وهيبته رغم أنّه يشعر بمرارة الأسر، ها هو واقفٌ أمام مكثي نسأله ويجيب بصوتٍ هادئٍ وواضح:

- غراتسياني: لماذا حاربت بشدّة متواصلة الحكومة الفاشية؟

- أجاب المختار: من أجل ديني ووطني.

- غراتسياني: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

- فأجاب المختار: لا شيء إلا طردكم لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهي فرضٌ علينا وما النصر إلا من عند الله.

- غراتسياني: لما لك من نفوذ وجاه، في كم يوم يمكنك أن تأمر الثوار بأن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتهم؟

- فأجاب المخترار: لا يُمكنني أن أعمل أي شيء وبدون جدوى نحن الثوار  
سبق أن أقسمنا أن نموت كلُّنا الواحد بعد الآخر، ولا نسلِّم أو نُلقِي  
السلاح.

ويستطرد غراتسياني في حديثه: عندما وقف ليتهيأ للانصراف، كان جبينه  
وضاءً كأنَّ هالة من نور تُحيط به، فارتعش قلبي من جلاله الموقف، أنا الذي  
خاض المعارك والحروب العالميَّة، والصحراويَّة، ولُقت بأسد الصحراء، وُرغم  
هذا فقط كانت شفطاي ترتعشان ولم أستطع أن أنبس بحرفٍ واحد، فانتهدت  
المقابلة وأمرتُ بإرجاعه إلى السجن لتقديره للمُحاكمة في المساء، وعند وقوفه  
حاول أن يمد يده لمصافحتي ولكنَّه لم يتمكن لأن يديه كانت مُكبلة  
بالحديد. لقد خرج من مكنتي كما دخل عليَّ وأنا أنظر إليه بكل إعجاب  
وتقدير.

وفي الساعة الخامسة مساءً في ١٥ سبتمبر ١٩٣١ جرت محاكمة عمر  
المخترار التي أعد لها الطليان مكان بناء برلمان برقة القديم، وكانت محاكمة  
صورية شكلاً وموضوعاً، إذ كان الطليان قد أعدوا المشنقة وانتهوا من  
ترتيبات الإعدام قبل بدء المحاكمة وصدور الحكم على المخترار، ويبدو ذلك  
جلياً من خلال حديث غراتسياني مع المخترار خلال مقابلتهم، حين قال له:

إني لأرجو أن تظل شجاعاً مهما حدث لك أو نزل بك، فأجابه المختار: إن شاء الله.

جاء بعمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلاً بالحديد، وحوله الحرس من كل جانب، وأحضر أحد المترجمين ليتولى الترجمة للمختار وللقضاة، فلمَّا افتتحت الجلسة وبدأ استجواب المختار، بلغ التأثير بالترجمان، حدًّا جعله لا يستطيع إخفاء تأثيره وظهر عليه الارتباك، فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار ترجمان آخر فوق الاختيار على أحد اليهود من بين الحاضرين في الجلسة، فقام بدور المترجم، وكان عمر المختار جريئًا صريحًا، يصحح للمحكمة بعض الوقائع، خصوصًا حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتي، اللذين أسرها المجاهدون قبل ذلك. وبعد استجواب المختار ومناقشته، وقف المدعي العام بيدندو، فطلب الحكم على عمر المختار بالإعدام. وكان لحضور المختار في المحكمة أمام خصومه أثرٌ في نفوسهم، فرؤية شيخ طاعن في السن مُكَبَّل بالسلاسل، صريحٌ وشجاع عندما يتكلم، كان لها وقعٌ على الكثير من الحاضرين، ولعلَّ أبرز ما يُظهر ذلك هو أنه عندما جاء دور المحامي المعهود إليه بالدفاع عن المختار، وكان ضابطاً إيطالياً شاباً من رتبة نقيب يُدعى روبرتو لونتانو، حاول أن يُثقي على حياة المختار، فطالب بالحكم عليه



بالسحن المؤبد نظرًا لشيخوخته وكبر سنّه، متحججًا بأنّ هذا عقاب أشدّ قساوةً من الإعدام. غير أنّ المدعي العام، تدخل وقطع الحديث على المحامي وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته مستندًا في طلبه هذا إلى أنّ الدفاع خرج عن الموضوع، وليس من حقه أن يتكلم عن كبر سن عمر المختار وشيخوخته ووافقت المحكمة. عندئذٍ وقف المحامي وقال: إنّ هذا المتهم الذي انتدبت للدفاع عنه إنما يُدافع عن حقيقة كلّنا نعرفها، وهي الوطن الذي طالما ضحينا نحن في سبيل تحريره، إنّ هذا الرجل هو ابن لهذه الأرض قبل أن تطأها أقدامكم، وهو يعتبر كل من احتلها عنوة عدوًّا له، ومن حقه أن يقاومه بكل ما يملك من قوّة، حتى يُخرجه منها أو يهلك دونها، إن هذا حق منحه إياه الطبيعة والإنسانية. إنّ العدالة الحقّة لا تخضع للغوغاء وإني آمل أن تحذروا حكم التاريخ، فهو لا يرحم، إنّ عجلته تدور وتسجّل ما يحدث في هذا العالم المضطرب.

وهنا كثر الضجيج ضدّ المحامي ودفاعه، لكنه استمر بالكلام والدفاع عن المختار، فقام النائب العام ليحتج، فقاطعه القاضي برفع الجلسة للمداولة، وبعد مضي فترة قصيرة من الانتظار دخل القاضي والمستشاران والمدعي العام بينما المحامي لم يحضر لتلاوة الحكم القاضي بإعدام عمر المختار شنقًا حتى

الموت، وعندما تُرجم الحكم إلى عمر المختار اكتفى بالقول: إن الحكم إلا لله لا لحكمكم المزيّف إنّنا لله وإنّا إليه راجعون.

وفي صباح اليوم التالي للمحاكمة، أي الأربعاء في ١٦ سبتمبر ١٩٣١، أخذت جميع التدابير اللازمة بمركز سلوك لتنفيذ الحكم بإحضار جميع أقسام الجيش والمليشيا والطيران، وأحضر ٢٠ ألفاً من الأهالي وجميع المعتقلين السياسيين خصيصاً من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم في قائدهم. وأحضر المختار مُكبّل اليدين. وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً سُلم إلى الجلّاد، وبمجرد وصوله إلى موقع المشنقة أخذت الطائرات تحلق في الفضاء فوق ساحة الإعدام على انخفاض، وبصوت مدوّي لمنع الأهالي من الاستماع إلى عمر المختار إذا تحدث إليهم أو قال كلاماً يسمعونه، لكنه لم ينبس بكلمة، وسار إلى منصة الإعدام وهو ينطق الشهادتين، وقيل عن بعض الناس الذين كان على مقربة منه إنه كان يؤدّن في صوت خافت للصلاة عندما صعد إلى الجبل، وهو يقرأ: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. وبعد دقائق كان قد علّق على المشنقة وفارق الحياة.

## عالم مسلم من بلوشستان

إن اغتيال رجال الدين والناشطين المعارضين في إقليم بلوشستان ذي الأغلبية السنّية تعد سياسة ممنهجة للمخابرات الإيرانية، وذلك في أعقاب اغتيال رجل دين بارز في الإقليم الواقع جنوب شرقي البلاد. إن المخابرات الفارسية دائماً ما تستهدف السنّة في بلوشستان (الواقع جنوب شرق البلاد على المثلث الحدودي مع أفغانستان وباكستان) وخاصة رجال الدين والنشطاء المعارضين. وليست المرة الأولى التي يتم فيها اغتيال رجال دين، بينما تجري اعتقالات بشكل مستمر للنشطاء المعارضين.

فقد قام جهاز المخابرات باغتيال الشيخ عبدالعزيز يعقوب الكردي، أحد كبار رجال الدين السنة في إقليم بلوشستان. وذكر بيان للمكتب الإعلامي لحركة النضال العربي لتحرير الأحواز أن مسلحين دخلوا المسجد وأطلقوا النار على الشيخ في باحة المسجد وأردّياه قتيلاً بعد أدائه صلاة الجمعة، مشيرة إلى أن المسلحين من عناصر المخابرات الإيرانية. وعمّت مدينة خاش حالة من الاستياء والغضب الشديدين بعد عملية الاغتيال وخرجت مظاهرة كبيرة في وسط المدينة منددة بهذا العمل الجبان.

وحمل دعاة وعلماء أهل السنة في بلوشستان الاستخبارات الإيرانية المسؤولية عن عملية الاغتيال وطالبوا بوقف عمليات الاغتيال بحق علماء ورجال الدين أهل السنة وإلا أنهم لن يكونوا مسؤولين عن ردة فعل الجماهير الغاضبة عن الحادث.

يذكر أن الشيخ عبدالعزيز كان من المعارضين للنظام الإيراني الراضين لتحقيق مصالحه على حساب أهل السنة في بلوشستان.

وفي أول رد فعل في العالم الإسلامي أدانت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) اغتيال العالم عبدالعزيز يعقوب، ووصفت الحادث بالجرمة النكراء، مطالبةً بمحاسبة المسؤول عنها. ووصف مدير عام إيسيسكو الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري، الحادث بالجرمة النكراء والعمل الجبان، كما طالب بمحاكمة من قام به ومعاقبته بأشد العقوبات.

خبراء في الشأن البلوشي أكدوا أن سلطات الاحتلال الفارسي تمارس سياسة الاغتيالات بحق رجال الدين وعلماء أهل السنة في بلوشستان بعد فشلها في إرغامهم على التعاون معها في سبيل مواجهة الحراك المقاوم الراض للوجود الفارسي في الإقليم.

## أحد شهداء البوسنة

بعد ٢٥ عاماً.. أسرة بوسنية تستعد لدفن ابنها الذي قُتل بسربرنيتسا؛ فقد استعدت عائلة إيبيشيفيتش لدفن أحد أبنائها الذي قُتل في الإبادة الجماعية التي وقعت في سربرنيتسا شرقي البوسنة والهرسك عام ١٩٩٥، ولم تستطع العائلة أن تصل إلى رفات ابنها الآخر الذي قُعد في المذبحة.

وفقدت عائلة إيبيشيفيتش اثنين من أبنائها في مذبحة سربرنيتسا وستقوم بدفن ابنها الكبير سالكو إيبيشيفيتش الذي كان يبلغ من العمر ٢٣ عاماً عند مقتله، في مقبرة بوتوتشاري في الذكرى السنوية للمذبحة.

وقال الأب أحمو إيبيشيفيتش إنه فقد ما يقرب من ٤٠ فردًا من عائلته في مذبحة سربرنيتسا. وأكد إيبيشيفيتش أنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى رفات ابنهم الآخر سمير على الرغم من مرور ٢٥ عاماً على قتله. وأشار إلى أنهم لم يعثروا على كامل جثة ابنهم سالكو الذي سيقومون بدفنه. وأوضح الأب المكلم أنهم أمضوا تسع سنوات في البحث عما تبقى من رفات سالكو، ولكنهم بعد كثير من البحث قرروا أن يقوموا بدفن ما تبقى من عظامه.

وأوضح كذلك أنهم لم يعثروا على جثة ابنهم الآخر والذي كان يبلغ من العمر اثنتين وعشرين عامًا عند مقتله.

يعيش أحمو إبيشيفيتش حياةً متواضعة بسيطة مع زوجته زينتا في مدينة إيلياس بالقرب من سارايفو. وذكر أنه بعد وقوع سربرنيتسا في أيدي وحدات القوات الصربية، فقد توجه مع ابنه إلى طريق الغابات للوصول من خلالها إلى المنطقة التي تقع تحت سيطرة الجنود البوسنيين. وأوضح أن آخر مرة شوهد فيها سالكو كان يحمل أحد أقربائه على ظهره. وتابع: أما سمير فقد كان يسير مع اثنين من أصدقائه في الغابة. وأخبرتهم إلى أين يجب أن يتجهوا، وأين نلتقي بهم. وأفاد الأب إبيشيفيتش أنه سيقوم بدفن ابنه بعد ٢٥ عامًا كاملة على وفاته. واستطرد: سيكون الأمر صعبًا في البداية وشاهدًا على الأحداث، ولن تهدأ آلامنا أو تنتهي، خاصة أننا سنواصل حياتنا مع الألم بسبب فراق ابنا الصغير. وأكد إبيشيفيتش أن من كانوا يعيشون معه في سربرنيتسا لا يستطيعون إدراك ما حدث في الحرب، وأنه لا يفكر في العودة إلى سربرنيتسا مطلقًا.

وقالت الأم زينتا إبيشيفيتش إنها تعيش على صور ابنها. وأضافت: نحن مسلمون، وعشنا في نفس المنطقة مع الصرب. ولم يحدّرنا أحد قط من ضرورة

حماية أبنائنا منهم. وتحكي الأم كيف رأت ابنها سالكو عبر نافذة الحافلة وهو يسير على جانب الطريق في صف مُقتادًا إلى المنطقة التابعة لنفوذ الجنود البوسنيين. وتابعت: كانوا يتقدمون في صف مزدوج من فردين ويقودهم صرب مسلحون بالبنادق. كنت أود النزول من الحافلة، ولكن لم يُسمح لي بذلك.

## لأنها أسلمت

تلقت المواطنة الإيطالية سيلفيا كونستانزو رومانو المحررة بمساعدة الاستخبارات التركية من الخطف، الكثير من التهديدات عبر وسائل التواصل الاجتماعي، عقب اعتناقها الإسلام مؤخراً. وذكرت الأنباء التي تداولتها وسائل إعلام إيطالية، أن رومانو تلقت تهديدات وعبارات كراهية في تعليقات على منصات وسائل التواصل الاجتماعي. وفي منشور له على فيسبوك، ربط نيكو باسو، عضو مجلس بلدية أسولو بمقاطعة أوريستانو الإيطالية، التهديدات باعتناق رومانو الدين الإسلامي، ثم عاد وحذف منشوره، بحسب وسائل الإعلام.

ولفتت الأنباء إلى فتح مكتب المدعي العام في ميلانو تحقيقاً في خطابات الكراهية التي تصل إلى حد التهديد بالقتل. وأشارت إلى اتخاذ شرطة ميلانو تدابير أمنية واسعة النطاق في الشارع الذي يقع فيه منزل رومانو. وفي ٩ مايو ٢٠٢٠، حررت الاستخبارات التركية رومانو خلال عملية أمنية قادتها بالتعاون مع نظيرتها الإيطالية والصومالية، بعد أن اختطفت قبل ١٨ شهراً في كينيا. وتسلمت البعثة الدبلوماسية الإيطالية مواطنتها المحررة بالعاصمة



الصومالية مقديشو، ولم تذكر المصادر معلومات عن الجهة المختطفة للمواطنة الإيطالية.

وحطت طائرة خاصة تحمل على متنها رومانو بمطار شيامبينو في العاصمة روما. وأعلنت المختطفة الإيطالية اعتناقها الإسلام، وتغيير اسمها إلى عائشة. وتحت عنوان أنا غيّرت ديني، واسمي الآن عائشة نشرت صحيفة لاستامبا الإيطالية خبر اعتناق المواطنة سيلفيا كونستانزو رومانو الدين الإسلامي. نسأل الله لها الثبات ولكل المهتدين الجدد، كما نسأله التثبيت للمسلمين المضطهدين في الهند والصين وبورما وكل البلاد التي تضطهد الأقليات المسلمة في مختلف بقاع الأرض؛ فقد بدأ الإسلام غريباً وها هو يعود غريباً كما بدأ كما أخبر المعصوم سيد البشر؛ فطوبى للغرباء.

## المراجع:

مادة هذا الكتاب كلها مأخوذة من الشبكة العنكبوتية.

وأشهر المواقع التي تمت زيارتها:

- قصة الإسلام

- الألوكة

- إسلام ويب

- المعرفة

- صيد الفوائد

- المحتسب

- ويكيبيديا

وغيرها كثير

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali\_111@hotmail.com

الكويت : 98866903

مصر : 01099694140

## جدول المحتويات

٥	..... نار الغيرة
٩	..... بَرْد وسلام
١٧	..... عبْرَة لأولي الألباب
٢١	..... نجوت من القوم الظالمين
٢٤	..... لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات
٢٩	..... وسلامٍ عليّ
٣٤	..... بل رَفَعَهُ اللهُ إليه
٤٢	..... إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ
٤٥	..... وشاهدي ومشهود
٤٩	..... المَلِك التائب
٥٠	..... وإنك لعلی خلق عظیم
٥٣	..... أَوَّل داعية إلى الإسلام بعد النبي
٥٧	..... صيراً آل ياسر
٦٠	..... أَحَدٌ أَحَدٌ
٦٢	..... ولست أبالي حين أُقتل مسلماً
٦٤	..... رُبَع الإسلام
٦٦	..... سلمان منا أهل البيت
٧٤	..... صحابي قَبِلَ هِرَقْلَ رأسه
٧٩	..... ربح البيع أبا يحيى
٨١	..... فتى قريش المدلل
٨٣	..... ذو النورين والهجرتين
٨٤	..... مولى المغيرة لا جادتك غادية
٩٠	..... إنك مُفطر عندنا غداً

- ٩٦..... تقتلك الفئة الباغية
- ٩٨..... الشهيدة
- ٩٩..... ابن الخليفة وربيب الخليفة
- ١٠٢..... قائد الشهباء
- ١٠٦..... شُلتَ يمينك يا بن مُلجَم
- ١١٠..... عبدالله المقتول لا عبدالله القاتل
- ١١٢..... سبط الرسول ابن البتول
- ١١٥..... ريحانة رسول الله من الدنيا
- ١١٩..... حاملُ سِرِّ عليّ
- ١٢١..... أول مولود بعد الهجرة
- ١٢٥..... صاحب النُقب
- ١٢٧..... يموت بفلاة من الأرض وحده
- ١٢٩..... صاحب السيف الخشب
- ١٣٢..... الغازي في سبيل الله
- ١٣٥..... المرأة الصالحة
- ١٣٧..... إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك
- ١٣٩..... صاحب رسول الله
- ١٤٢..... نِعْم العَبْدُ عبْدُالله
- ١٤٩..... الكَلْفُ بِالْمَحَامِدِ وَالْأَذْكَارِ
- ١٥١..... سيّد التابعين
- ١٥٦..... إمام دار الهجرة
- ١٥٩..... جامع العلوم
- ١٦٢..... زينة الشباب
- ١٦٧..... أَذْهَبَ فَأَنْتَ فِي حِلِّ

- ١٧٠..... إِنَّ صَدَقْنَاكُمْ قَتَلْتُمُونَا
- ١٧٢..... شبيهه يوسف بن يعقوب
- ١٧٥..... ما سمعتُ حديثاً إلا حفظته
- ١٧٧..... هو في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما
- ١٨٠..... أول من نَقَطَ المصاحف
- ١٨٣..... يولد لك ولد نحلته اسمي وكنيتي
- ١٨٨..... خير بني أمية
- ١٩١..... طاووس القرّاء
- ١٩٥..... شبيهه إبراهيم الخليل
- ١٩٧..... الإمام الذي بكى من الفرح
- ١٩٩..... سيد علماء البصرة
- ٢٠٢..... يا منصور يا منصور
- ٢٠٦..... هكذا يُطلب العُلم
- ٢٠٨..... ولدني أبو بكر مرتين
- ٢١١..... شريف بني هاشم
- ٢١٣..... الخطيب البغدادي
- ٢١٦..... ضحية الروافض
- ٢١٩..... الحافظ المقدسي
- ٢٢٣..... مجدد المائة الثالثة عشرة من الهجرة
- ٢٢٧..... لا أدخلها والظاهر فيها
- ٢٢٩..... أول الأئمة الأربعة
- ٢٣٦..... سلطان العلماء
- ٢٤٣..... إمام الأئمة ضحية النميمة والبهتان
- ٢٤٨..... سيد الفقهاء ومجدد الأمة

- ٢٥٣..... حافظ زمانه
- ٢٥٥..... إمام السنَّة الثابت في الفتنة
- ٢٥٩..... صاحب كتاب الحَيِّدة
- ٢٦٦..... الإمام الصادق بالحق
- ٢٦٩..... الإمام المحسود
- ٢٧٦..... الشهيد في قيوده من أجل الحق
- ٢٨٢..... أنا جنتي وبستاني في صدري
- ٢٩٠..... التلميذ على نهج أستاذه
- ٢٩٦..... السجين بسبب فتوى
- ٢٩٨..... شهيد الثبات على السنة
- ٣٠٠..... صلابة في السنَّة وسخاوة نفس
- ٣٠٣..... المدفون في قيوده
- ٣٠٤..... ضحية التعصب المذهبي
- ٣٠٦..... شهيد العلم
- ٣٠٨..... ضحية الظن السيئ
- ٣١٣..... شهيد المهدي المنتظر!
- ٣١٥..... ناصح الولاية
- ٣٢٢..... اثنان من علماء المغرب والأندلس
- ٣٢٤..... اثنان من المتصوفة
- ٣٢٦..... شهيد من حلب
- ٣٢٩..... من علماء الإيجور في الصين
- ٣٣٢..... مؤسس جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية الإيجورية
- ٣٤٠..... السياسي الشهيد
- ٣٤٦..... لا يَصْلُحُ آخرُ هذه الأمة إلا بما صلح به أولها

- ٣٥٥..... إكمال المسيرة حتى التحرير
- ٣٥٩..... الأمير الأسير
- ٣٦٧..... مفتي القدس
- ٣٧٥..... شيخ المقاومة
- ٣٧٨..... شيخ المجاهدين
- ٣٨١..... القائد الصائم القائم
- ٣٨٨..... أسد الصحراء
- ٣٩٥..... عالم مسلم من بلوشستان
- ٣٩٧..... أحد شهداء البوسنة
- ٤٠٠..... لأنها أسلمت